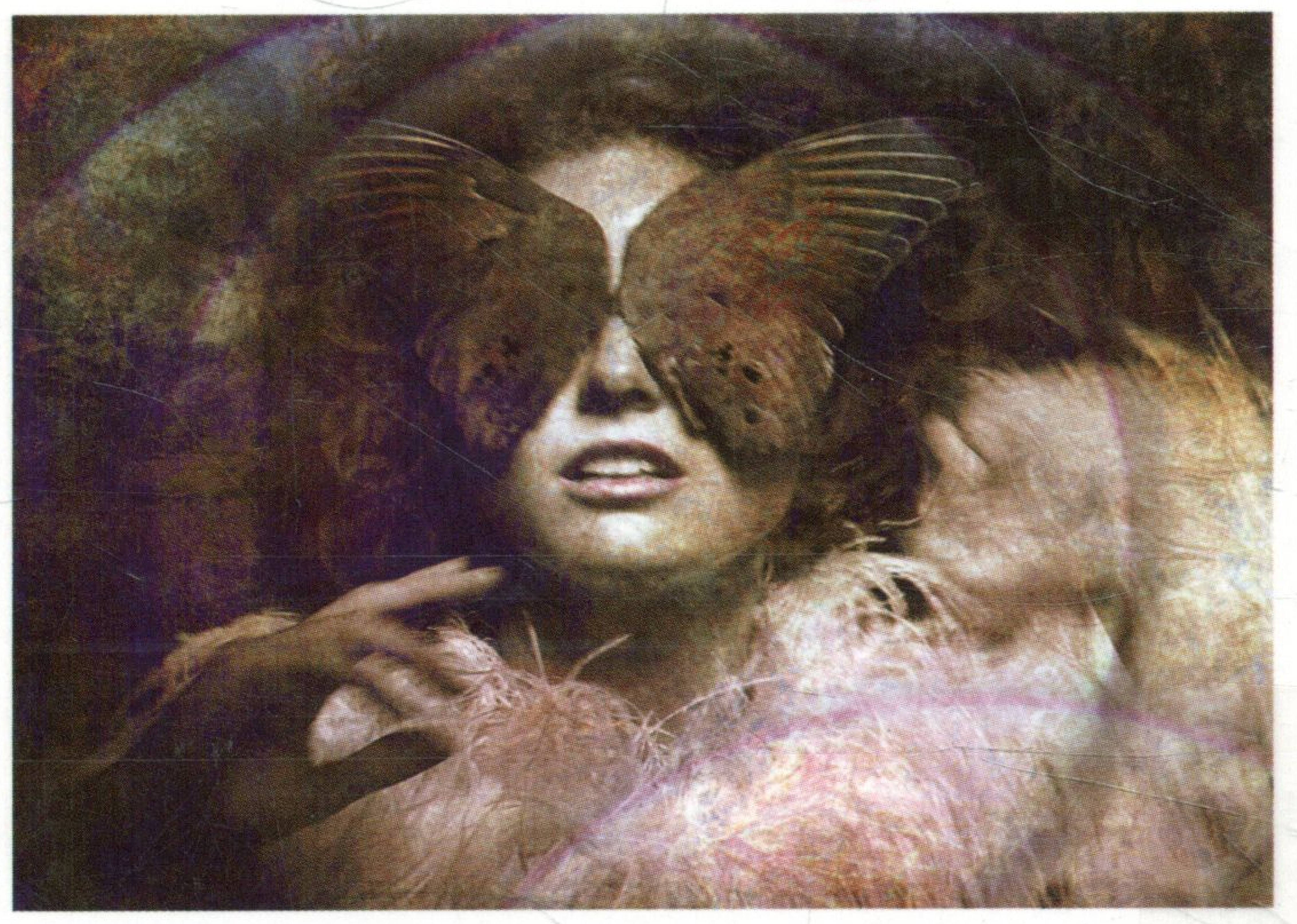
ترجمة: سلمى مليباري

صوتها القادم من هناك



قصص مترجمة





صوتها القادم من هناك

ترجمة:

سلمى مليباري

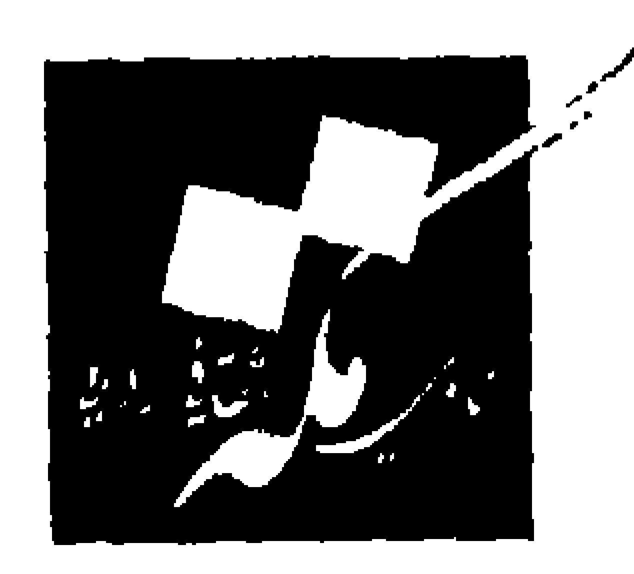




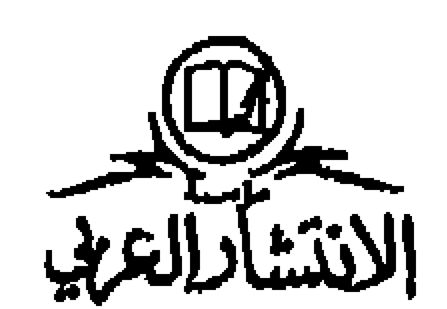
صوتها القادم من هناك

ترجمة:

سلمى مليباري



مكة المكرمة - الزاهر - 6586
هاتف: 025480133 / 025480144
فاكس: 025480508
البريد الالكتروني:
adbimakkah@hotmail.com
المملكة العربية السعودية
www.makkahclub.org.sa



ص.ب: 113/5752
E-mail. arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 659148-9611 فاكس: 659150-9611

ISBN 978-614-404-257-1

الطبعة الأولى 2012

المحتويات

المقدمة

يحوي الكتاب بين دفتيه خمس عشرة قصة قصيرة لكاتبات يمثلن ثقافات مختلفة من شتى بقاع العالم، ولا يجمع بين هذه القصص أي معيار سوى أنها كتبت بواسطة أنثى. هل هذا تأكيد لفكرة وجود أدب خاص بالمرأة مستقل ومختلف عن باقي الآداب والفنون؟ أرجو ألا ينظر إلى الأمر على هذا النحو. فاختلاف أساليب الكتابة واختيار المفردات مرده إلى القاعدة الكونية في اختلاف البشر. المرأة صنو الرجل وشريكته في البناء والفكر والثقافة والإبداع، رغم ذلك كانت الهيمنة للرجل على الدوام وكان له نصيب الأسد في الوصول والانتشار وهذه ليست إلا محاولة متواضعة مني لإيصال صوت المرأة بكل ما فيها من رقة وقسوة، بساطة وغموض، قوة وخنوع، وكل ما تتصف به نساء العالم من صفات متضادة تمامًا كما هي الحال مع الرجل. لقد بذلت أقصى جهدي في الحفاظ على أسلوب الكاتبة والنبرة التي أرادت أن تحملها القصة، لذا سنلاحظ النبرة الطفولية التي تتناهى إلى قلوبنا من قصة رحلة السفاري التي تعمدتها غورديمر لإظهار ما تعانيه الطفولة من ويلات الحرب والصراعات السياسية بلا ذنب ولا جناية

ذلك بعكس اللغة المعقدة التي نجدها في قصة الطيبة مانا والتي تمثل ما يواجه الإنسان من تعقيدات حياتية ومجتمعية تدفعه إلى محاولة فهمها وتحليلها ليتمكن من التعايش معها بسلام. كذلك نصدم باللغة الحادة القاسية والكلمات التي لا تتحمل أي معنى آخر في قصة الأديبة هيد لتظهر قسوة الحياة وعنتها، تقابلها لغة تكاد تكون شعرية حالمة تنساب فيها الكلمات بنعومة وبراءة، لترسم حالة الفرد الغض قبل أن تعركه الحياة وتصدمه بحقيقتها في أحلام يقظة. وهكذا ننتقل مع القصص من جو إلى آخر ومن فكرة إلى فكرة مضادة لنحصل أخيرًا على صورة واقعية للحياة بكل تنوعها وثرائها. أتمنى أن يكون عملي المتواضع قدْ ارتقى إلى المستوى المطلوب في فن ترجمة الأدب، علمًا أنني قد ترجمت بعضًا من القصص من لغتها الأصلية وهي الانجليزية وبعضها الآخر سبق وأن ترجم من لغاتها الأصلية إلى اللغة الانجليزية، ومن ثم عملت على نقلها إلى اللغة العربية على أمل ألا تكون قد فقدت شيئًا من جوهر معانيها وجمالها ولكن ما شجّعني على ذلك هو أنني قد عشت أجواء القصة كما لو أني أقرأها بلغتها الأصلية وكذلك افتقار المكتبة العربية إلى الأعمال الأدبية الخاصة بتلك الثقافات.

المترجمة/سلمى مليباري

رحلة السفاري

The Ultimate Safari

الكاتبة / نادين غورديمر Nadine Gordimer

وتستمر المغامرة الإفريقية... يمكنك انت ان تعيشها الآن!

رحلة إلى اعماق الغابات او المشاركة في بعثة إليها

برفقة مرشدين خبراء بإفريقيا.

إعلان سياحي ـ صحيفة أوبزرفر ـ
لندن ـ 27 ـ 11 ـ 1988

في تلك الليلة مضت والدتنا إلى الدكان ولم تعد قط. ماذا حدث؟ لا أعلم. والدي أيضًا ذهب في أحد الأيام ولم يعد قط. ولكنه كان يشارك في الحرب. كانت الحرب قائمة لكننا لسنا إلا أطفالًا ولا نملك أي أسلحة تمامًا كجدتنا وجدنا. كان والدي يحارب اللصوص ـ كما تسمّيهم حكومتنا ـ الذين انتشروا في كل مكان وكنا نهرب منهم

(*) تدور أحداث القصة خلال أحداث الفوضى والتمرد بعد استقلال زيمبابوي.

كدجاج تطارده الكلاب. لم نعرف إلى أين نذهب. لقد ذهبت أمنا إلى الدكان بعد أن أخبرها أحدهم بأنها تستطيع الحصول على زيت للطبخ من هناك وكم كنا سعداء فنحن لم نذق طعم الزيت منذ مدة طويلة. ربما تكون قد حصلت فعلًا على الزيت ثم قابلها أحدهم وقضى عليها ليأخذ الزيت منها. وربما تكون قد صادفت أحد أولئك اللصوص. إن قابلتهم فسوف يقتلونك. لقد جاءوا إلى قريتنا مرتين فركضنا واختبأنا في الدغل وعند مغادرتهم عدنا فوجدنا أنهم قد أخذوا كل شيء، إلا أنهم عندما عادوا للمرة الثالثة لم يكن هناك شيء ليأخذوه، لا زيت ولا طعام، لذا فقد أضرموا النار في القش فانهارت أسقف منزلنا. وجدت أمي بعضًا من قطع الصفيح فغطينا به جزءًا من المنزل. في تلك الليلة بقينا هناك قابعين بانتظارها لكنها لم تعد. كم كنا مرتعبين من فكرة الخروج من المنزل لقضاء شؤوننا فقد عاد اللصوص. لقد عادوا إلى القرية لكنهم لم يأتوا إلى منزلنا فلا بد أنه قد بدا لهم خاليًا لكونه بلا سقف ولا شيء فيه. لقد سمعنا الناس يصرخون ويركضون. كنا خائفين حتى من الهرب دون أن تكون والدتنا موجودة لتخبرنا إلى أين نهرب. أنا الابنة الوسطى، وقد تعلق أخي الصغير ببطني وأحاط عنقي بذراعيه وخاصرتي بساقيه كما يتعلق القرد الصغير بأمه. أما أخي الأكبر فقد أمضى الليل كله قابضًا على قطعة خشبية كسرت من أحد أعمدة منزلنا المحترقة ليحمي نفسه من اللصوص إن وجدوه.

بقينا هناك طوال النهار بانتظارها. لا أعلم أي يوم هذا فلم تعد هناك مدرسة أو كنيسة في القرية لذا من الصعب عليك أن تميز الأحد من الاثنين.

عندما أوشكت الشمس على الغروب حضرت جدتنا وجدّنا. لقد أخبرهما أحدهم أننا نحن الصغار وحيدون وأن والدتنا لم تعد. أنا أقول جدتنا وجدنا ذلك لأن جدتنا كبيرة وقوية ولم تصبح عجوزًا بعد، أما جدنا فضئيل ولا يمكنك إيجاده في بنطاله الفضفاض. إنه يبتسم رغم أنه لا يسمع ما تقول ويبدو شعره كما لو أنه مغطى برغوة الصابون. أخذتنا جدتنا جميعًا إلى منزلها ـ أنا، الطفل، أخي الأكبر وجدنا، وكنا خائفين من مصادفة اللصوص في الطريق. كنا جميعًا خائفين ما عدا أخي الصغير فقد كان نائمًا على ظهر جدتنا. انتظرنا لوقت طويل في منزل جدتنا. ربما لشهر كامل. كنا جائعين ولم تأت أمنا قط. بينما كنا بانتظارها لإيجادنا، لم يكن لدى جدتنا أي طعام لنا أو لجدنا أو حتى لنفسها. منحتنا إحدى النسوة حليبًا من صدرها من أجل أخي الصغير رغم أنه كان معتادًا على تناول العصيدة في المنزل مثلنا. أخذتنا جدتنا للبحث عن السبانخ البري إلا أن جميع من في قريتها قد فعل الشيء ذاته حتى لم يتبق هناك ورقة واحدة.

خرج جدنا مشيًا خلف مجموعة من الشباب للبحث عن والدتنا لكنه لم يجدها. بكت جدتنا ومعها نسوة أخريات وأخذت أنا في إنشاد التراتيل معهن. جلبن معهن قليلًا من الطعام ـ بعض الحبوب ـ لكنهن تلاشين في يومين

فقط. لقد كان لدى جدتنا ثلاثة خراف وبقرة وحديقة خضروات إلا أن اللصوص كانوا قد سرقوا الخراف منذ وقت طويل لأنهم كانوا هم أيضًا جائعين، وعندما حل وقت الزراعة لم يكن لدى جدنا بذور لزرعها.

وهكذا قررت جدتنا بأن علينا مغادرة المكان أما جدنا فقد أحدث بعض الجلبة فقط وأخذ في الاهتزاز يمنة ويسرة لكنها لم تلق له بالًا. ابتهجنا نحن الصغار لذلك القرار فقد رغبنا في الابتعاد عن هذا المكان الذي لم تكن فيه والدتنا، المكان الذي بقينا فيه جائعين. رغبنا في الانتقال إلى مكان لا لصوص فيه بل طعام. شعرنا بالسعادة لاعتقادنا بوجود مكان كهذا، بعيد عن هنا.

تخلت جدتنا عن ملابس الكنيسة لأحدهم مقابل بعض من الذرة المجففة التي قامت بسلقها وربطها في قطعة من قماش بال.. أخذناه معنا ونحن مغادرون. اعتقدت أننا سنحصل على الماء من الأنهار إلا أننا لم نصادف أي نهر وأصبنا بظمأ شديد فاضطررنا إلى العودة ولكن ليس إلى قرية جدينا بل إلى قرية بها مضخة ماء. فتحت جدتنا السلة التي وضعت فيها الملابس والذرة المجففة وباعت حذاءها لشراء وعاء ماء بلاستيكي كبير. قلت لها: غوغو، كيف لك أن تذهبي إلى الكنيسة الآن وأنت لا تملكين حتى حذاء. لكنها قالت إننا بصدد القيام برحلة طويلة وإن لدينا الكثير لنحمله. قابلنا في القرية آخرين على وشك المغادرة أيضًا. رافقناهم فبدا أنهم يعرفون ذلك المكان بشكل أفضل منا.

كان علينا أن نعبر حديقة كروغر(*) لبلوغ ذلك المكان. كنا نعرف بعض الشيء عن حديقة كروغر تلك. مكان يماثل بلدًا كاملًا للحيوانات، فيلة، أسود، بنات آوى، ضباع، أفراس نهر، تماسيح وكل أنواع الحيوانات. وجد بعض منها في موطننا قبل الحرب كما يتذكر جدنا وذلك قبل أن نولد نحن الصغار، إلا أن اللصوص قتلوا الفيلة وباعوا أنيابها كما أن أولئك اللصوص ومعهم جنودنا التهموا جميع الوعول. هناك رجل في قريتنا بلا رجلين - انتزعهما تمساح في نهرنا: لكن الأمر لم يتغير فبلدنا بلد للبشر وليس للحيوانات. لقد كنا نعرف حديقة كروغر ذلك أن بعض الرجال اعتادوا مغادرة منازلهم للعمل هناك حيث يأتي البيض لمشاهدة الحيوانات.

وهكذا استأنفنا الترحال مرة أخرى. كان هناك نسوة وأطفال آخرون مثلي ممن يتوجب عليهم حمل الصغار على ظهورهم عندما تتعب النساء. قادنا أحد الرجال إلى حديقة كروغر: هل وصلنا، هل وصلنا. أخذت أسائل جدتنا. ليس بعد، أجاب الرجل جدتنا عندما استفسرت منه لأجلي. أخبرنا أنه يتوجب علينا أن نسير مسافة طويلة للالتفاف حول السياج الذي يمكنه قتلنا وشي جلودنا إن لمسناه فهو يشبه تلك الأسلاك الممتدة على أعمدة الكهرباء في بلدتنا. سبق أن رأيت تلك العلامة التي تمثل رأسًا بلا عينين أو

(*) Kruger: محمية وطنية تغطي مساحة 19,485كم2.

جلد أو شعر على صندوق معدني في مستشفى الإرسالية وذلك قبل أن يتم تفجيره.

عندما استفسرت في المرة التالية قالوا لي بأنه قد مضت ساعة ونحن سائرون فيه. إلا أنه يشبه الأدغال التي كنا نسير فيها طوال النهار فنحن لم نر أي حيوانات عدا القردة والطيور التي اعتدنا رؤيتها حولنا في القرية بالإضافة إلى سلحفاة لم تتمكن بالطبع من الهرب منا. لقد أحضرها أخي الأكبر وفتيان آخرون معه إلى الرجل ليقتلها حتى نتمكن من طهوها وأكلها، إلا أنه تركها تذهب فقد أخبرنا أنه لا يمكننا إشعال نار طوال وجودنا في الحديقة فالدخان سيكشف مكان وجودنا وستقبض علينا الشرطة والحراس ويعيدوننا إلى حيث أتينا. أخبرنا أنه يتوجب علينا أن نتحرك بين الحيوانات كالحيوانات بمنأى عن الطرقات وبمنأى عن مخيمات البيض. في تلك اللحظة سمعت - متأكدة أنني كنت أول من سمع صوت تحطم الأغصان وصوت شيء يسير على العشب. لقد أوشكت على الصراخ معتقدة أن الشرطة والحرس، أولئك الذين طلب منا أن نحذرهم، قد وجدونا. لكنه كان فيلًا ثم فيلًا آخر والمزيد من الفيلة. كتل ضخمة من العتمة أخذت في التحرك أينما تطلعت بين الأشجار. أخذت الفيلة في لف خراطيمها حول أوراق الموبين الحمراء ومن ثم حشوها في فمها. انحنت صغار الفيلة تجاه أمهاتها تصارع مكتملة النمو كما يفعل أخي الأكبر مع أصدقائه عدا أنها استخدمت خراطيمها عوضًا عن

قوائمها. لقد كنت مأخوذة بالمشهد حتى أني نسيت خوفي. قال الرجل بأن كل ما علينا فعله هو البقاء بلا حراك إلى أن تجتاز الفيلة المكان. لقد عبرت ببطء شديد فضخامة حجم الفيلة لا تجعلها بحاجة إلى الهرب من أحد.

فرت الوعول من أمامنا وقفزت عاليًا كما لو أنها تطير. تجمدت الخنازير البرية في أماكنها كالنافقة عندما سمعت أصواتنا ثم أخذت تسير بشكل متعرج يشبه سير صبي القرية بدراجته التي أحضرها له والده عند عودته من المناجم. تتبعنا الحيوانات إلى أماكن الشرب. بعد انتهائها كنا نشرب من الحفر التي شربت منها. كلما شعرنا بالظمأ، كنا نعثر على الماء إلا أن الحيوانات كانت تأكل وتأكل طوال الوقت. كلما صادفنا تلك الحيوانات، كنا نراها تأكل العشب والأشجار والجذور، أما نحن فلم يكن هناك شيء لنا لنأكله. لقد نفدت الذرة المجففة. الشيء الوحيد الذي كان في مقدورنا أكله هو ما تأكله قرود البابون وهو ثمار التين الصغيرة الجافة والممتلئة بالنمل فهي تنمو على غصون الأشجار المجاورة للنهر. إنه لمن الصعب أن تكون كالحيوانات.

عندما تشتدّ الحرارة في النهار، كنا نمرّ بالأسود وهي مستلقية ونائمة. لونها كلون العشب حتى أننا لم نكن نميزها منه إلا أن الرجل كان قادرًا على ذلك فكان يقودنا لمسافات طويلة للالتفاف حول المكان الذي تنام فيه الأسود. أصبح أخي الصغير أكثر هزالًا ورغم ذلك كان

ثقيلًا جدًا علي. عندما تقوم جدتنا بالبحث عني لوضعه على ظهري كنت أحاول التهرب منها. توقف أخي الأكبر عن الكلام وعندما نأخذ قسطًا من الراحة كان يتوجب علينا هزه لينهض مرة أخرى وكأنه أصبح غير قادر على السماع تمامًا مثل جدنا. لقد رأيت الذباب يزحف على وجه جدتنا دون أن تهشه عنها. كم أفزعني ذلك. التقطت ورقة سعف ولحقت بهم.

واصلنا السير ليلًا ونهارًا. شاهدنا نار الطبخ في مخيمات البيض وشممنا رائحة اللحم. عندما يستدير أحدهم تجاهنا وننظر بعضنا إلى بعض في الظلام، ترى تلك العيون البنية البراقة مثل أعيننا. حملت الريح إلينا أصواتًا تتحدث بلغتنا من المجمعات التي يعيش فيها أولئك الذين يعملون في المخيم. رغبت إحدى النسوة المرافقات لنا في الذهاب إلى هناك وطلب المساعدة فكما قالت بإمكانهم منحنا بقايا الطعام، ثم بدأت بالنحيب مما جعل جدتنا تجذبها بشدة وتضع يدها على فمها لإسكاتها. أخبرنا الرجل الذي يقودنا بأن علينا أن نبتعد عن عمال حديقة كروغر رغم أنهم من شعبنا، فهم سيخسرون أعمالهم إن قدّموا المساعدة لنا وكل ما بوسعهم عمله إن رأونا هو التظاهر بعدم رؤيتنا وأنهم لم يروا إلا حيوانات.

كنا نتوقف في بعض الأحيان ليلًا لأخذ قسط من النوم وكنا ننام متلاصقين. كنا نسير ونسير في أي وقت وفي كل وقت لذا لا أعلم في أي ليلة سمعنا صوت

الأسود من مسافة قريبة جدًا. لم تكن تزأر كما تفعل عندما تكون بعيدة لكنها كانت تلهث كما نفعل بعد الركض، إلا أنه نوع مختلف من اللهاث: يمكنك أن تخمن أنها لم تكن تجري بل تترقب في مكان ما قريب منا. التصق بعضنا ببعض متقاربين أكثر، يعلو أحدنا الآخر، يناضل أولئك الذين عند الأطراف ليصبحوا في الوسط. اعتصرت إلى جانب امرأة تفوح منها رائحة نتنة بسبب خوفها، رغم ذلك كنت متلهفة للتمسك بها. لقد دعوت الله أن يجعل الأسود تختطف أحد أولئك الذين عند الأطراف ومن ثم تمضي في سبيلها. أغمضت عينيّ حتى لا أرى الشجرة التي من الممكن أن يقفز منها أسد إلى وسط المجموعة حيث أقف أنا، إلا أن الرجل الذي يقودنا قفز عاليًا وضرب الشجرة بغصن يابس. لقد أمرنا بألا نصدر أي صوت أبدًا ولكن ها هو آخذ في الصراخ الآن. لقد أخذ في الصراخ في الأسود كما يفعل الرجل الثمل في قريتنا عندما يصرخ دون أن يكون أمامه أحد. تحركت الأسود مبتعدة. لقد سمعناها تزأر عليه من بعيد.

كنا متعبين، متعبين جدًا. توجب على أخي الأكبر والرجل حمل جدنا من صخرة إلى أخرى عندما كنا نضطر إلى عبور الأنهار. جدتنا كانت قوية إلا أن قدمها أخذت تنزف. لم يعد بإمكاننا حمل السلة على رؤوسنا، لم يعد بإمكاننا حمل أي شيء سوى أخي الصغير، لذا فقد تركنا أغراضنا تحت بعض الشجيرات وكما قالت جدتنا يكفينا

أن نصل إلى هناك بأجسادنا فقط. وصلنا إلى منطقة عشبية تسمى أعشاب الفيلة ذلك أنها كانت في علو الفيلة تقريبًا، وقد شعرنا حينئذ ببعض الآلام. لم يكن بإمكان جدنا قضاء حاجته أمام الناس كما يفعل أخي الصغير فمضى وحده بين الأعشاب. كان علينا أن نواصل المسير كما قال الرجل الذي يقودنا حتى يمكننا بلوغ هدفنا، لكننا طلبنا منه انتظار جدنا.

وهكذا بقي الجميع منتظرين جدنا لكنه لم يأت. لم نتمكن من سماع حركته بين العشب فقد كنا في منتصف النهار وكانت الحشرات تطن في آذاننا. لم نتمكن أيضًا من رؤيته فقد كانت الأعشاب عالية جدًا بينما هو ضئيل جدًا. لابد وأنه في مكان ما هناك في بنطاله الفضفاض وقميصه الممزق الذي لم تتمكن جدتنا من خياطته لعدم وجود قطن لديها. كنا نعلم أنه لم يبتعد كثيرًا فقد كان ضعيفًا وبطيئًا. ذهبنا جميعًا للبحث عنه ولكن في مجموعات حتى لا نفقد بعضنا بعضًا وسط تلك الأعشاب التي تخللت أعيننا وأنوفنا. ناديناه بأصوات خفيضة لكن لا بد أن ضجيج الحشرات قد غطى على سمعه الضعيف. بحثنا وبحثنا لكننا لم نعثر عليه. بقينا بين تلك الأعشاب المرتفعة طوال الليل. رأيته في منامي ملتفًا في مكان هبطه بمفرده شبيه بتلك الأماكن التي رأينا الوعول تخبئ صغارها فيها.

عندما استيقظت لم يكن قد جاء بعد، لذا بحثنا مرة أخرى. تشكلت هذه المرأة ممرات من تكرار مرورنا على

العشب. لا بد وأنه من السهل عليه إيجادنا إن لم نتمكن نحن من إيجاده. قضينا طوال ذلك النهار جالسين بانتظاره. يبدو كل شيء هادئًا عندما تكون الشمس على رأسك، داخل رأسك حتى لو استلقيت تحت الأشجار كالحيوانات. استلقيت على ظهري ورأيت تلك الطيور البشعة ذات المنقار المعقوف والعنق المنتوف وهي تحلق وتحلق فوقنا. مررنا بها عدة مرات من قبل وهي تلتهم عظام الحيوانات الميتة حتى أنها لم تبق لنا شيئًا لنأكله. أخذت تلف وتدور وتدور في السماء مرتفعة ثم هابطة ثم مرتفعة مرة أخرى. شاهدت أعناقها وهي تهتز من جهة لأخرى واستمرت في التحليق والدوران. رأيت جدتنا تنظر إليها أيضًا وهي جالسة وأخي الصغير في حجرها طوال الوقت.

بعد العصر جاء الرجل الذي يقودنا وأخبر جدتنا بأن على البقية مواصلة السير فسيموت الصغار إن لم يأكلوا قريبًا.

لم تقل جدتنا شيئًا.

قال لها سأحضر لك ماء قبل أن نمضي.

نظرت جدتنا إلينا، إلي وإلى أخي الأكبر وإلى أخي الصغير الجالس في حجرها. شاهدنا الآخرين وهم ينهضون استعدادًا للرحيل. لم أصدق أن تلك المنطقة العشبية ستخلو من حولنا وسنبقى وحدنا في ذلك المكان، في حديقة كروغر، حيث سنكون عرضة لأن تجدنا الشرطة أو الحيوانات. انحدرت الدموع من عينيّ وأنفي على يدي لكن

جدتنا لم تلتفت إلي بل نهضت وقدماها منفرجتان كما كانت تفعل عندما توشك على رفع الحطب بمنزلنا في القرية. علقت أخي الصغير على ظهرها ثم شدّته بقماشها. تمزق أعلى ردائها كاشفًا عن ثديها الضخم إلا أنه لم يكن به شيء يغنيه. قالت لي هيا.

وهكذا غادرنا منطقة الأعشاب العالية. تركناها وراءنا وذهبنا مع الآخرين ومع الرجل الذي قادنا وبدأنا بالارتحال بعيدًا مرة أخرى.

كانت هناك خيمة كبيرة جدًا مشدودة إلى الأرض. كانت أكبر من الكنيسة ومن المدرسة. عندما وصلنا إليها لم أدرك ما تكون. سبق وأن رأيت شيئًا مماثلًا عندما أخذتنا أمنا إلى البلدة حين سمعت بوجود الجنود فيها فرغبت في سؤالهم إن كانوا يعرفون مكان وجود والدنا. في تلك الخيمة كان الناس يصلّون ويغنون. هذه الخيمة أيضًا ذات لون أزرق وأبيض مثل تلك إلا أنها ليست للصلاة ولا للغناء. لقد سكنا فيها مع بقية أولئك الذي قدمنا معهم من موطننا. تقول الأخت التي تعمل في العيادة إن عددنا يقارب المائتين دون احتساب المواليد. هناك عدد من المواليد الجدد وقد ولد بعضهم أثناء عبورنا حديقة كروغر.

بدا كما لو أن قرية كاملة تقبع داخل تلك الخيمة المظلمة على الدوام، إنها مظلمة حتى لو كانت الشمس مشرقة. وعوضًا عن المنازل كان لكل أسرة حيز ضيق أحيط بالأكياس وأوراق الصناديق المقواة أو أي شيء يمكن

استخدامه لنري باقي الأسر بأن هذا المكان خاص بي وعليهم ألا يدخلوا إليه حتى لو كان بلا أبواب أو نوافذ أو أسقف من القش. لو لم تكن طفلًا صغيرًا ووقفت هناك لرأيت جميع المنازل مكشوفة أمامك وبعضهم قام بتحضير صباغ من صخور الأرض ورسم به على أكياسه.

بالطبع هناك سقف - الخيمة هي السقف، بعيدة وعالية جدًا، كما لو أنها السماء بل كأنها جبل ونحن في داخله. تتسرب التربة من الشقوق بكثافة حتى ليخيل إليك أنه بإمكانك تسلقه. تحمينا الخيمة من المطر إلا أن الماء ينساب من الجوانب وعبر الممرات الضيقة الفاصلة بين أماكننا، إنها ضيقة ولا تتسع لمرور أكثر من شخص واحد. يلعب الأطفال في سن أخي الصغير في الطين فنضطر إلى العبور من فوقهم. أخي لا يلعب. عندما يأتي الطبيب يوم الاثنين إلى العيادة تأخذه جدتنا إليه. تقول الأخت بأنه يعاني من مشكلة في رأسه وذلك لأنه لم يكن لدينا ما يكفي من الطعام في بيتنا بسبب الحرب. بسبب أن والدنا لم يكن موجودًا، وأيضًا بسبب أنه عانى الجوع الشديد في حديقة كروغر. إنه يحب الاستلقاء على جدتنا فقط طوال النهار، في حجرها أو مستندًا إليها كيفما اتفق. ينظر وينظر. إنه يرغب في السؤال عن شيء ما لكنك ترى أنه لا يستطيع ذلك. عندما أدغدغه، قد يبتسم فقط. أعطونا في دار العبادة بودرة خاصة لوضعها في العصيدة من أجله وقد يتعافى يومًا ما.

عندما وصلنا إلى هنا كنا مثله - أخي الأكبر وأنا. إنني أتذكر بصعوبة. قادنا سكان القرية المجاورة للخيمة إلى العيادة حيث يتوجب علينا التوقيع بأننا حضرنا من البعيد عبر حديقة كروغر. جلسنا على العشب وقد اختلط الحابل بالنابل. أحضرت إحدى الأخوات بودرة خاصة وكم بدت حلوة بشعرها المنسدل وحذائها الجميل ذي الكعب العالي. أخبرتنا بأن علينا خلطها بالماء ومن ثم شربها على مهل إلا أننا مزقنا العبوة بأسناننا وابتلعنا كل محتوياتها فالتصقت حول فمي فلعقتها عن شفتيّ وأصابعي. لقد تقيأ بقية الأطفال الذين جاءوا معنا أما أنا فقد شعرت فقط بأن كل شيء في بطني يتحرك وبأن ذلك الشيء الذي ابتلعته قد أخذ في اللف والدوران كالأفعى وأصابتني حازوقة مؤلمة. نادتنا أخت أخرى وطلبت منا الاصطفاف في شرفة العيادة لكننا كنا عاجزين عن ذلك فجلسنا في المكان ينهار أحدنا على الآخر. ساعدتنا الأخوات على النهوض وأمسكن بذراعنا ثم غرسن فيها إبرًا وبإبر أخرى سحبن الدم في قوارير صغيرة. رغم أن هذا ينافي كوني مريضة إلا أني لم أفهم السبب فكلما أغمضت عينيّ توهمت بأني سائرة، الأعشاب عالية، رأيت الفيلة. لم أكن أدرك بأني قد أصبحت بعيدة عن ذلك المكان.

لكن جدتنا مازالت قوية وما زالت قادرة على تحملنا. إنها تعرف الكتابة وقد قامت بالتوقيع عنا كما أنها حصلت لنا بالخيمة على هذا الموقع المميز المجاور لأحد الجوانب

وهو من أفضل الأماكن فحتى لو هطل المطر، يمكننا رفع حاشية الخيمة عند تحسن الجو وظهور الشمس وبهذا تخرج منه تلك الروائح. تعرفت جدتنا إلى امرأة أرشدتها إلى حيث تجد العشب المناسب لصنع حُصُر النوم وقد قامت جدتنا بإعداده لنا. تأتي شاحنة الطعام إلى العيادة مرة كل شهر فتأخذ جدتنا إحدى بطاقاتها الموقعة لتثقب ثم تحصل بها على كيس من الذرة المجففة. تتوافر لديهم هناك عربات يدوية لحمل الذرة إلى الخيمة ويقوم أخي الأكبر بدفعها ثم يتسابق هو وبقية الصبية لإعادتها وهي خالية إلى العيادة. إن كان محظوظًا فإنه يصادف في طريقه شخصًا قد اشترى كمية من البيرة فيطلب منه إيصالها له بالعربة وينقده بعض المال. بالطبع ذلك ممنوع فمن المفترض بهم إعادة تلك العربات إلى الأخوات مباشرة. وهكذا يشتري أخي الأكبر بالمال الذي كسبه مشروبًا باردًا وإن رأيته فإنه يمنحني بعضًا منه. في آخر الشهر تقوم الكنيسة بوضع كومة من الملابس القديمة في فناء العيادة فتأخذ جدتي بطاقة أخرى من بطاقاتها لتثقب ومن ثم تختار بعضًا من تلك الملابس. يمكنني الذهاب إلى المدرسة فقد حصلت على رداءين وبنطالين وقميص.

لقد سمح لنا أهل القرية بالالتحاق بمدرستهم وكم دهشت عندما اكتشفت أنهم يتحدثون لغتنا نفسها وكما أخبرتني جدتنا فإن ذلك هو ما جعلهم يسمحون لنا بالبقاء على أراضيهم. في الماضي، في عهد آبائنا كنا وهم شعبًا

واحدًا لا يفصل بيننا سياج قاتل ولا حديقة كروغر بل كنا تحت حكم ملك واحد ينتمي إلى قريتنا التي غادرنا.

مضى وقت طويل ونحن هنا في الخيمة وقد بلغت الآن الحادية عشرة من العمر أما أخي الصغير فقد قارب الثلاث سنوات رغم ذلك يبدو ضئيلًا جدًا لكن رأسه كبيرة. إنه لم يتعاف إلى الآن. حفر بعض الناس الأراضي الخالية المحيطة بالخيمة وزرعوا فيها الحبوب والذرة والكرنب أما كبار السن فقد صنعوا سياجًا من الأغصان وأحاطوا به حدائقهم. لم يكن مسموحًا لأحد بالعمل في البلدة إلا أن بعض النسوة وجدن أعمالًا في القرية وبهذا أصبحن قادرين على شراء الأغراض. ولأن جدتنا قوية فقد تمكنت من العمل في بناء المنازل فأهل القرية يبنون منازلهم الجميلة بالقرميد والاسمنت ولا يستخدمون الطين مثلنا. كانت جدتنا تحمل لهم القرميد وسلال الحجارة على رأسها وبذلك أصبح لديها ما يكفي من مال لشراء السكر والشاي والحليب والصابون كما منحوها في الدكان تقويمًا علقته على حاشية الخيمة. إنني ذكية في المدرسة وقد قامت جدتنا بجمع أوراق الإعلانات الملقاة وغطت بها كتبي المدرسية. إنها تجعلنا أنا وأخي الأكبر نؤدي واجباتنا المدرسية في العصر قبل حلول الظلام فمكاننا في الخيمة لا يتسع إلا للاستلقاء متلاصقين كما كنا نفعل في حديقة كروغر، والشموع باهظة الثمن. لم تتمكن جدتنا إلى الآن من شراء حذاء لنفسها إلا أنها اشترت لي ولأخي الأكبر أحذية

مدرسية سوداء ودهان أحذية لتنظيفها. عندما يستيقظ الناس كل صباح في الخيمة، تسمع الأطفال يبكون وترى الناس يتدافعون على الصنابير في الخارج وبعض الأطفال يتناولون بقايا العصيدة الجافة من أطباق الليلة الفائتة، وأنا وأخي الأكبر نأخذ في تنظيف أحذيتنا. تجعلنا جدتي نجلس وأرجلنا ممدودة أمامنا حتى تتمكن من النظر بتمعن إلى أحذيتنا لتتأكد أنها في الوضع الصحيح. لا يملك بقية الأطفال في الخيمة أحذية مدرسية حقيقية. عندما ننظر ثلاثتنا إلى تلك الأحذية نشعر وكأننا في منزل حقيقي مرة أخرى، بلا حرب ولا ترحال.

قدم بعض من الناس البيض لالتقاط صور لسكان الخيمة. قالوا بأنهم بصدد إعداد فيلم. لم أر ذلك قط مع أني أعرف بعض الشيء عنه. شقت امرأة بيضاء طريقها إلى موقعنا ووجهت إلى جدتنا عددًا من الأسئلة التي نقلها إلى لغتنا شخص ما على دراية بلغة تلك المرأة البيضاء.

كم مضى من الزمن وأنتم تحيون بهذه الطريقة؟

«تقصد هنا؟» قالت جدتنا «قضينا في هذه الخيمة سنتين وشهرًا واحدًا».

«ما هي آمالك بالنسبة إلى المستقبل؟»

«لا شيء. أنا هنا».

«لكن ماذا عن الصغار؟»

«أريدهم أن يتعلموا ليتمكنوا من الحصول على وظائف جيدة ونقود».

«ألا تأملين في العودة إلى موزمبيق، إلى بلدك؟»

«لا لن أعود إليها».

«ولكن لن يسمح لكم بالبقاء هنا بعد انتهاء الحرب. ألا ترغبين في العودة إلى البيت؟» اعتقدت أن جدتنا لم تعد ترغب في مواصلة الحديث ولم تكن لتجيب على المرأة البيضاء. التفتت المرأة البيضاء إلينا باسمة.

أشاحت جدتي بنظرها بعيدًا وقالت: «لا شيء هناك ولا بيت».

لم يا ترى تقول جدتنا ذلك؟ لماذا؟ أنا سأعود. سأعود عبر حديقة كروغر. سأعود بعد الحرب حين لا يكون هناك لصوص. قد تكون والدتنا بانتظارنا. وربما سيكون جدنا قد وصل إلى هناك بطريقة ما وببطء عبر حديقة كروغر، جدنا الذي تركناه خلفنا. لقد تخلف عنا فقط وسيكون هناك. سيكون الجميع في البيت وسأتذكرهم.

المؤلفة

Nadine Gordimer

نادين غورديمر
جنوب إفريقيا

كاتبة وناشطة سياسية. ولدت عام 1923 في قرية صغيرة ودرست بها. بدأت بممارسة الكتابة في مرحلة مبكّرة من عمرها وطبعت أول أعمالها وهي في الخامسة عشرة من العمر وهي عبارة عن قصة للأطفال. التحقت بجامعة ويتواترسراند ولكنها لم تكمل دراستها الجامعية. تعتبر من أكثر كتاب جنوب إفريقيا إبداعًا وتميزًا. وجهت كتاباتها ونشاطاتها الأخرى إلى الإصلاح الاجتماعي ومحاربة العنصرية. في العام 1991 توج نجاحها بحصولها على جائزة نوبل للأدب. تكتب باللغة الانجليزية وطبعت أكثر من عشر روايات منها «ضيف الشرف» و«ابنة برغر» إضافة إلى العديد من المجموعات القصصية. حاليًا هي ناشطة في مجال مكافحة الإيدز.

كابوس

Nightmare

الكاتبة/مينال ديف Meenal Dave

تطايرت أصابعها على مفاتيح الكمبيوتر بينما عيناها تبحثان عن الساعة. لن يتسنى لها اللحاق بالقطار الأول هذا اليوم. السيدة راو غريبة حقًا ولم تفكر في هذه المهمة إلا في اللحظات الأخيرة حين أوشكت على المغادرة! طبعًا، معها كل الحق عندما تقول بأن المكتب سيعاد افتتاحه خلال عشرة أيام أو اثني عشر يومًا. لكن عزيزتي كل ما عليك فعله هو مرافقة زوجك على دراجته النارية وستكونين في المنزل لتجدي وجبة ساخنة من الايدلي والسامبر. لكن ماذا عني؟ إن لم ألحق بالقطار فسيتوجب علي أن أنتظره لمدة ساعة كاملة ثم أبقى به لساعتين أخريين مدة الرحلة في خوف وارتعاد. والأسوأ من ذلك أن تكون المقطورة خالية من الركاب! ولكن كيف لك أن تتفهمي ذلك؟ هاك! حمدًا لله، لقد انتهيت...آه! هناك سيارة بالفعل. جيد.

أوه، من فضلك أسرع يا أخ. لقد رفع حظر التجوال

بعد أن فرض لأيام عديدة، لا عجب إذن أن يهرع الناس إلى منازلهم وكأنهم قد أطلقوا توًا من أقفاصهم. إنهم يغادرون بشكل تلقائي في سياراتهم ودراجاتهم النارية، ولكن عند أصغر فرقعة ستجدهم يفرون للإقفال على أنفسهم مرة أخرى. يا إلهي، لماذا تصبح الإشارة حمراء الآن؟ ولكن. .أوه يا لحظي التعس.. حسنًا، لدي سبع روبيات بالضبط لذا لن أضطر إلى تضييع وقتي في انتظار الباقي. كل هؤلاء البشر على وشك الخروج من المحطة، ولكن رجاء هل لكم أن تفسحوا في الطريق لأولئك الراغبين في اللحاق بالقطار؟ والآن. أوه يا له من حشد هائل. واثقة بأن هناك سلمًا في نهاية هذا الرصيف الطويل، وقطاري في الرصيف رقم 4 وهو على وشك المغادرة. لأركض... فقط خطوتان أخريان... هاك! اللعنة. فقدته. استمتعي!

«بن»، قال بائع الشاي، «يتوجب عليك الآن الانتظار لمدة ساعة». ترى لم ينظر إلي بتلك الطريقة؟ والآن الرصيف خال تمامًا. منذ دقيقتين فقط كان يعجّ بالبشر الذين غادروا معًا كسرب طيور قذفه أحدهم بحجر.

ربما يجدر بي الذهاب إلى محل سميتا. لا أعتقد أنني سأحظى برفقة في القطار حتى لو قضيت الساعة كلها هنا. ما زالت رائحة الخوف عالقة بالهواء. حتى وبائع الشاي ينظر إلي، أشعر بالخوف فما أدراني قد يقذفني بأغراض الشاي! من يدري إلى أي طائفة ينتمي. أنا واحدة من أولئك الذين لا يؤمنون بالطائفية ولا المذهبية ولا

الطبقية. ولكن أنى له أن يعلم بذلك؟ إنه ينظر إلى النقطة الحمراء على جبيني، وإلى قلادة الزواج في عنقي. لا، لا...ليس الجميع كذلك. أنا ظمأى. أين زجاجة الماء تلك؟ - أعتقد أني وضعتها في حقيبتي... أوه.... ها هي. إنها فارغة!

أعتقد أن علي الاتصال بالمنزل من كابينة الهاتف تلك ومن ثم الحصول على بعض الماء ومجلة. أجاب فيكرام عبر الهاتف. إنه مستاء لعدم لحاقي بالقطار الأول لكني أغلقت السماعة لئلا يصلني إزعاجه المندفع من الجانب الآخر. منحني المشرف على كابينة الهاتف نصيحة: «بن، لا تعودي إلى منزلك بالقطار في هذا الوقت المتأخر. كانت الأمور مختلفة في الماضي. أما الآن فإنها مخاطرة لا يجب الدخول فيها». هكذا إذن. ترى ما الذي تغير خلال العشرة أيامَ الأخيرة؟ أخذت أسائل نفسي. ألم يعد الناس يذرفون دموعًا؟ ألا يقعون في الحب؟ ألم يعد البشر ينجبون أطفالًا؟ هل غدت الزهور تذوي قبل أن تتفتح؟ حقًا لم يتغير أي شيء. لكن لمَ كل هذا الخوف، وذلك التوجس في كل مكان؟ فلأتصفح كشك الكتب. الشيء نفسه. تفيض الصحف بلعبة الأرقام، رقصة الموت، لعبة النار، غضب الرصاص... التقطت مجلتين وجلست على المقعد.

الرصيف خال والنار قد خمدت في أكشاك الشاي وبرد الزيت المستخدم لقلي الأطعمة الشهية. غلب النعاس الصبية العاملين في تلك الأكشاك وأعيدت زجاجات

المشروبات الغازية إلى صناديقها. ماسح الأحذية، ذلك الصبي المقعد، استغرق في نوم عميق وقد أراح رأسه على وسادة تلميع الأحذية. إلا أن الكلب القريب من مقعدي يأبى أن يهدأ. إنه يلف ويدور ثم يتوقف ليتطلع حواليه ثم يلوي عنقه وينصب أذنيه وكأنه ينصت لشيء ما ليعود بعدها ويتكوم على نفسه ثم ينهض مرة أخرى. هناك كلبان يتعاركان على الرصيف المقابل. ترى هل هو خائف منهما؟

أرى أن هناك امرأة تجلس إلى جانبي الآن. إنها ترتدي نقابًا أسود ثقيلًا ولا يظهر منها سوى كفيها ،وتحمل معها حقيبة قماشية كبيرة. رغم أن عينيها أيضًا قد اختفتا تحت شبكة برقعها إلا أن بوسعي أن أشعر بهما تحدقان بي.

هناك الكثير من المقاعد الخالية على الرصيف، لمَ عليها أن تجلس إلى جانبي؟ ترى ما الذي يخطر ببالها؟ هل تحمل قنبلة في حقيبتها تلك؟ ماذا لو تركت حقيبتها هنا ومشت بعيدًا وانفجرت القنبلة؟ ماذا سيحدث لي؟ تلك ستكون النهاية لزوجي المسكين وأطفالي. لا ، يجب ألا أفكر بتلك الطريقة. المسكينة، إنها تجلس بهدوء. لكن هل يعني ذلك أنها مسالمة؟ هل يتوجب علي أن أبتعد؟ أن أمضي إلى مكان آخر؟ أشعر بأن لساني ملتصق بسقف حلقي. إنه يأبى أن يتحرك وأصابعي متشبثة بحقيبتي. رغم برودة المساء إلا أن قطرة من عرق تدحرجت من جبيني إلى يدي.

كيم بن؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ إنه تشيمان، بائع مقليات دالواداا، ظهر كالمنقذ. أشعر بأن الدم يسري في

عروقي مرة أخرى وكأن حظر التجوال قد رفع عنه. «لقد تأخرت وفاتك القطار الأول». أومأت وأنا أبتسم خوفًا من فتح فمي. ماذا لو خانتني الكلمات؟

«لم أنت جالسة هنا؟» أشار إلي بأن أنهض. «عليك ألا تجلسي هنا في أوقات كهذه». لكن قدميّ تأبيان الحركة. منحني تشايمان ابتسامة متكلفة لغباوتي ومشى بعيدًا. إنه على حق. عليّ أن أنهض من هنا. لا يمكنك أن تخمن أبدًا ما ستقدم عليه هذه المرأة. قد تستل من حقيبتها سكينًا لتطعنني ولن يعرف أحد بالأمر. أوه يكفيها أن تركلني وسأنهار على الفور. أنظر إلى يديها. كم هما ضخمتان وقويتان. ترى هل يختبئ مجرم قاس خلف ذلك البرقع؟ كيف لي أن أنهض؟ لم قررت أن أسافر في هذا الوقت؟ يا إلهي، أرجوك أعدني إلى منزلي سالمة. هل ستقدم على أمر ما؟ إذن سأقول لها، اسمعي أيتها المرأة، خذي ما تريدين ولكن لا تقتليني. حلقي الجاف يؤلمني ويداي متجمدتان. حالما أرى أحدهم مقبلًا سأنهض. جلت بعيني على الرصيف من هنا إلى هناك. لا أحد. أين ذهب الجميع؟

بدا وكأن كل ذلك قد حدث بالأمس فقط، حين كانت المحطة تفيض بالحياة ـ قطارات قادمة وأخرى مغادرة طوال الوقت، أناس يهرعون إلى هنا وهناك، ومن الصعب أن تجد موطئًا لقدمك. ومقطورة السيدات التي أستقلها كل يوم تتوافد إليها النساء وكأنهن قمح أفرغ فيها وأخرج منها. وما أن يدخلن ويجلسن حتى تفتح الحقائب والسلال لتخرج

منها الفاصولياء والبازلاء والثوم ثم يبدأن بالتقشير والتنقية وأحيانًا التقطيع. وفي بعض الأوقات تظهر كرات ملونة من الخيط لتتحول إلى زهور وبتلات على ساري أو كرتا وبطريقة ما تجد تلك التصاميم طريقها إلى الكنزات الصوفية. الخبز المقرمش والمخللات وحزم الأعشاب تباع وتشترى. تمسح دموع النسوة المضطهدات من قبل أزواجهن أو حمواتهن. تدور أحاديث نميمة المكاتب. توزع الحلويات للاحتفال بخطبة أو زواج وفي بعض الأحيان يرشق السباب واللعنات وترتفع ابتهالات رامراكشاكافاتش وغاياتري أو يفسح في المكان لتلاوة الصلوات. وكلما مررنا بمحطات أكثر، امتلأت المقاعد... لكن أين كل هذه الوجوه اليوم؟ أين هي أكياس البازلاء والفاصولياء والثوم والخبز المقرمش والتوابل؟ يبدو وكأنه قد حلت محلها وجوه يتملكها الرعب وحقائب تملؤها الريبة. كيف يمكنني أن أبتعد عن هذا المكان؟

آآه، القطار هنا، حتى إنني لم ألاحظ وصوله. حسنًا والآن إلى مقطورة السيدات مباشرة. أوه، يا إلهي المرأة ذات البرقع تتسلق من ورائي. لم لا تدعني وشأني؟ المقطورة خالية تقريبًا، بالكاد امرأتان أو ثلاث. هناك بائعة سمك مستغرقة في نوم عميق وإلى جانبها سلتها الفارغة. إنها نتنة ولكن لا مشكلة على الأقل هناك شخص آخر في المكان. وتلك المرأة تجلس أمامي.

إن السواد والظلام حالك في الخارج تمامًا كالبرقع

الذي ترتديه. ليس هناك ولا حتى خيط رفيع من ضوء لأتشبث به وأبحر في محيط الليل المظلم ذاك. ماذا يَتوجب علي أن أفعل؟ أغمضت عينيّ على أمل أن ينقشع الظلام. وعلى أمل أن أهرب من تلكما العينين المستمرتين في التحديق بي. ترى ماذا هي فاعلة الآن؟ يقول الناس بأنه لا يمكنك الوثوق بهم فأنت لا تعلم أبدًا متى سيشهرون سكينًا لذبحك به. أذكر الآن حسينة، زميلتي في الكلية. لقد طعن أخوها زوجته. لا يمكنني التوقف عن التساؤل إن كانت هذه المرأة ستقدم على العمل نفسه؟

أوه، يا إلهي. أحدهم يهزّني. افتح عيني ـ إنها المرأة ذات البرقع! أوه، لا. ماذا ستفعل بي؟ هل يتوجب علي أن أصرخ لطلب المساعدة؟ بائعة السمك مستغرقة في النوم لذا لن تعلم إن أنا قتلت. هل أقفز خارجًا بينما القطار يسير؟ أوه يا إلهي أرجوك، أرجوك انجدني! أعدك ألا أدخل هذا القطار مرة أخرى بل سأترك عملي لأتخلص من هذا التنقل الشاق والذهاب والإياب. أفضل التضور جوعًا على أن أعاني هذا الكابوس!

«بهانجي. أختي». نادتني السيدة ذات البرقع، «سأنزل هنا. أنا ممتنة لك حقًا لوجودك في المكان. تخيلي لو أني أسافر وحدي في وقت كهذا. لقد كنت خائفة جدًا... تعلمين... إنه صعب جدًا...» لا أصدق هذا! إنها خائفة مثلي! وانفجرت ضاحكة.

«ما الداعي للخوف يا أخت. إنني أسافر جيئة وإيابًا

هكذا كل يوم». فجأة اكتسب صوتي قوة أكبر من قوة صافرة القطار.

«فليحفظك الله. مع السلامة». ووضعت يدها في يدي. أحسست بأنهما رطبتان ومتعرقتان وهما تلمسانني فاختلط عرقها بعرقي. توقف القطار فساعدتها على حمل حقائبها التي بدت فجأة خفيفة وغير مخيفة. سارت بعيدًا واختفت خلال أضواء المحطة الذاوية. تثاءبت بائعة السمك وتمطت ثم أخرجت حقيبة من سلتها. عم السلام كل شيء وبدأت النجوم تتلألأ في الظلام وترشدني إلى بيتي.

المؤلفة

Meenal Dave

مينال ديف
الهند

معلمة وكاتبة معاصرة من كوجرات بالهند.

الغاية

The Destination

الكاتبة/وانغ آنيي Wang Anyi

من خلال مكبرات الصوت جاء الإعلان «سيبلغ القطار محطة شانغهاي(*)...».

فتح المسافرون الناعسون أعينهم «نكاد نصل إلى شانغهاي».

«إننا نقترب من المحطة».

خلع المتعجلون منهم أحذيتهم وتسلّقوا مقاعدهم للوصول إلى أمتعتهم.

بدأت مجموعة من الرجال متوسطي العمر من زينجيانغ بإعداد الخطط. «حال وصولنا إلى الفندق سنستحم ونتصل بمصنع المعدات الثقيلة ثم نذهب إلى مطعم غربي الطابع».

(*) شانغهاي: أكبر مدن الصين الاقتصادية من حيث التعداد السكاني الذي يزيد على 23 مليون نسمة.

«نعم، سنتناول الطعام الغربي» وارتفعت معنوياتهم. لقد ذهبوا إلى زينجيانغ بعد قضاء سنوات الدراسة في بكين،فوزو وجيانغ سو. رغم أنهم احتفظوا بلكنتهم إلا أن مظهرهم وطبائعهم كانت زينجيانغية السحنة والفظاظة. عندما طرح تشين زين سؤالًا عابرًا عن زينجيانغ،زودوه بوصف مفصل ومتحمس للمنطقة، ما تتصف به الأقليات العرقية من مرح وظرف، الأغاني الجميلة التي يشدون بها، الرقصات الرشيقة والفتيات المفعمات بالحياة. كما أنهم وصفوا حياتهم هناك وكيف كانوا يصطادون في البحر والغابات. كم كانت تلك الصور التي رسموها للمنطقة معبرة وبليغة.

«كم من الوقت ستبقى في شانغهاي؟» أحدهم، رجل من بكين سأل تشين زين مربتًا على كتفه.

التفت تشين زين إليه بعد أن كان ينظر من خلال النافذة وقال مبتسمًا: «لقد عدت للاستقرار فيها».

«تم نقلك؟»

«صحيح».

«هل أحضرت زوجتك وأبناءك؟»

«ليس لي أحد»، تورد خده وهو يقول: «لو أني تزوجت لما كان بإمكاني العودة».

«يا إلهي، يبدو أنك عاقد العزم». وتلقى كتف تشين زين تربيتة حماسية، «أنتم الشانغهانيون لا يمكنكم الحياة بعيدًا عن شانغهاي».

«إنها موطني». قال تشين زين مبتسمًا وهو يعدل من هندامه.

«على المرء أن يكون قادرًا على إيجاد الأمور الحسنة في أي مكان. إنك تتزلج في هاربن، وتسبح في غوانغ زو، وتتناول قطع لحم الضأن الكبيرة بيديك في زينجيانغ وتتناول الطعام الغربي في شانغهاي.... حيثما تأخذك الأقدار، جد شيئًا حسنًا واستمتع به إلى أقصى حد ممكن. قد يكون هذا هو ما يجعل الحياة ممتعة».

اكتفى تشين زين بالابتسام، وبشرود أخذت عيناه تنتقلان بين الحقول خارج نافذته، حقول مقسمة بعناية إلى قطع صغيرة زرعت على شكل مربعات مطرزة ذات رقع صفراء وخضراء داكنة وفاتحة. وإلى أراض مثلثة أرجوانية وبالنسبة إلى عينين اعتادتا المساحات الرحبة والتربة الخصبة في الشمال كان منظر تلك الأراضي المقسمة بعناية واستفادة قصوى صادمًا له من شدة ضيقه وتكدسه. إلا أن عليه الاعتراف بأن كل شيء بدا منتعشًا ونظيفًا كما لو أنه قد غسل توًا بالماء. هذا هو جنوب أطراف شانغهاي الخارجية. آهٍ يا شانغهاي!

اخترق القطار المصانع والجدران المنخفضة إلى الضاحية. شاهد تشين زين المصانع، المباني، الشوارع، الحافلات والمشاة... أصبحت شانغهاي الآن قريبة وملموسة. ابتلّت عيناه وخفق قلبه. منذ عشر سنوات مضت وأثناء الثورة الثقافية غادر هو وفتيان آخرون إلى الريف، في

ذلك الوقت لم يخطر بباله قط أن يعود إلى شانغهاي بعد أن تلاشت في البعيد. لا.. ربما يكون قد فكر في ذلك. في الريف، كان قد زرع القمح وحصده،جمع حثالة النهر، حاول الحصول على عمل أو القبول في جامعة... حتى التحق أخيرًا بكلية المعلمين. بعد التخرج تم تعيينه معلمًا في مدرسة متوسطة ببلدة صغيرة. وبتمكنه من كسب قوته يكون كفاحه قد انتهى. يمكنه الآن البدء بحياة جديدة. لكنه يشعر بأنه لم يصل إلى غايته، ليس بعد. مازال غير مستقر ومتطلعًا بانتظار شيء ما. لقد أدرك الآن فقط ما كان بانتظاره، ما هي غايته الحقيقية، وذلك بعد أن عادت أعداد كبيرة من تاركي الدراسة إلى شانغهاي بعد سقوط عصابة الأربعة(*).

خلال العقد الماضي كان قد زار شانغهاي لقضاء إجازة أو لإتمام بعض الأعمال. وفي كل زيارة كان يشعر بأن المسافة بينه وبين شانغهاي تزداد. لقد أصبح غريبًا ودخيلًا ينظر إليه الشانغهانيون باستعلاء. أحس بنفور من تعاليهم وغرورهم، أما تعاطف وشفقة أصدقائه فكانت لا تطاق فهي تخفي وراءها تباهيهم بأنفسهم. إلا أنه ما زال مجبرًا على الإعجاب بتطور شانغهاي وعلو شأنها. كانت المحال تعجّ ببضائع من كل الأنواع وأناس مرتدين لأحدث الأزياء وهناك المطاعم الأنيقة والنظيفة،الأفلام الحديثة في

(*) عصابة الأربعة: مجموعة سياسية يسارية برزت إلى الأضواء أثناء الثورة الثقافية (1966 ـ 1967).

صالات السينما. لقد مثلت شانغهاي كل ما هو حديث في الصين. وفوق كل ذلك هناك بيته، أمه، أخوته ورماد والده المتوفى. . . ابتسم واغرورقت عيناه بالدمع.كان ليضحي بأي شيء ليعود. حالما علم أن والدته ستتقاعد وأن بإمكان أحد أبنائها الحصول على عملها،تصرف من فوره. ذهب إلى هنا وهناك لختم أوراقه. كانت مهمة صعبة ومعقدة. ناضل رغم كل التوتر والإرهاق حتى حقق بغيته في النهاية.

أوشك القطار على التوقف في المحطة. ما أن فتح تشين زين النافذة،حتى نفذ إلى الداخل نسيم بارد، نسيم شانغهاي. شاهد أخاه الأصغر الذي كبر ليصبح ممشوقًا ووسيمًا. رؤيته للشاب وهو يجري إلى جانب القطار مناديًا بسعادة، «الأخ الثاني!» جعل قلبه ينقبض في ندم. ثم هدأ وهو يتذكر أخاه الأكبر وهو يجري إلى جانب القطار عند مغادرته منذ عشر سنوات مضت.

توقف القطار فلحقه أخوه الأصغر لاهثًا. انشغاله بالحديث إليه ومناولته أمتعته لم تجعله يلاحظ مجموعة الكهول وهم يلوحون له مودعين.

«الأخ الأكبر وزوجته ونانان هنا أيضًا. إنهم في الخارج. حصلنا على بطاقة واحدة لدخول المحطة ببرقيتك التي تخبرنا فيها بموعد وصولك. هل لديك الكثير من الأمتعة؟»

«يمكنني تدبر أمري. كيف أمي؟»

«بخير. إنها مشغولة بإعداد الغداء. لقد استيقظت منذ الثالثة فجرًا لشراء الطعام لك».

شعر تشين زين بغصة في حلقه وخفض رأسه في صمت. حتى أخوه الأصغر لاذ بالصمت.

سارا بهدوء على امتداد المحطة. عند البوابة وقف أخوه الأكبر وزوجته وابنهما نانان الذين تناولوا منه الحقائب. ساروا بها عدة خطوات ولكن وتحت وطأة ثقلها أعادوها إليه. ضحك الجميع. أحاط أخاه الأكبر بكتفه بينما أمسك أخاه الأصغر بذراعه. تبعتهم زوجة أخيه حاملة نانان.

«هل حصلت على جميع الأوراق اللازمة؟» سأله أخوه الأكبر مستفسرًا. سأطلب غدًا إذنًا للخروج وآخذك إلى مكتب العمل».

«يمكنني أخذه أنا فلا شيء يشغلني». قال الأخ الأصغر عارضًا خدماته.

ارتعد قلب تشين زين مرة ثانية. التفت إليه وقال مبتسمًا: «حسنًا يمكن للرقم 3 اصطحابي».

الوصول إلى البيت تطلب منهم ركوب ثلاث حافلات. حيته أمه خافضة رأسها لتمسح دموعها. افتقد الأبناء الثلاثة الكلمات. لم يعرفوا كيف يعبرون عن مشاعرهم حيث منعهم الخجل من ذلك. كل ما استطاعوا قوله، «لأي شيء تبكين؟» زوجة أخيه هي التي تمكنت من

إيقافها. قالت: «إن هذا يستدعي الاحتفال يا أمي. عليك أن تبتهجي».

ازداد التوتر. «هيا نأكل»، قال أحدهم للآخر. تم نقل الطاولة من غرفة أمه ذات الستة أمتار مربعة إلى الغرفة الكبيرة التي يشغلها أخوه وزوجته. تطلع شين زين حوله. لقد تغير شكل الغرفة التي كان يسكنها يومًا هو وإخوته. زين ورق الجدران الأخضر الفاتح بلوحة زيتية وإضاءة جدارية. جهزت الغرفة بأثاث أنيق، ملائم وجديد. اللون أيضًا كان مميزًا.

«ماذا تسمّي هذا اللون؟» سأل تشين زين.

«بني محمر». أجاب أخوه الأصغر بنبرة الخبير.

حرك نانان مقعدًا باتجاه الأدراج. تسلقها وأدار مشغل الكاسيت. الإيقاع القوي للموسيقى رفع من معنوياتهم.

«حياتك تبدو جيدة» الإثارة كانت واضحة في صوت تشين زين.

ابتسم أخوه الأكبر باعتذار. بعد صمت طويل قال: «إنني سعيد بعودتك أخيرًا».

جلبت زوجة أخيه بعض الطعام، «والآن بما أنك عدت، يمكنك إيجاد خطيبة والزواج بها».

«إنني عجوز وبشع. من سترغب فيّ؟»

جعلهم ذلك يضحكون.

وضعت على الطاولة أكثر من عشرة أطباق مختلفة. قطع اللحم مع الفول السوداني، قطع الأضلاع المطهوة، حساء السمك القاسي. أخذ الجميع في سكب الطعام في طبق تشين زين، حتى نانان بدأ بتقليدهم. استمروا في تقديم الطعام إليه إلى أن أصبح طبقه ممتلئًا كالتل وكأنهم يريدون بذلك تعويضه عن معاناة السنوات العشر التي قضاها بعيدًا عن البيت. أفرغ أخوه الأكبر تقريبًا جميع السمك المقلي في صحنه فهو يعرف أنه طبقه المفضل. بالرغم من أن تشين زين يصغر أخاه بثلاث سنوات إلا أنه كان دائمًا يقوم بحمايته، فشين فانغ كان طويلًا وهزيلًا حتى لقب بفاصولياء الوتر. كانت درجاته عالية في المدرسة أما خارجها فقد كان ضعيفًا في الرياضة وردات فعله بطيئة. لطالما علقت ساقاه في الحبل عندما يحين دوره في القفز. وفي لعبة الشرطة واللصوص، كان من المؤكد أن الجانب الذي يلعب فيه هو المهزوم. كم حارب تشين زين من أجله عندما كان الأولاد يرفضون أن يلعب معهم. «إذا لم ترغبوا في أخي فأنا أيضًا لن ألعب. وإذا لم ألعب فتأكدوا أنه لن تكون هناك لعبة أصلًا». وكان يعني ما يقول لذا رضخ له الصبيان خوفًا من انتقامه من جهة ولعدم رغبتهم في فقدان رفيق لعب محبوب من جهة أخرى. أما عندما اضطر تشين فانغ فيما بعد إلى وضع نظارات، اكتسب مظهر المثقفين وأصبح لقبه دودة الكتاب ولسبب ما اعتبر تشين زين ذلك اللقب مهينًا أكثر من سابقه فحسم الأمر بضرب كل من يجرؤ على التلفظ به.

عندما علقت الدراسة بسبب الثورة الثقافية كان قد أنهى المرحلة المتوسطة الأولى بينما أنهى أخوه المرحلة المتوسطة العليا. لقد كانت سياسة الحكومة واضحة: بإمكان ابن واحد فقط العمل في شانغهاي وعلى الثاني الذهاب إلى الريف. جعلت أمه تدمدم محطمة الفؤاد باكية، «راحة يدي وظهرها. كلاهما لحمي ودمي». ولشعوره بالأسى نحوها تطوع تشين زين، «سأذهب أنا إلى الريف. أخي رقيق وسيتعرض للعنف. دعيه يبقى في شانغهاي. سأذهب أنا». عندما كان مغادرًا، ذهب تشين فانغ معه إلى المحطة لتوديعه. كان متصلبًا كقطعة خشب خلف أصدقائه ولم يجرؤ على النظر في عينيه. حين هم القطار بالتحرك، مد تشين فانغ يده ليلتقط يد تشين زين وأخذ يجري إلى جانب القطار حتى بعد أن فصلت القاطرة بينهما.

أخيرًا عاد تشين زين. رغم أنهم جميعًا كانوا مغمورين بكل أنواع المشاعر، إلا أن أيًا منهم لم يتمكن من التعبير عنها فحولوها إلى أفعال. بعد العشاء قدم له أخوه الأكبر الشاي بينما أعدت زوجته السرير في الحجرة التي بنوها في فناء المنزل. وقف أخوه الأصغر نيابة عنه في طابور الحمّامات العامة حتى يتمكن من الدخول. بعد أن أكل تشين زين واستحم، استلقى على السرير المزدوج الذي كان سيشارك أخاه الأصغر فيه شاعرًا بنوع من الاسترخاء وكأنه ثمل. كان لملاءات السرير الدافئة عبق جميل وقد بعث ضوء المصباح الموجود على المنضدة في الكوخ بريقًا

هادئًا. وضع أحدهم حزمة من المجلات إلى جانب وسادته، لقد عرفت الأسرة ولم تنس أنه كان دائمًا يقرأ لنفسه حتى ينام. آه ياللبيت! هذا هو البيت. لقد عاد إلى البيت بعد عشر سنوات. أغمض عينيه واستغرق في النوم بلا قراءة مستمتعًا بطمأنينة لم يشعر بها من قبل. استيقظ في عتمة الليل. أحدهم قد جاء وأطفأ الضوء. فتح عينيه في الحجرة المظلمة وبسلام أغمضهما وعاد إلى النوم.

ذهب تشين زين وأخوه الأصغر منذ الصباح الباكر إلى مكتب العمل للبدء بالإجراءات الرسمية. قطعة الأرض المثلثة المجاورة لموقف الحافلات كانت تعجّ بأكشاك الخياطين ومكائن الخياطة. بادره شاب يعلق على رقبته شريط قياس بالسؤال: «هل ترغبان في حياكة شيء؟» هزا رأسيهما نافيين وابتعدا. استدار تشين زين بفضول إلى الشاب المرتدي ملابس كعارضي الأزياء وهو يجتذب الزبائن. شده أخوه إليه، «الحافلة قادمة. إنهم جميعًا من تاركي الدراسة بانتظار فرصة عمل. شانغهاي تعجّ بهم». بدا تشين زين مندهشًا بينما شق أخوه طريقه إلى الحافلة وتوقف بالباب مناديًا: «تعال، أخي الثاني».

«دعنا ننتظر الحافلة التالية». كانت الحافلة ممتلئة وعلى وشك الانفجار بالجموع مما جعل تشين زين يتردد في الصعود.

«سيأتي المزيد من الناس. ادخل بسرعة». سمع صوت أخيه قادمًا من بعيد.

تشين زين قوي ويمكنه المزاحمة. شق طريقه واعتصر جسده بين الجموع حتى تمكن من الإحساس بمقبض الباب فوضع قدمه على عتبته. ثم استجمع قواه ووسط الصيحات واللعنات اندفع إلى عمق الحافلة وتوقف إلى جانب نافذة ليتمسك بظهر أحد المقاعد. لكنه حشر في وضع غير مريح وأخذ يتخبط برؤوس الناس وظهورهم ووجد صعوبة في الاعتدال. جعل جميع الركاب حوله يتذمرون.

«انظر إلى الطريقة التي تقف بها».

«تمامًا كلوح الباب».

«دائمًا يتصرف الأجانب بشكل أخرق في الحافلات».

«من تنعت بالأجنبي؟» شق الرقم 3 بسخط طريقه باتجاهه استعدادًا للدخول في شجار. جذبه تشين زين «لا عليك منهم. المكان مزدحم جدًا. دعك من الشجار. «أمسك به رقم 3 بلطف». استدر في هذا الاتجاه. صحيح. أمسك بالمقعد بيدك اليسرى. هذا أفضل. ترى؟»

بالفعل. تمكن تشين زين أخيرًا من الاعتدال ضاغطًا بصدره على ظهر أحدهم وظهره هو باتجاه صدر شخص آخر. على الأقل لمست قدماه الأرض. التفت ليرى أن هناك تفهمًا صامتًا بين الركاب، متجهين في الاتجاه نفسه جميعًا في خط مستقيم، الواحد خلف الآخر. بهذه الطريقة يمكن للحافلة أن تمتلئ إلى أقصى حد. أخذ يفكر في تلك البلدة النائية التي عاش فيها حيث اعتاد الركاب حشر أنفسهم

بالطريقة القديمة. ليست هناك أي أساليب علمية مطلقًا. كانت الحافلة تمتلئ بعدد أقل من الناس بينما كان الازدحام وعدم الشعور بالراحة هو نفسه. يمكن للشانغهانيين التكيف مع المساحات الصغيرة بشكل أفضل.

جاء صوت القائدة من خلال مكبّر الصوت بلهجات بكين وشانغهاي: «التوقف التالي سيكون في طريق زيزانغ زونغ. الرجاء من الراغبين في النزول الاستعداد». تبدو أولئك النسوة بنبرتهن الملكية فخورات ومغرورات كالضباط الأشداء. لكن هذه الإعلانات تفيد الركاب. تذكر مرة أخرى القائدات والحافلات في تلك البلدة الصغيرة: الحافلات المتربة التي تنطلق قبل أن تغلق أبوابها. القائدات المتكاسلات لم يعلن قط عن التوقف التالي موصدات الأبواب على الركاب لدرجة أن تعلق ملابسهم بها. ليست هناك قواعد. تتسم الأمور في شانغهاي بحسن التنظيم. في بيئة كهذه لا بد أن تتصرف بشكل ملائم. بعد مغادرة الحافلة أخذه الرقم 3 إلى آخر الشارع حيث إحدى الأسواق الحرة التي تزخر بها المدينة. يوجد هناك خضروات، سمك، دواجن، ستر صوفية وقطع اللحم. أسفل لوحة إعلانية مكتوب عليها «ألعاب شعبية» تتراص الفوانيس ودمى الصلصال. رؤية سوق كهذه جعله يضحك. يالتناقضه الواضح مع طريق نانجينغ الباذخ والعصري بشانغهاي.

«هناك العديد من الأسواق الشبيهة بهذه في

شانغهاي». أخذ الرقم 3 يشرح له، «تشجع الحكومة تاركي الدراسة على خلق أعمال لأنفسهم».

ذكر الشباب العاطلين جعل تشين زين يقطب. «ماهي مشكلتك يا رقم 3؟ لم فشلت في اجتياز اختبار القبول في الجامعة مرة أخرى؟»

نكس الرقم 3 رأسه وقال: «لا أعرف. أعتقد أنني غبي».

«هل ستجري الاختبار مرة أخرى السنة القادمة؟»

بعد صمت طويل قال الرقم 3 بتردد: «قد أفشل للمرة الثالثة».

جعل ذلك تشين زين يشعر بالغضب. «إنك تفتقد الثقة بالنفس».

ابتسم الرقم 3 بصدق. «يبدو أنني لم أخلق للدراسة. كلما درست شيئًا نسيته».

«لم تتح الفرصة لأخيك الأكبر ولي لإتمام دراستنا. أنت الوحيد في الأسرة القادر على الالتحاق بالجامعة. ولكنك لا تطمح إلى ذلك».

غرق الرقم 3 في الصمت.

«إذن ماهي خططك؟»

ضحك الرقم 3 دون أن يرد بشيء، عندئذ سمع تشين زين أحدًا يناديه من الخلف: «تشين زين!»

استدار ليشاهد امرأة يرافقها صبي وسيم. كانت في الثلاثينات من العمر، ذات شعر مجعد وملابس عصرية. لم يتمكن تشين زين من تذكرها.

«هل أصبحت متقدمة في السن لدرجة أنك لا تستطيع التعرف إلي؟»

«لماذا.. أوه.. إنها أنت، يوان زياوكسين! أنت لا تبدين أكبر ولكن أجمل»، ضحك تشين زين.

تضاحكت يوان معه. «هيا. لقد كنا في المجموعة نفسها بالريف لمدة سنتين وبالرغم من ذلك لم تتذكرني. يالها من ذاكرة ضعيفة!»

«لا. كل ما في الأمر أني لم أتوقع رؤيتك هنا. ألم تكوني في الدفعة الأولى للحصول على عمل؟ أما زلت بإدارة منجم هوايبي؟»

«لا. لقد عدت إلى شانغهاي العام الفائت».

«لماذا؟»

«إنها قصة طويلة. ماذا عنك؟»

«لقد عدت يوم السبت».

«أوه». لم تبد متفاجئة. «زانغ زينز وفانغ فانغ عادًا أيضًا».

«جيد»، قال تشين زين بحماسة «وبهذا تكون نصف المجموعة قد عادت. علينا في وقت ما أن نجتمع. أخيرًا انتهت أوقاتنا الصعبة».

ابتسمت ببرود كاشفة عن بعض التجاعيد في زاوية عينيها.

«يا عم»، قال الصبي الصغير بصوت طفولي. «شعرك أبيض مثل شعر جدي».

ضحك تشين زين وهو ينحني ليأخذ يد الصبي، «هل هذا ابنك؟» سأل يوان.

«إنه ابن أختي، «أخذت تشرح وقد تورد خداها». أنا لست متزوجة. لو أني تزوجت لما تمكنت من العودة».

«أوه». فوجئ تشين زين بذلك. بتخرجها في السنة نفسها مع تشين فانغ يعني أن عمرها لا بد وأن يكون الآن الثالثة والثلاثين أو الرابعة والثلاثين. «ولكن لماذا لم تتزوجي بعد عودتك؟»

«حسنًا. كيف أشرح لك؟ على المرء أن ينتظر الفرصة».

لم يقل تشين زين شيئًا.

«قالت بهدوء وهي تداعب شعر «الصبي الناعم»، أحيانًا يتملكني شعور بأن العودة إلى شانغهاي لم تكن تستحق التضحيات التي قدمتها في سبيله».

حاول تشين زين مواساتها، «لا تقولي ذلك. إنه لمن الجيد العودة».

«سنتأخر عن الفيلم يا خالتي»، صاح الصبي.

«أعتذر إن كنت قد أحبطت معنوياتك. لكن الأمر مختلف معك. أنت رجل وشاب وستجد السعادة».

شعر تشين زين بانقباض في قلبه وهو يشاهدها تختفي وسط الزحام.

علق الرقم 3، «إنها سلطعون ميت».

«ماذا تقصد؟»

«إنها فوق الثلاثين ولا صديق لها. إنها مثل السلطعون الميت. لا أمل».

«ليس الأمر أنها لا تستطيع إيجاد أي صديق. لقد قالت إنها بانتظار أن يأتي الشخص المناسب. ألا تدرك الفرق؟»

سواء فهمه أم لا، أجاب باعتراض، «مهما كان ما تقصده، هي في مشكلة كبيرة. فالرجال في الثلاثين من العمر إما متزوجون وإما عاجزون غير أكفاء. أما الأكفاء منهم فمن الصعب إرضاؤهم كما أنهم يفضّلون الفتيات اليافعات الجميلات. هناك الكثيرات من ذوات العشرين المتاحات للزواج».

أراد تشين زين القول إن هناك أناسًا ينتظرون الحب ولكن بعد إعادة التفكير علم أن هذا الأمر يتجاوز إدراك الرقم 3 فتفكير الشباب أمثاله يختلف تمامًا عن جيله هو. بدلًا من ذلك قال وهو يرمق أخاه بنظرة جانبية: «أنت تعرف الكثير».

بدا الرقم 3 فخورًا بنفسه ولم يتبين السخرية في ذلك أما تشين زين فقد شعر بالذنب فأضاف بنبرة أكثر مودة، «ماذا تفعل كل يوم؟»

«ليس هناك الكثير عدا مشاهدة التلفاز والاستماع إلى المذياع والنوم».

«ماهي خططك؟»

لم يجب بشيء غير أنه أفضى إليه وهما متجهان إلى مكتب العمل، «أرغب في الحصول على عمل».

توقف تشين زين لبرهة إلا أن الرقم 3 استحثه، «هيا». بدت عيناه صادقتين ومخلصتين رغم ذلك فضل تشين زين تجنبهما.

بدأ تشين زين بالعمل في مصنع والدته الذي يبعد عنهم كثيرًا فالوصول إلى هناك يستغرق ساعة وعشرين دقيقة من الزمن ويتطلب ركوب ثلاث حافلات. تم توجيهه للعمل في المخرطة حيث يتوجب عليه التعلم من البداية وبسخرية كان يدعو نفسه المتدرب المبتدئ ذا الثلاثين عامًا. لم تشكل الخراطة صعوبة بالنسبة إليه ولكن التكيف مع الحياة الجديدة وخطواتها المتسارعة هو ما أرهقه. كان عليه أن يركض من الحافلة الأولى ليلحق بالثانية ثم الثالثة... عليه ألا يفقد أيًا منها مما يعني أنه لن يكون هناك تدخين ولا أحلام يقظة. أيضًا وجد صعوبة في التأقلم مع ثلاث فترات عمل متبادلة. بعد أسبوع من دوام فترة الليل، كان يحتاج إلى أكثر من أسبوعين لتعديل مواعيد نومه وكنتيجة لذلك

أصبح مرهقًا على الدوام. بعد شهرين بدا وجهه أكثر هزالًا إلا أن الناس أخبروه بأنه يبدو أفضل هكذا فالوزن الذي اكتسبه قبل عودته إلى البيت لم يكن صحيًا وبأن ذلك نتج من كثرة أكل الطحين في الشمال بينما يتناول الناس في شانغهاي الأرز.

ما زال يشعر بالسعادة لعودته إلى شانغهاي حتى بعد أن أفسد إحساسه بالفراغ طمأنينته ورضاه. هناك شيء مفقود. شوقه خلال السنوات العشر الماضية الذي آلمه حتى أثر في نومه وشهيته، قد انتهى الآن. لكنه كان قد منحه هدفًا يناضل من أجله طوال تلك المدة. أما الآن فهو يشعر بشيء من الضياع والخواء. ربما يكون قد بالغ في سروره بالعودة. عليه أن يبدأ حياة جديدة، رغم أنه لم يفكر بجدية في ما يجب أن تبدو عليه تلك الحياة. ما زالت الأمور في بدايتها فقط. بنهاية دوامه الباكر ووقوفه لثمان ساعات متواصلة، جرجر ساقيه الخدرتين إلى الحمّام، استحمّ، بدل ملابسه وغادر المصنع. تدفق الركاب من رصيف موقف الحافلات إلى وسط الشارع وتأخرت ثلاث حافلات على أقل تقدير. انتظر لمدة عشر دقائق ولكن لم يكن هناك أي أثر لأي حافلة. تذمر الركاب مفترضين بأن حادثًا لابد وقد وقع. فقد تشين زين صبره فبدأ بالسير وتجاوز مواقف الحافلات القليلة ليتمكن من اللحاق بالحافلة الثانية. سبق وقد أرشده لي وهو عامل يصغره سنًا إلى طريق مختصرة واعتمادًا على ذاكرته سار في طريق يؤدي إلى زقاق صغير

مرصوف بالحصى انتشر الناس على جانبيه يغسلون جرار العسل، يطبخون، يطرّزون، يقرؤون، يؤدون أعمالهم المنزلية، يلعبون الشطرنج أو تنس الطاولة أو حتى ينامون على عتبة أبوابهم حتى غدا الزقاق أكثر ضيقًا مما هو عليه. أما المنازل التي تغصّ به فقد بدت كأقفاص الحمام أو مربعات الهارمونيكا. لم ير من خلال النوافذ الصغيرة الضيقة سوى أسرة، كبيرة وصغيرة وأسرة ذات طبقتين وأسرة تخييم. وهكذا فإن الإبداع والعمل، والأنشطة الأخرى، كلها تنجز خارج الأبواب. ترى كيف يتصرفون عندما يعود الجميع من أعمالهم أو عندما يتساقط المطر أو الثلج؟ لو وجد الابن البالغ زوجة؟ لو. . . خلف نوافذ المحال الزاهية والإعلانات الباهرة والملابس الفاتنة وملصقات أحدث الأفلام، تقبع هناك الشوارع الضيقة والحجرات المكتظة والحياة البائسة. ليست شانغهاي بتلك الروعة التي يتخيلها المرء.

لقد استغرق الأمر نصف ساعة لوصوله إلى موقف الحافلة الثانية. اخترق الجموع بجسده ذي الست أقدام طولًا واستقر في أصغر مساحة ممكنة كما تعلم الآن حتى لا يتهمه أحد بأنه أجنبي. كانت الساعة تشير إلى السادسة عندما وصل إلى البيت جائعًا متعبًا متطلعًا إلى أن تكون بانتظاره وجبة ساخنة يتصاعد منها البخار. إلا أن العشاء لم يكن جاهزًا بعد. لقد ذهبت والدته للتسوق في جادة هواي هاي ولم تعد إلى البيت إلا متأخرة. لقد كان من المستحيل التحرك بسرعة

وسط كل تلك الجموع المتزاحمة في الشوارع والمحال والحافلات. بدأت زوجة أخيه بالطبخ منذ عودتها من العمل وساعدتها والدته على غسل الخضروات وتقطيعها.

«الرقم 3 لا يفعل شيئًا غير النوم والاستماع إلى الراديو». قالت والدته مبدية انزعاجها: «كان بإمكانك تشريح اللحم من أجلي أيها المتخاذل».

ذهب تشين زين مغتاظًا إلى حجرته. كان أزيز المذياع المزعج يتردد بين محطتين فنصف حديث ونصف غناء. وبينما هو يتلمس طريقه إلى سريره قفز مذعورًا وهو يتعثر بساق. نهض أخوه جالسًا وقال: «هل عدت أخي الثاني؟»

أضاء تشين زين مصباح الطاولة، «الرقم 3، إنك كسول جدًا. بما أنه ليس لديك شيء تفعله، لمَ لمْ تساعد أمي؟» قال بغضب.

«لقد قمت بشراء الأرز ومسح الأرض خلال النهار». قال الرقم 3 مدافعًا عن نفسه.

«وماذا يعني ذلك؟ عندما كنت في مثل عمرك كنت أحرث وأحصد في الريف».

التزم الرقم 3 الصمت.

«ستبلغ العشرين من العمر هذا العام. عليك أن تعمل عقلك وتقوم بشيء مفيد. قم. كيف يتسنى لك إهدار كل وقتك دون عمل شيء؟ استجمع قواك وتصرف كرجل».

خرج الرقم 3 من الحجرة وهو صامت. عندئذ كان تشين فانغ قد عاد توًا من عمله فشاركهم. «إنك بالغ يا رقم 3 وعليك أن تتصرف على هذا الأساس. جميعنا بحاجة إلى بعض الراحة عند عودتنا من العمل. كان عليك تقديم المساعدة».

أضاف تشين زين من حجرته، «لو كنت تدرس استعدادًا لاختبار القبول بالجامعة لما وبخناك بل على العكس كنا سنمنحك كل الوقت الذي تحتاج.. .».

بقي الرقم 3 صامتًا. قاطعتهم والدته مهدئة لهم. «إنها غلطتي فأنا لم أخبره بما عليه أن يفعل قبل أن أغادر. سيكون العشاء جاهزًا في الحال. تناولا أولًا بعض البسكويت. الرقم 3 اذهب لتشتري لي بعضًا من الخل». عندما غادر الرقم 3، أخبرت ولديها، «إنني أفضل أن يبقى في البيت على أن يتسكع في الخارج ويوقع نفسه في المشاكل. من كل هؤلاء الشبان العاطلين، هو ألطفهم».

وأخيرًا أصبح العشاء جاهزًا في السابعة والنصف. تناولوا طعامهم في غرفة أمه الصغيرة. لم يرغب أي منهم في الحديث بعد الفصل الذي حدث مع الرقم 3. لم ينطق أحد بكلمة أو يستمتع بوجبته. في محاولة منها لإضفاء بعض الحياة على المكان، كسرت زوجة الأخ الصمت بقولها: «لقد أنشأت مؤسستي ناديًا لمساعدة العزاب الشباب الراغبين في الزواج. تشين زين هل أحصل لك على نموذج لتعبئته؟»

أجبر تشين زين نفسه على الابتسام. «بالطبع لا. أنا لا أرغب في الزواج».

«هراء»، قالت أمه، «الجميع يتزوجون. بمظهرك هذا أنا واثقة أنك ستجد زوجة».

«للرجال طِوال القامة هذه الأيام شعبية كبيرة لدى الفتيات الشابات». قال الرقم 3 وهو يبتسم ناسيًا كل ما تعرض له من توبيخ. إنه ما زال صغيرًا.

«الزواج ليس مزحة»، أضافت زوجة أخيه، «أنت بحاجة إلى ألف ين على الأقل».

«سنساعدك حتى لو أفلسنا. أليس كذلك تشين فانغ؟» سألته أمه.

«همم»، دمدم أخوه الأكبر ببلاهة.

«ولكن إن لم تكن لديك غرفة فلا أمل هناك حتى لو كان لديك المال». أكملت زوجة أخيه.

«إذا رغب في الزواج ولم يتمكن من إيجاد غرفة، سأنتقل للنوم على الطريق. أليس كذلك تشين فانغ؟» سألته أمه مجددًا.

«بالطبع». قال أخوه الأكبر موافقًا.

«هل تعنين ما تقولين يا أمي؟» سألته زوجة أخيه بابتسامة.

ضحكت أمه: «ألم أعن ما أقول دائمًا؟»

«أي مزحة هذه؟» ووضع تشين زين وعاءه على الطاولة. بالرغم من أن ثلاثتهم كانوا مبتسمين إلا أنه شعر بأنهم كانوا جادين ويضمّنون أحاديثهم الكثير من التلميحات. لقد كان الوضع منفرًا جدًا.

شاهد تشين زين التلفاز في غرفة أخيه. قبلها بمدة شعر بنعاس ووجد صعوبة في إبقاء عينيه مفتوحتين. عليه أن يستيقظ باكرًا للذهاب إلى العمل لذا فقد قام وانسحب إلى حجرته حيث كان الرقم 3 على سريره يضحك وهو يستمع إلى برنامج كوميدي من خلال المذياع. يبدو سعيدًا ومرتاحًا.

«أويت إلى السرير مبكرًا هكذا؟»

«برنامج التلفاز مريع»، أجابه الرقم 3 ولكن فقط عندما انتهى البرنامج بالتصفيق. ثم أقفل المذياع على مضض.

كالعادة قرأ تشين زين لبضع دقائق ثم أطفأ الضوء. في الظلام سمع أخاه يقول: «كنت أتمنى لو أن والدي ما زال حيًا. عندئذ سيكون بإمكانك أن تحل مكانه في العمل بينما أحل أنا مكان أمي. عمل والدي في مكتب. لقد كانت وظيفته أفضل».

استشعر تشين زين وخزًا بأنفه. لقد رغب في أن يحتضن أخاه بين ذراعيه ولكنه استدار إليه فقط وقال بصوت أجش: «كان عليك أن تحاول الالتحاق بالجامعة».

بعد برهة بدأ الرقم 3 بالشخير أما تشين زين فقد تلاشت رغبته في النوم.

كان بإمكان الرقم 3 الحصول على عمل والدته أما هو....

تحدث من بعيد قائلًا: «يعيش الرقم 3 في شانغهاي وسيتدبر أمره بطريقة ما. أما أنا فهذه هي فرصتي الوحيدة...» بقيت أمه في الجانب الآخر صامتة فاسترسل، «لقد غادرت المنزل في الثامنة عشرة يا أمي وعشت وحيدًا لعشر سنين، في الثامنة عشرة، وحيدًا لعشر سنين. عشر سنين كاملة يا أمي». ما زالت صامتة. أدرك تشين زين بأن أمه الآن تبكي وتردد لنفسها، «راحة كفي وظهرها... أوه، راحة كفي وظهرها...» في النهاية فإن الرقم 3 منحه الفرصة وهذا شيء طبيعي جدًا فمنذ عشر سنين مضت فعل هو الشيء نفسه مع أخيه الأكبر ومثله هو، لم يشتك أخوه الأصغر أو يتذمر بل كان لطيفًا معه. مد الرقم 3 وهو نائم ساقه تجاهه مرة أخرى. لم يزحها بعيدًا هذه المرة.

إن أخاه كسول جدًا. لو التحق بالجامعة لكان كل شيء بخير ولكان الجميع سعداء. ولكن ليس بإمكان الجميع فعل ذلك أو الدراسة بكلية تقنية وبسبب خجله من عدم تمكنه من اجتياز الاختبار، كان الرقم 3 ودودًا مع الجميع ولم يدافع قط عن نفسه عند تعرضه للنقد.

تنهد تشين زين. الحياة في شانغهاي ليست سهلة.

في أحد المساءات كانت الخالة شين، وهي زميلة والدته في المصنع ستحضر معها فتاة لتتعرف إلى تشين زين، وبما أن والدته هي من رتب لهذا فلم تكن لديه القدرة على الاعتراض مباشرة رغم أنه وجد الموقف محرجًا وسخيفًا. «عليك البدء ببناء حياة جديدة». قال له أخوه. لقد صعقته تلك العبارة. عندما أصبحت حياته الجديدة واضحة أمامه شعر بأنه غير مستعد لها ووجد صعوبة في قبولها. لكن وبعد إعادة التفكير، لم يكن باستطاعته تخيل حياة جديدة أكثر أهمية وشأنًا من تلك.

ربما تكون الغاية هي الزواج وإنجاب الأولاد فقط؟ هزّ رأسه منكرًا وابتسم بسخرية بينما أصبحت روحه مغمورة بإحساس بالخواء. عشر سنوات من التوق إلى شانغهاي رغم صعوبتها إلا أنها كانت ممزوجة بالعذوبة. كان الأمر كالحلم. توق شديد يغمره الخيال، ربما يكون الأمل والتطلع هو أفضل شيء. تذكر أنه عندما كان طفلًا كان السبت بالنسبة إليه أفضل دائمًا من الأحد.

ولكن جميع أفراد الأسرة يشتعلون حماسة. بدأت الاستعدادات بعد العشاء. كنست زوجة أخيه ونفضت غرفتها من الغبار بينما اشترى أخوه الأكبر الكعك والفواكه. استعدوا لوضع نانان في سريره باكرًا حتى لا يتسبب بأي إزعاج. حدث هذا الأمر مرة واحدة من قبل عندما عملت جدته على التوفيق بين اثنين تقابلا في ذلك المكان. ولأنه كان دائمًا حاضرًا أثناء حديث الكبار دون أن يفهم المغزى

منه فقد أشار فجأة إلى الشاب والفتاة وسأل أمه: «هل سيتزوجان يا أمي» لقد كان ذلك محرجًا جدًا.

كان الرقم 3 أكثرهم انشغالًا. لقد اقترح على والدته طهو حساء العدس وعرض على تشين زين أفضل ملابسه لارتدائها. انزعج تشين زين من تلك الحماسة التي لم تكن كذلك لو أن لديه شيئًا أفضل ليفعله.

رغم أن حماسته قد أحبطت، إلا أن الرقم 3 استمر في تقديم المساعدة لإعداد قدر كبير من حساء العدس وإلباس تشين زين بنطلونه ذا الأطراف السفلية الواسعة.

وصلت الفتاة في السابعة والنصف مختبئة بخجل خلف الخالة شين. اتجهت بسرعة إلى المقعد ذي الأذرع القابع في زاوية الغرفة والتقطت كتابًا لتقرأه. لم يتمكن أحد من رؤية وجهها بوضوح وهي مطأطئة رأسها في الظلام.

«تشين زين شاب واعد وجميع العمال في المصنع يحبونه. إن السنوات العشر التي قضاها ببلدة صغيرة أكسبته الكثير من الخبرة. وهو ليس بمستهتر كتاركي الدراسة». بادرت الخالة شين في الحديث.

«نعم، لقد كان من الصعب عليه البقاء بعيدًا لفترة طويلة». قالت أمه وعيناها تختلسان النظر إلى الفتاة في الزاوية.

«تشين زين، كيف وجدت العمل في المخرطة؟»

التفتت الخالة شين إليه. «الوقوف على قدميك لثمان ساعات مرهق جدًا».

«لا بأس. لا أمانع أبدًا. لقد أديت أعمالًا من كل الأصناف في الريف»، أجاب تشين زين بينما إنتباهه منصرف إلى الزاوية. لم يتمكن من رؤية شيء باستثناء لمحة جانبية منها، شعر قصير وكتفان عريضتان.

«تشين فانغ، أين ابنك؟ لا بد أنه ولد نشيط».

«نائم. إنه ولد لطيف». أجاب تشين فانغ بشرود.

«إنه ليس لطيفًا أبدًا»، اعترضت زوجته. «بل شقي صغير. أنا لا أريده».

«لا تتحدثي بهذه الطريقة. لا يمكن لأحد أن يأخذه منك. الأولاد المزعجون هم أولاد أذكياء».

«هذا صحيح. . .» واتجهت زوجة أخيه إلى الزاوية. «تعالي لتتناولي بعضًا من حساء العدس».

أحدهم كان أسرع منها واتجه إلى الزاوية لإشعال الضوء قائلًا: «أنت بحاجة إلى الضوء للقراءة». كان ذلك الرقم 3 الذي دخل دون أن يلاحظه أحد.

كان تشين زين مستعدًا لقذفه خارجًا إلا أنه شعر بامتنان لتدخله الذكي.

غمر الضوء الفتاة فتوقف الجميع عن الحديث والتفتوا إليها ثم عادوا إلى النظر بعضهم إلى بعض بخيبة أمل.

بعد برهة استجمعت زوجة أخيه نفسها وقالت: «لا تقرئي الآن. تعالي لتتناولي بعضًا من حساء العدس».

أنهت الفتاة حساءها بحرج شديد، مسحت فمها بمنديل ثم أعلنت رغبتها في المغادرة.

لم يحاول أحد إيقافها قط. بعد تقديم بعض عبارات المجاملة - «زورينا مرة أخرى، رجاء»، «اهتمي بنفسك» - نهضوا جميعًا لإرشادها إلى الباب بينما وحدها الخالة شين رافقتها إلى الشارع. تلك هي التقاليد وقد اتبعوها بدقة. أما وقد عاد تشين زين أخيرًا، فلم يكن ملمًا بتلك القواعد لذا وقف الرقم 3 إلى جانبه ليريه ماذا يفعل.

سألته أمه: «تشين زين، كيف وجدت الفتاة؟»

أجابها بضحكة.

«ليست مناسبة. عظمتا فكيها مرتفعتان جدًا وهذا يشير إلى أن زوجها سيموت باكرًا». قال الرقم 3.

«لا تكن سخيفًا. لم يسألك أحد عن رأيك».

«إنها قصيرة نوعًا ما». علق أخوه الأكبر.

«إنها ليست جميلة وأتعجب أي نوع من الناس هي». قالت والدته.

توقفت التعليقات عند عودة الخالة شين التي بادرت تشين زين مبتسمة، «يبدو أن الفتاة قد أعجبت بك. كل الأمور الآن تتوقف على رأيك».

استمر تشين زين مبتسمًا بصمت.

أدركت أن هناك خطبًا ما فأضافت، «إنها فتاة لطيفة، صادقة وبسيطة. هي في الثامنة والعشرين من العمر. والداها جيدان ولا يهتمان إن كان الشاب ثريًا أم لا طالما هو إنسان لطيف. إذا لم يكن يملك غرفة بإمكانه العيش معهما فلديهما غرفة إضافية... يستحسن أن تناقش الأمر وتعطيني ردك في أقرب فرصة ممكنة... تشين زين ثق بي. أنا لن أخذلك. لقد عرفتك مذ كنت طفلًا صغيرًا».

رافقتها كل العائلة إلى الزقاق.

عند عودتهم سأله أخوه الأكبر، «ما هو انطباعك عنها؟»

رد تشين زين بصدق: «غير مناسبة».

«المظاهر غير مهمة. يمكنك مواعدتها لفترة». اقترحت زوجة أخيه.

«بل المظاهر مهمة وإلا لما كان أخي الأكبر تزوجك أنت». مازحها تشين زين وجعلهم جميعًا يضحكون.

لكزته زوجة أخيه في كتفه نصف ضاحكة ونصف غاضبة.

«أنا أيضًا أعتقد أنه بإمكانك مواعدتها يا تشين زين. يجب ألا تهتم بمظهرها فقط». قال أخوه الأكبر.

«عندما يتقابل اثنان للمرة الأولى يكون المظهر مهمًا

جدًا وإلا على أي أساس سأقع في حبها إذا لم يكن بسبب ما تبدو عليه». كانت لتشين زين أسبابه المقنعة.

«ليس شرطًا أن تكون فائقة الجمال ولكن على الأقل مقبولة». صرح الرقم 3 برأيه.

«أعتقد أنها جيدة يا أمي»، قالت زوجة أخيه وهي تلتفت إلى والدته، «بالإضافة إلى أن لديها غرفة وهذا شيء هام في شانغهاي».

حسم تشين زين الموضوع، «أنا سأتزوج الفتاة وليس الغرفة».

«ولكنه عنصر مهم جدًا. إنها ليست قبيحة، سوى أن وجهها عريض بعض الشيء. أما عيناها وحاجباها فجميلان».

«انسي أمر العينين والحاجبين. شيء واحد مهم هو أنها لم تجذبني».

ضحك الرقم 3 فقد كان الأمر جديدًا عليه.

«كل هذا من أجل مصلحتك. الانجذاب وحده لن يمكنك من العيش». قالت زوجة أخيه.

«أنا أوافقك في الرأي». أضاف أخوه الأكبر.

قاطعتهم والدته: «دعوه يقرر بنفسه».

«نعم، نعم»، قال أخوه الأكبر مؤيدًا.

«حسنًا. لندع الموضوع عند هذا الحد». صاح تشين زين وقد بدا له الأمر برمّته عديم الجدوى.

«أمي لا تهتمّي بهذا الأمر مرة ثانية. سأجد زوجتي بنفسي. وإذا لم أتمكن من إيجاد الزوجة المناسبة فسأبقى عازبًا طوال حياتي». وانسحب إلى حجرته.

في حلمه، تراءت له عينان تبتسمان. عينا فرس سوداوان، تبدوان كالقمر الوليد، عينان تبتسمان بعذوبة ورقة. استيقظ. نظر من نافذته ذات القدم المربعة الواحدة ورأى القمر الوليد.

آه، عينان كالقمر الوليد. ترى أين هي؟ ومن هي؟ في المدرسة التي تعلم بها، كان في كل صباح وهو في طريقه إلى المقصف، يرى فتاة على دراجتها قديمة الطراز، سالكة طريقًا مختصرة من البوابة الخلفية إلى الجهة الأمامية. أنيقة ورشيقة. كانت دائمًا تلتفت إليه بتلكما العينين وكان واثقًا لو أنه سألها إلى أين هي ذاهبة لأجابته. لم يسألها قط ولن يعرف أبدًا من أين كانت قادمة وإلى أين كانت متجهة. كثير من الناس كانوا يعبرون مدرسته كطريق مختصرة فالبوابة الأمامية تفضي إلى مستشفى ومركز ثقافي وجمعية ثقافية ومصنع للمعدات الثقيلة. عند البوابة الأمامية هناك مخزن وساحة لعب ومعمل قطن. لقد مرت به مئات بل آلاف المرات لكنه تركها ترحل رغم أنه كان معجبًا بها وكانت رؤيتها تدخل السرور إلى قلبه إلا أن عقله كان مستقرًا في شانغهاي،

غايته الوحيدة. لقد عاد أخيرًا إلى شانغهاي وأصبحت هي شيئًا من الماضي، شيئًا لا يمكن له أن يعود أبدًا، تاركة الذكرى الجميلة فقط. ندم قليلًا لأن شانغهاي كانت أهمّ بالنسبة إليه من الفتاة. ما زال يشعر ببعض الأسى.

تذكر مدرسته بحديقتها الكبيرة، لقد كانت أكبر من أي مدرسة في شانغهاي. وكان لحرم المدرسة ساحة واسعة وبستان. اعتاد في الصيف أن يجمد البطيخ في البئر أمام غرفته كما اعتاد بعض التلاميذ جلب الطعام له. لكنه غادر أولئك الأصدقاء المخلصين دون أن يودعهم خوفًا من تعقيد الأمور. كم يفتقد تلك المدرسة. ذلك الجزء من حياته مس شغاف قلبه.

في أحد الصباحات، فاجأهم أخوه الأكبر برغبته في الحصول على بطاقة سكن مستقلة. أخذ يدمدم، «وهكذا يمكننا الحصول على حصتين من البيض. . . حصتين من كل شيء».

رفع رأسه بهدوء متجنبًا عيني والدته. تعجب تشين زين من تلعثم أخيه وكأن في الأمر شيئًا محرجًا؟ إن الحصول على حصتين من كل شيء يبدو فكرة ذكية. ضحك، «يا للذكاء العاصف. كيف واتتك فكرة كهذه؟»

إلا أن مزحته قد جعلت أخاه يتوارى خجلًا. ثبتت أمه ناظريها عليه دون أن تقول شيئًا.

غادر تشين زين إلى العمل وتبعه الرقم 3. همس كأنه

يفشي سرًا: «هل تعلم لم يرغب الأخ الأكبر في الحصول على بطاقة سكن؟»

«إنه يرغب في الحصول على المزيد من البيض...».

«بالطبع لا»، قال الرقم 3. «إنه يرغب في الحصول على الغرفة».

«الغرفة؟» وقف تشين زين حائرًا.

«نعم»، قال الرقم 3 بتأكيد. «بمجرد أن يحصل على البطاقة ستصبح الغرفة ذات الاثنين وعشرين مترًا ملكًا له. لابد أنها فكرة زوجته».

«فليحصل عليها إذن»، قال تشين زين وهو ماض في طريقه. «مع أنك لا تستطيع إعمال عقلك في شيء مفيد إلا أنك سريع في أمور كهذه».

أمضى تشين زين ذلك اليوم وباله مشغول باقتراح أخيه. مازالت الفكرة تتردد في خاطره وكلمات أخيه الأصغر ترن في أذنيه: «إنه يرغب في الحصول على الغرفة. كما أنه استرجع إصرار زوجة أخيه على زواجه من فتاة تملك غرفة. هل كان هذا هو المقصود؟ إلا أنه لوح بيده عفويًا منكرًا ذلك». لا يمكن أن يكون الأمر هكذا، قالها بصوت مرتفع مثيرًا الخوف في نفسه. عندئذ أخذ يضحك.

عند عودته إلى البيت من العمل، سمع أمه تقول لأخيه الأكبر: «لا يمكنك الانفصال عنا فلتشين زين أيضًا

الحق بهذه الغرفة. لقد عمل بعيدًا في الريف لعشر سنين. إذا تزوج تشين زين عليك أن تقسمها. أليس كذلك؟» وعندما لم يجب، أعادت أمه السؤال مرة ثانية: «أليس كذلك؟» عندئذ ردد قولها: «بلى كذلك». ألقت زوجته الطبق الذي كانت تحمله بيدها بقوة على الطاولة. هل كانت مصادفة؟

خيم الوجوم على طاولة الطعام. بقي أخوه وزوجته مقطبين بينما أخذت أمه تسكب لهما الطعام في أوعيتهما باعتذار. أما الرقم 3 فقد أخذ في إرسال الإشارات بعينيه إليه وكأنه يقول: «أرأيت؟» أشاح تشين زين ناظريه عنهم وهو يشعر بالاشمئزاز. لحسن الحظ أضفى نانان بعضًا من البهجة على المكان بوقوفه وجلوسه على كرسيه وطلبه لهذا وذاك ثم قذف بملعقته بعيدًا وأخذ يأكل بأصابعه. قبضت جدته على يده وضربت كفه بلطف. أغاظه الرقم 3 بوجهه وصاح، «أحسن!» بينما أعلن نانان بكبرياء، «لم يكن ذلك مؤلمًا قط».

ضحك الجميع باستثناء والدة نانان التي جذبته أسفل الكرسي وأخذت توبخه «يالك من صبي وقح. إنك ناكر للجميل. عليك أن تكون ممتنًا إنك لم تطرد خارجًا». تجمدت ضحكاتهم واحتاروا هل يكملون الضحك أم يصمتون بوقار. «يالك من صبي!». قال الرقم 3 بهدوء ليزيل بعضًا من الحرج.

تهاوت والدة تشين زين. «ماذا تقصدين؟»

«لا شيء»، أجابت زوجة أخيه.

«أعرف ما ترمين إليه»، أعلنتها أمه بصراحة. «إنها الغرفة».

«لا. أنا لا أحفل بالغرفة ولكن عندما يكبر ابني لن أدعه يتزوج ما لم تكن لديه غرفة».

«لا تتهكمي هكذا. قد أكون فقيرة ولكني أحب جميع أبنائي وهم عندي سواسية. راحة يدي وظهرها. جميعهم من لحمي. لقد اضطر تشين زين أن يغادر المنزل من أجل تشين فانغ. عليك ألا تكوني ناكرة للجميل إلى هذا الحد».

«ناكرة للجميل؟ عندما تتزوج الفتيات يحصلن على أثاث يتضمن الكراسي والإضاءات. أما أنا فعلام حصلت؟ هل سبق وأن اشتكيت؟ كنا في الاحتفالات نحرص بشدة على إرسال الطرود والأموال إليه. كيف يمكنك التذمر من كنة مثلي؟» وبكت هي أيضًا.

وقع تشين فانغ في حيرة أيًا منهما يواسي.

تلاشى الرقم 3. إنه عديم الفائدة ويختفي في الأزمات الحقيقية.

«لا تبك». نهض تشين زين وهو منزعج ومنفعل. «أمي أنا لا أرغب في الغرفة. ولن أتزوج. إنني سعيد بعودتي إلى شانغهاي».

شعرت الأم بحزن أعمق وبكت زوجة أخيه بهدوء أكثر وهي تختلس النظر إليه.

عندما أوى الجميع إلى أسرتهم، دخل أخوه حجرته وهو يدخن سيجارة.

«لا تهتم بزوجتي، «قال له». بالرغم من تذمرها هي ليست سيئة. عندما تزوجنا لم تكن لدي أي مدخرات. لم نملك أي شيء سوى سرير ولم تتذمر. في السنوات الأخيرة وبعد الاقتصاد والتقتير تمكنا من شراء بعض الأثاث وزينا الغرفة. لقد كانت سعيدة بهذه التحسينات وأرادت الاحتفاظ بها. إنها ليست سيئة وتعلم أننا يجب أن نقسم الغرفة إلى قسمين من أجلك. هي تجد صعوبة في تقبل الأمر فقط. سأقنعها بالتدريج».

«انس الأمر يا أخي، «أوقفه تشين زين». لقد عنيت ما قلت. أقسم إني لا أريد الغرفة. أرجو أن تطمئنها. لا تنفصل عنا فقط فالسيدة العجوز ترغب في أن تبقى عائلتها مجتمعة».

انهار أخوه وهو يحيط كتفي تشين زين بذراعيه. بالرغم من أنه رغب في احتضانه إلا أنه دفعه بعيدًا وسحب اللحاف على رأسه. لقد أكسبته تلك السنوات العشر القسوة... لم يكن من السهل العيش في شانغهاي.

أزعجت تلك المسألة تشين زين كثيرًا فقد اعتاد الحياة الخالية من الهموم. الصباح التالي كانت إجازته فاستيقظ في الضحى وخرج دون أن يخبر أحدًا. أراد أن

يتمشى. لتعوده المساحات الفسيحة في الشمال فقد اعتبر شانغهاي جائرة. حجبت المباني الشاهقة النسيم وأفسدت الجموع المتزاحمة الهواء. أين يمكنه الذهاب؟ بإمكانه الذهاب إلى رصيف الميناء.

نزل من الحافلة وسار قدمًا. بإمكانه رؤية السفن وهي ترسو في الجانب الآخر من نهر هوانغ بو. على الضفة الأخرى كانت هناك أشجار خضراء وزهور حمراء، كبار في السن يمارسون رياضة تايجي كوان، أطفال يلعبون وشباب يجولون ويلتقطون الصور. شعر بأن ضيقه قد خف. عبر إلى النهر، رمز شانغهاي. لم يكن أزرق كما يتذكر بل موحلًا ومنتنًا. ربما يكون من الأفضل مشاهدة الأشياء عن بعد. تدقيق النظر لا يحمل سوى خيبة الأمل.

جاء إلى حديقة الميناء، اشترى تذكرة ودخل. كانت هناك نافورة ماء تتدفق على صخرة في بركة رقراقة. تذكر أنه منذ زمن طويل، طويل جدًا لم تكن مياه النافورة تتدفق مباشرة إلى البركة بل كانت تتساقط على مظلة تأوي تحتها أم باسمة وطفلاها. كم أحب ذلك النصب وهو طفل عندما رآه للمرة الأولى وأخذ يحدق فيه رافضًا الابتعاد عنه. لقد مثل رمزًا لحياته. مات والده باكرًا فقامت والدته على تربية أبنائها الثلاثة متجاوزة كل الصعوبات التي واجهتها. تمكنوا من توفير الدفء والأمان لأنفسهم في الأوقات الصعبة بالالتصاق بعضهم ببعض. عندما ضرب إعصار تايفون شانغهاي، كان أربعتهم مجتمعين على سرير

واحد. البرق والرعد والرياح العاصفة أخافتهم وأشعرتهم بالإثارة أيضًا. أخذ أخوه الأصغر بالمبالغة في الصراخ وجعلت أمه تلوم السماء بدعابة. أما تشين زين الذي كان يؤدي دور الحامي والمنقذ فقد جلس إلى جانب مفتاح الضوء الذي لُقن توًا بعض المعلومات عنه لأن أخاه الأكبر كان يخاف الكهرباء. كانت العاصفة مخيفة ومثيرة ولكن كان هناك إحساس بالدفء أيضًا. هذا هو الشعور الذي جذبه وأعاده إلى البيت.

تساقطت المياه في البركة بإيقاع رتيب وتموجات خاوية. سقطت قطرة في يده. أدرك فجأة أنها من عينه. ما الأمر؟ عندما غادر البيت وأخذت أمه في البكاء بحرقة، لم يذرف دمعة واحدة. اليوم... يشعر بخيبة أمل فظيعة كما لو أن شيئًا عزيزًا قد تحطم أمامه فجأة. استدار وغادر الحديقة.

أخذت المحال تفتح أبوابها. منظر المشاة في الشارع وهم يبدون كعارضي الأزياء جعله يشعر بالدوار. توقف لا شعوريًا خارج واجهة أحد المحال: دمى ذات قوام ممتلئ ورؤوس ضخمة منزلقة واثنتان أخريان تتأرجحان وهما متعلقتان إحداهما بذراع الأخرى وفي الخلف هناك عدد من الفتيان اليافعين يقومون بإطلاق نماذج من طائرات مصغرة أخذت تدور في سماء زرقاء. لم يتمكن من الحراك. كل ذلك أعاده إلى طفولته، صباه، والذكرى الذهبية التي احتفظ بها عندما غادر شانغهاي. لقد خلط بين هذه الذكرى

لشانغهاي وبين ما ناضل للرجوع من أجله. بعودته إلى البيت اكتشف أنه لن يتمكن أبدًا من استعادة الماضي.

ازدادت أعداد المشاة وانتشروا من الرصيف إلى الشارع. بدوا وكأنهم يسيرون في جماعات لذا صعب التحرك بينهم بسرعة. كم هي صعبة الحياة في عالم مضغوط بهذا الشكل. تذكر مشقة الحافلات، وفي المطاعم كان عليه الوقوف إلى جانب الطاولات حتى يجد مقعدًا، وبينما هو يأكل يكون هناك آخرون ينتظرونه ليغادر. في الحدائق يجلس ثلاثة أزواج من الناس على مقعد واحد بينما يتوجب عليهم في حديقة يو يوان الاصطفاف في طابور ليتمكنوا من التقاط صورة في الجبل الصخري. لم يصنع البشر المعجزات فقط بل المعضلات أيضًا. لم عليه أن يعتصر في هذه الحشود؟ لماذا؟

تحتك أكتاف الناس وتتلامس كعوبهم وأطراف أصابعهم. بالرغم من أنهم يعيشون متقاربين في المكان إلا أنهم غرباء تمامًا لا يعرفون ولا يتفهمون بعضهم بعضًا ويتعاملون بكبرياء وغرور. تذكر أغنية سجلها أخوه منذ أيام قليلة: «الناس على الأرض متراصون كالنجوم في السماء، والنجوم في السماء بعيدة كتباعد الناس على الأرض».

البلدة شيء مختلف. إنها هادئة وربما منعزلة بعض الشيء. يمكن للمرء التجوال في شوارعها بسهولة والتنفس بحرية. وفي البلدة الصغيرة يتقابل الناس أنفسهم على الدوام، يعرفون بعضهم بعضًا بالنظر. يومئون ويحيون

معارفهم باعثين شعورًا بالدفء والمودة بينهم. للمدينة الكبيرة بهذا الحجم مساوئها كما للبلدة الصغيرة محاسنها.

تحرك مع الجموع المتدفقة دون أن يبالي بأي اتجاه يسير. شعر بدوار. شوقه بطعمه الحلو اللاذع في العقد الماضي اختفى الآن واختفى معه إحساسه بالامتلاء طوال عشر سنين. لقد وصل إلى غايته. ما هي خطوته التالية؟ لابد أن تكون للمرء غاية. هل يتبع السائد ويرتدي الملابس الغربية والبنطلون ذا الأطراف السفلية الواسعة وينتعل الأحذية الجلدية ويحصل على مسجل كاسيت. . . ومن ثم يجد حبيبة ويتزوجها؟ . . . نعم يمكنه البدء بذلك بالرغم من أنه يتطلب منه مجهودًا وعملًا شاقًا، ولكن هل سيجد السعادة في تلك الملابس العصرية حتى لو أخفت تحتها قلبًا مثقلًا بائسًا؟ لو تزوج من أجل الزواج فقط واختار زوجة غير متفهمة. ألا يكون بذلك قد أضاف عبئًا جديدًا إلى حياته؟ مرة أخرى شعر بحنين إلى عيني القمر الوليد وتحسر على الفرص التي أضاعها. يجب أن تكون غاية الرجل السعادة وليست التعاسة. شعر فجأة بأن الغاية التي ينشدها يجب أن تكون أكبر. نعم، أكبر.

ارتفعت معنوياته وانقشعت عنه الغمائم السوداء وتسلل إليه ضوء خافت، إنه خافت وشاحب ولكنه ضوء على أية حال.

«تشين زين»، توقف لبرهة، هناك من يناديه.

«تشين زين»، التفت فرأى حافلة تشق طريقها وسط

زحام الشارع ببطء. كان أخوه الأكبر نصف متدل خارج النافذة محاولًا الوصول إليه وخلفه وقفت زوجته. بديا منفعلين.

شعر بصدمة لرؤيتهم فلاحق الحافلة. جذبه أخوه الأكبر إلى الداخل ونظر إليه بصمت وذهول وكأنه قطعة خشب صماء، تمامًا كما فعل وهو يجري إلى جانب القطار منذ عشر سنين خلت. تأثر تشين زين. جذبته أيضًا زوجة أخيه، «عليك ألا ترتكب أي شي أحمق، تشين زين». وانهارت.

«يا للهراء!» ضحك تشين زين ودموعه تنهمر على وجهه.

«عد إلى البيت»، قال أخوه.

«بالطبع سآتي إلى البيت». بالرغم من كل شيء يبقى البيت هو البيت. كل المشاحنات سببها الفقر. لقد جعلت من أحبهم يعانون. راوده فجأة شعور بالخجل فقد استخدم تلك السنوات العشر كورقة رابحة. لقد عانوا هم أيضًا خلال تلك السنوات الصعبة: أمه، أخواه، وزوجة أخيه. ومن جهة أخرى تعني الحياة البهجة والمرح والاستمتاع. لقد كانت هناك مثلا الجادة الفسيحة وبساتين الأشجار، التلاميذ الطيبون الأبرياء وعينان كالقمر الوليد. . . لقد تجاهلها كلها. لكن أمامه الآن عشر أخرى، عشرون وثلاثون سنة، مدة طويلة، طويلة جدًا. عليه أن يمنح مستقبله بعضًا من التفكير الجاد.

هناك قطار آخر على وشك مغادرة المحطة. ترى إلى أين هو متجه؟ لقد عرف أن غايته ستكون أبعد وأعظم وعليه أن يجول لأكثر من عقد واحد، ربما لعقدين أو ثلاثة، عمر كامل. قد لا يستقر أبدًا لكنه اعتقد جازمًا أنه حالما يبلغ غايته الحقيقية، لن تساوره الشكوك ولا المشاكل ولن يراوده إحساس بأنه بلا جذور.

المؤلفة

Wang Anyi

وانغ آنيي
الصين

ولدت عام 1954 وأمها هي الكاتبة الصينية المعروفة رو زيجوان. تتصف كتاباتها بالواقعية والاهتمام بتفاصيل الحياة اليومية. حازت أعمالها العديد من الجوائز الصينية في الأدب وترجم بعض منها من اللغة الصينية إلى اللغة الانجليزية. رشحت أخيرًا لجائزة البوكر الدولية لعام 2011. تحتل حاليًا منصب رئيسة رابطة كتاب شانغهاي. من أعمالها: الحياة في فناء صغير، أغنية الندم الأبدي وارتداد الزمن.

حلاوة قطن

Cotton Candy

الكاتبة/دورا الونسو Dora Alonso

تراقصت الفراشات على الأشجار وحلقت في الفضاء لتزيد ألق الصباح بهاء على بهاء. استجمعت أجنحتها ورفرفت بها بارتعاشة لذيذة، وفي الوقت نفسه تهادت بسيقانها الرقيقة على بتلات الزهور الخمرية ثم حلقت لتهبط مرة أخرى على أطراف آلة حلوى غزل البنات.

أخذت لولا المفتونة بذلك المنظر بمراقبة فراشة صفراء ثم جعلت تستنشق لوهلة الرائحة النفاذة لعصير غصن الكيوباليبر الذي انتزعته بيديها الطفوليتين. أخذت الفراشات تتساقط وتموت تحت لسعات السوط الأخضر بينما شرعت الصغيرة لولا في جمع حصادها الهش بذهول لتهديه إلى أول حب في حياتها. أهدت لولا فراشاتها الميتة إلى دوناتو بسرية وغموض جعلاه عاجزًا عن الفهم.

من فراشة إلى فراشة. دوناتو، دومينغو، دونيسيو، دانييل، دانيلو، دافيد وغيرهم الكثير. احتفلت لولا بعيد

ميلادها الخامس عشر وهي تئن تحت وابل من الجثث المجنحة على شعرها ويديها وصدرها المتبرعم وتدثرت في الليل بدثار من أجنحة ومسحوق متلألئ متوعّدًا إياها بالتحليق بها ورفعها إلى السماء حيث تموء القطط جنبًا إلى جنب مع البوم والملائكة.

ترعرعت لولا بشذوذها ذلك في مستوطنة ميناس الوادعة تحت نير أم متسلطة. جعلت لولا تستعيد أحلامها مع دوناتو وهي في السابعة. أما في العشرين فقد تنازعتها تلك الأسماء المتراكمة بين أكوام الفراشات وقادتها إلى الجنون.

كم رغبت تحت وطأة شعورها المتواصل واللامحدود بالذنب في اللحاق بالقطط والملائكة في السماء لكن جسدها المحموم قد أنهكه التجديف على آلة الحياكة وأرغمتها الحاجة على ترقيع تلك الأسمال البالية. قد تخرج في منتصف الليل وتسير نائمة إلى الفناء لتسمع أزيز النحلات المتهيجة ولتحترق ما بين العسل والدوران وهي تتوق إلى غمر أسنانها في الشهد المثخن باللسعات ثم لتبدأ وعلى غير هدى باسترجاع أسماء عمال الهاتف وسائقي القطار والحراس الريفيين ورجال السيرك والباعة الجائلين وأبناء العم والأصدقاء وكل من أحبتهم بسرية قصوى وبلا كلال.

كل أسبوع كانت المومس الوحيدة في البلدة تأتي في الخفاء لتقابل الخياطة البائسة. لقد اعتادت أن تأتي باكرًا

جدًا وهي تنضح برائحة السرير والتبغ لتختار التصاميم الجذابة من مجلات الأزياء. بنيت علاقتهما على احترام المرأة المتحررة التي تتأنق في حديثها وسلوكها حتى المبالغة وكذلك على جهل لولا الزائف. عند انتهائهما من اختيار تصميم الثوب تبدآن بتبادل وصفات الطهو أو التحدث عن الأرواح وظهورها الغامض أو الثرثرة بشأن حفلات الزفاف ومراسم التعميد. عادة ما تكون والدتها حاضرة خلال هذه الزيارات فتشاركهما في تلك الثرثرات البريئة المفعمة برائحة الكمون والضوء الوهاج. عندما يحين موعد تجربة الرداء، تبدأ عينا العذراء وأنفها بتحسس آثار الإثم في ذلك الجسد العاري لعميلتها المفضّلة.

بدأت الحقائق والأحلام المتغيرة لتلك المرأة الشابة بمسخها وتشويهها بالتدريج فهي تتسع أحيانًا لتضيق في أحيان أخرى. قد تذهب من وقت إلى آخر للرقص وهي مثقلة بطبقات الزينة من قلائد القلق والشرائط القديمة وأحمر الشفاه والأقراط الطويلة المطعمة بالأحجار المزيفة متباهية بقدميها الصغيرتين. رغم ذلك قلة من الرجال فقط كانت تطلب منها الرقص مبتعدة بخوف غريزي عن تلك العذراء المتقدة كما يبتعد الإنسان عن ركام الموتى المشتعل.

مرت عليها تلك السنون الرتيبة من الإحباط المتكرر والرغبات المتجدّدة وأفقدتها جديها وأعمامها وأرغمت أقرباءها على الهجرة. أمضت لولا سنواتها الأربعين في

وحدة وهي تناضل مثل كلب يعض قيده. لقد وافقت والدتها على الانتقال إلى هافانا إلا أنهما ما لبثا وأدركا أن لويانو ليست أفضل من ميناس فقد أمضت لولا عشر سنين وهي تكافح للحصول على رجل بإحدى طريقتين «تزوجني» أو «سأوقع بك في إحدى الحجرات»، إلا أن والدتها ألجمت نداء الطبيعة وتشبثت بابنتها في إصرار مماثل وأغرقت آخر دمدماتها بحاجاتها الملحة.

بموت والدتها شعرت العانس بالحسرة فغرقت في دموعها. إنها وحيدة الآن لكن الأوان قد فات. لقد رغبت لولا في الاستمرار في كفاحها والعمل على آلة الحياكة إلا أن عينيها رفضتا ذلك ولتعيل نفسها قامت ببيع الأقمشة ومستحضرات التجميل وإيصالها إلى المنازل لكنه لم يكن عملًا مجزيًا فانتهت إلى بيع بطاقات اليانصيب. عندئذ كان شعرها قد تحول إلى اللون الرمادي وغزت التجاعيد وجهها.

أما الآن فقد وصلت إلى حال من التأقلم مع ظروفها والاستسلام لحياتها فاختلقت لنفسها المبررات لتتجنب معاناة الصراع مع الحياة فخبزها يصل إليها ملفوفًا في الأوراق الرسمية التالفة، وكل سبت تصغي إلى صوت طفل من الميتم أو شاب أعمى وهو يدير صندوق اليانصيب ليختار الأرقام المحظوظة ويعلن الفائز. فيما بعد انتهى بها الأمر إلى اختيار موقع مجاور لحديقة الحيوانات حيث تجد الراغبين في شراء بطاقة أو مجموعة كاملة من بطاقات اليانصيب. اعتادت أن تقف هناك بوجه مبتسم ودود وهي

تصيح بصوتها الأخنف بأرقام البطاقات مرتدية تنورة ذات جيب كبير تضع فيه النقود. وفي نهاية اليوم تستقل الحافلة إلى لويانو حيث الكوخ الذي سكنته على الدوام.

لم تكن السياسة تعني أي شيء لها ولم تحفل يومًا بالمطالبة بمزايا العصر الحديث. لقد عبرتِ من الباب نفسه الذي أنهى الأزمة الاقتصادية والحياة التعسة لبائعي حديقة الحيوان البائسين. قامت الحديقة بتخصيص كشك للولا للعمل على آلة غزل البنات وللمرة الأولى في حياتها شعرت بالأمن والطمأنينة وهي تتطلع حولها فقد أصبحت تتناول خبزها دون أن تكون بحاجة لأن تقلق بشأن الغد.

تقوم لولا كل صباح بإلقاء التحية على الموظفين بكل أدب. المئات منهم ممن يسيرون على عجل لتأدية مهامهم المختلفة بالحديقة. هي الآن ليست إلا تجاعيد وحقائب، يعلو رأسها شعر أجعد قبيح. امرأة ضخمة ذات خصر غليظ وساقين مستقيمتين ممتلئين تشبهان أرجل البيانو وذراعين مترهلتين وقدمين تسيران باعوجاج كالببغاء البري. لكن ورغمًا عنها حمل مظهرها الأشعث ذاك سيماء العذرية فهناك شيء ما محفوظ، يهرم دونما استخدام.

أتاح لها عملها الروتيني تحَرير رغباتها الدفينة التي طاردتها طوال سنوات العنوسة كوباء فتاك. تملأ ملعقتها المعدنية بالسكر لتسكبه في الإناء الكهربائي الدوار لتشكل مخروطًا ضخمًا من الخيوطِ البيضاء الملتفة حول العود، وفي هذه الأثناء تطلق العنان لأحلام وخيالات بلا حدود.

احتمت العجوز بكل تلك الأشياء التي حرمت منها، وكما يستعيد الآخرون ذكرياتهم الحقيقية فإن لولا استرجعت كذلك أطيافها وفراشاتها.

أولع بها كل من في الحديقة من بشر واستمتعوا بإحراجها بالنكات القذرة وقد اعتادت كامرأة طيبة إسداء بعض الخدمات إليهم والتحدث إليهم بشأن فعاليات الحديقة.

تطلب الأمر من لولا عدة سنوات لتكتشف ما يكتنف ذلك المكان الذي يحيط بها والعلاقات المتنوعة فيه. كان فصل الربيع قد حل عندما تنبهت للأمر بجلاء. إنها لم تخبر أحدًا لكنها ضبطت إيقاع سمعها وبصرها على الأشجار والحيوانات والطيور مترقبة بكل مسامها التي بدت كأفواه جائعة.

قد تذهب للنوم على أمل العودة إلى هناك وعندما تنتهي أعمالها، تختلق أي عذر للبقاء ثم تسير على مهل في الحديقة لترى الأقفاص بنظرة جديدة. هناك شيء جديد بعث الحيوية في الحيوانات أما هي فقد اكتشفت وشعرت بالحب في كل مكان. سحرها ذلك المحيط الذي يصعب وصفه وأشعل فيها الرغبة. مع بداية دورة الربيع أصبحت الحيوانات في جمال الضوء والأشجار. ألهب الفصل الجميل ملاطفات القمريات ومداعبات طيور سان دييغو الصغيرة ذات اللون الأزرق الفاتح وجمع الموسم بين مخلب النسر وتاج مالك الحزين.

مزق الهواء صفير مباغت. لقد بدأت المداعبات الحنون المثيرة التي تسبق الرغبات المحمومة ومعها بدأت العجوز ذات القدمين اللتين تشبهان ساقي الببغاء بالتجوال وكأنها جنية تطارد شيئًا ما.

صدحت في الأجواء ولساعات طوال أنغام الحمامة المطوقة وترانيم الحمامة البيضاء ذات الصدر الأحمر أما الطيور الطنانة فقد بنت أعشاشها في عيني لولا الولهى.

انتشر في حديقة الحيوان أزيز كأزيز خلايا النحل القصية في ميناس ولكنه يصدر الآن من رئتي أيل بعثت فيه الحياة من جديد في مخبئه الخانق وهو يلتف حول أنثاه الخجلى. تناست أنثى الدب في الكهف أسرها وضجيج المكان فجلست على كفليها وجعلت تغري ذكرها فتقبله وتلعقه من أعلى الجبهة إلى الفم، الفم...

أخذت عجوز غزل البنات على غير هدى في البحث عن أي كائن يغني أو يصدر أصوات حب لا محدود. قد تقف هناك لوقت طويل تتأمل مشاعرها الجديدة تجاه الأشياء، ففي ذلك السجن المحكم ولدت بهجة لا توصف بالتزاوج والحرارة.

رغم الظواهر الفاترة، إلا أن لولا كانت تغوص في أعماق نفسها باضطراب بحثًا عن النشوة الجامحة. عاد إليها ذلك الدوار المنسي منذ شبابها، عاد مع قوة اللاما وهو يعتلي أنثاه لوقت طويل مسببًا لها الألم، عاد مع عربدة الشيمبانزي أمام الأنثى ببهائها الوحشي. ومع خنوع قرد

العنكبوت الذي يلهب الخيال ومع براعة قرود إنسان الغاب، سادة علم المجون، المنحرفين العابثين بفن بشري في ابتداع ممارسات جنسية بتنوعات ثرية فيتدحرج زوجان على الأرض مشكلين كرة من اللذة تقطر ثم تستسلم في صمت. تبع شبح الأم الحانق لولا وهي تسير في الحديقة فرغبت في الفرار إلا أنها بقيت تحدق وتحدق بتوتر وألم وقد جف حلقها والتوت ركبتاها واحمر وجهها من الخزي.

مشاهدتها لتلك الممارسات وهي تتكرر جعلت الدم يندفع إلى رأسها. لقد أمضت أسابيع في هذيان طائفي تنقلت خلاله من غصن إلى قفص ومن حيوان إلى آخر ثم إلى زوجي الأسود واستسلامهما العنيف بعد نوبة زئير مزق فيه أحدهما الآخر. ثم انتقلت إلى رؤية ذلك الالتحام المتصالب بين النمور والأسود التي ستلد الأسود والنمور.

لقد حل الموسم الذي يقلق حراس الحديقة من ذلك الإيقاع الجديد لصراعات التزاوج الهوجاء. أما لولا فقد عادت إلى قلائدها المزدوجة وإلى أقراطها الطويلة البراقة وإلى أحمر الشفاه وإلى حذائها الصغير ذي الكعب العالي الذي حشرت فيه قدميها المتضخمتين. قد تشبك أيضًا بعضًا من الزهور في قميصها وقد تستخدم شيئًا من العطور الفرنسية.

في الربيع الماضي كانت قد رغبت بشدة في اقتناء مرآة صغيرة فاتجهت إلى محال الخردة بحثًا عن واحدة بين

أكوام الأغراض المغطاة بالغبار. وجدت مرآة جميلة مزخرفة بالخيوط الفضية ومزينة بصورة كيوبيد برفقة غزلان أسطورية على سطح زجاجي صقيل. أخرجتها من حقيبة يدها وتطلعت إلى وجهها المغطى بمساحيق التجميل والحلي الرخيصة فبدت وكأنها ملكة بربرية.

في مايو الماضي وبعد أن أمضت ثماني سنوات في خلط خيوط السكر، وفي التأوه مع الطيور والوحوش وفي خلط تاريخها وأشباحها وفراشاتها مع ألوان ريش الطيور وتنفس الحيوانات وهي تمارس الحب، وفي صباح شبق تزاوج فيه أربعة آلاف من ساكني الحديقة في تناغم وأخذت الأحداق تشع بوميض محموم وارتفعت وتيرة الجنس وسبح طائر التوراكو المصري في الفضاء وكأنه في حفل زفاف بعد أن أزال المطر عنه الصباغ، في ذلك الصباح بالتحديد التقت لولا الجوكي.

قابلها الجوكي وهي تقف إلى جوار أكشاك الطعام أما لولا فقد رأت شابًا فتيًا: وجه ناعم، أسنان منتظمة، ورقبة مثالية بلا تهدلات لحمية أو تغضنات.. . أجفلتها المفاجأة وذعرت.. . لقد قال شيئًا من قبيل، «أنت ثملة». فهزت كتفيها دون أن تجيب فهي الآن تنظر مباشرة إلى الجانب الآخر من الطريق حيث كان العجوز الأسود المسؤول عن الكنغر واللاما مقبلًا. بدا جوليان وكأنه مخلوق من ضوء وأبنوس. كم هو متجدد هذا الأسود الجميل من رأسه إلى أخمص قدميه.

فتحت لولا حقيبتها على عجل وارتجفت يدها وهي تخرج المرآة.

ومن على سطح القمر المتألق ابتسمت لها فتاة ميناس.

المؤلفة

Dora Alonso

دورا الونسو
هافانا

ولدت في كوبا عام 1910. عملت في البدء كمراسلة صحفية ثم انتقلت إلى الكتابة للإذاعة والتلفزيون. تكتب باللغة الإسبانية الكوبية وقد ترجمت الكثير من أعمالها إلى العديد من اللغات العالمية. لها مساهمات في مجال الشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرحيات وقد تحول بعض منها إلى أفلام سينمائية. حصدت العديد من الجوائز المرموقة في مجال الأدب. توفيت عام 2001 في كوبا. من أشهر مؤلفاتها: العام 1961، أنا الفناء، بوهيميا والحصان القزم.

جامعة الكنوز

The Collector of Treasures

الكاتبة/بيسي هيد Bessie Head

تستغرق الرحلة يومًا كاملًا من قرى شمال البلاد إلى الجنوب حيث سجن الولاية المركزي للمحكومين لمدد طويلة. لقد غادروا القرية عند التاسعة صباحًا تقريبًا واستمرت شاحنة الشرطة تغذ السير طوال اليوم بإيقاع رتيب في الطريق الفرعي المترب الذي يمر بطول البلاد. حياتها اليومية في حرث الحقول ورعي الماشية، المساحات الشاسعة من الأدغال والغابات، بدت جميعًا غير آبهة لعيني تلك السجينة المتلهفتين وهما تحدقان بهم من خلال القضبان المتشابكة بمؤخر شاحنة الشرطة. بدت السجينة في لحظة ما خلال الرحلة وكأن ألمًا عظيمًا أصابها وغمرها شعور شديد بالوحدة فانكمشت على نفسها ببطء ككومة مهملة غير مدركة لأي شيء حولها عدا ألمها ذاك. مر وقت الغروب ثم الغسق ثم حل الظلام وما زالت الشاحنة تسير برتابة ولا مبالاة أو شعور.

للوهلة الأولى بدت أضواء المدينة الجديدة المستقلة، غوبورن(*) باهتة في الأفق، ثم تجلت كطيف باهر من خلال الظلام الحالك في الأدغال حتى وصلت الشاحنة إلى الطرق المعبّدة، أضواء النيون، المحال وصالات السينما. عندئذ تحولت الأدغال إلى طيف وسط تلك الأضواء المتألقة. مر ذلك كله على السجينة المتكومة على نفسها دون أن ترى شيئًا أو تشعر بالزمن، وحين توقفت الشاحنة بهدوء خارج بوابة السجن لم تحرك ساكنًا، إلا أنها شعرت بضوء المصباح يضرب جانب وجهها وكأنه عاصفة مؤلمة. ناداها الشرطي بحدة معتقدًا أنها كانت نائمة.

«عليك أن تستيقظي حالًا. لقد وصلنا».

ناضل مع القفل في الظلام حتى تمكن من فتحه بصعوبة وسحب القضبان. زحفت إلى الأمام بعناء وصمت.

صعدا بضع درجات معًا ثم أخذ الرجل في الطرق بخفة على باب السجن المعدني الثقيل. فتح موظف الفترة الليلية شقًا في الباب، أمعن النظر ثم فتحه بما يكفي لدخولهما. قادهما بهدوء إلى مكتب صغير وسأل زميله: «ماذا لدينا هنا؟»

«إنها قضية قتل الزوج من قرية بولنغ». أجابه الآخر وهو يناوله الملف.

(*) غوبورن: عاصمة بوتسوانا.

تناول الموظف الملف وجلس إلى طاولة عليها سجل ضخم مفتوح وبخط كبير وواضح سجل التفاصيل على عجل: دايكليدي موكوبي. التهمة: جريمة قتل. الحكم: السجن مدى الحياة. جاءت سجانة الفترة الليلية واقتادت السجينة إلى حجرة جانبية حيث طلبت منها خلع ملابسها.

«هل لديك أي نقود؟» سألتها السجانة وهي تناولها ثوبًا بسيطًا من القطن الأخضر حيث كان ذلك هو زي السجن الموحد. هزت السجينة رأسها بصمت نافية ذلك.

«قتلت زوجك إذن. أليس كذلك؟» قالت السجانة بنبرة مازحة، «ستكون لديك صحبة طيبة. لدينا هنا أربع نساء أخريات للجريمة نفسها. يبدو أنها أصبحت موضة هذه الأيام. تعالي معي». اقتادتها عبر دهليز طويل ثم توقفت أمام بوابة حديدية فتحتها بالمفتاح وانتظرت لتسبقها السجينة بالدخول ثم أقفلته مرة أخرى. دلفت إلى ساحة صغيرة ذات جدران عالية ضخمة في أحد جانبيها دورات مياه وحمّامات وخزائن وعلى الجانب الآخر هناك مساحة خرسانية مربعة فارغة. توجهت السجانة إلى إحدى الخزائن ثم فتحتها وأخرجت منها لفة ثقيلة من البطانيات نظيفة الرائحة وناولتها للسجينة. في الجهة الأخرى من الفناء المسور ثمة باب معدني ثقيل يفضي إلى الزنزانة، مشت السجانة باتجاهه وقرعته بشدة ونادت: «أقول، أيتها النسوة في الداخل، هل بإمكانكن إشعال شموعكن؟»

أجابها صوت من الداخل: «حسنًا»، ثم سمعن صوت

احتكاك لعود ثقاب. أدخلت السجانة المفتاح مرة أخرى وفتحت الباب. راقبت لوهلة بينما أخذت السجينة في تسوية بطانيتها على الأرض. جلست السجينات الأربع المتكدسات في الزنزانة لبرهة قصيرة وأخذن يحدقن في رفيقتهن الجديدة في صمت. بعد أن أقفل الباب حيينها بهدوء وسألتها إحداهن:

«من أين قدمت؟»

«بولنغ». أجابت النزيلة الجديدة، وكما يبدو فقد اكتفين بتلك الإجابة فأطفئ الضوء واستلقت النسوة لإكمال نومهن المتقطع.

قرع جرس الإفطار في السادسة من صباح اليوم التالي. دفعت النسوة أنفسهن لأداء روتينهن اليومي. وقفن ونفضن بطانياتهن ثم لففنها في حزم مرتبة. صر مفتاح سجانة الفترة النهارية في القفل ففتحت الباب وتركتهن يدلفن إلى الساحة الخرسانية الضيقة لدخول دورات المياه. ظهر اثنان من المساجين الذكور بالبوابة مصحوبين بقعقعة عالية للدلاء والأطباق فقدما طبقًا من العصيدة وكوبًا من الشاي الأسود لكل من السجينات اللاتي أخذنها وجلسن على الأرضية الخرسانية لتناول الطعام ثم استدرن لرؤية رفيقتهن الجديدة. التفتت إحداهن وهي المتحدثة الرسمية عن المجموعة وقالت بود: «عليك أن تنتبهي فالشاي بدون سكر لذا فنحن عادة ما نسحب السكر من العصيدة ونضيفه إلى الشاي».

تطلعت المرأة دايكليدي إليهن وابتسمت. لقد مرت بأمور أشد فظاعة خلال فترة انتظارها لمحاكمتها حتى بدت بذلك الجلد المشدود على خدها أقرب إلى الهيكل العظمي منها إلى البشر. ابتسمت المرأة الأخرى ولكن بطريقتها الخاصة ووجهها الساخر العابث على الدوام. كانت ضخمة وممتلئة وقد قامت بتقديم نفسها ورفيقاتها: «اسمي كيبوني. وتلكم أوتستسوي وغاليبو ومونوانا. ترى ما هو اسمك؟»

«دايكليدي موكوبي».

«كيف تمت تسميتك بهذا الاسم التعيس؟» ألقت كيبوني ملاحظتها. «لم سماك والداك باسم دموع؟»

«عندما ولدت كان والدي قد توفي فوسمتني أمي بدموعها». أجابت دايكليدي ثم أضافت: «هي أيضًا توفيت بعد ذلك بست سنين وقام عمي بتربيتي».

هزّت كيبوني رأسها بتعاطف وهي ترفع ببطء ملعقة من الثريد إلى فمها وبعد أن ازدردتها سألت مجددًا:

«وما هي جريمتك؟»

«لقد قتلت زوجي».

«نحن جميعًا هنا للجريمة نفسها». قالت كيبوني ثم سألتها بابتسامتها الساخرة: «هل تستشعرين أي ندم على جريمتك؟»

«لا، حقًا». أجابت المرأة الأخرى.

«كيف قتلته؟»

«لقد جززت كل أعضائه الخاصة بسكين»، قالت دايكليدي.

«أنا فعلت ذلك بشفرة حلاقة»، قالت كيبوني وتأوهت وهي تضيف: «لقد كانت حياتي مليئة بالمشاكل».

تلا ذلك صمت قصير أشغلن أنفسهن فيه بطعامهن، ثم تابعت كيبوني حديثها بشرود، «رجالنا لا يعتقدون بحاجتنا إلى الحنان والرعاية. تعلمين.... اعتاد زوجي ركلي بين ساقي عندما يرغب في ذلك الشيء. معاملته تلك تسببت بإجهاضي إحدى المرات. عندما مرضت لم يعد هناك أي مجال لإرضائه لذا قلت له مرة إن بإمكانه اتخاذ امرأة أخرى فأنا لم أعد قادرة على تلبية احتياجاته. حسنًا... لقد كان زوجي مسؤولًا في التعليم لذا كان يعمل على إيقاف ما يقارب سبعة عشر معلمًا عن العمل كل سنة لتسببهم بحمل الطالبات مع أنه كان معتادًا ارتكاب الشيء نفسه. في آخر مرة ارتكب فيها هذا الفعل جاء والدا الفتاة وهما غاضبان ليبلغاني فعلته. فقلت لهما اتركا الأمر لي، لقد رأيت منه ما يكفي.. وهكذا قتلته».

جلسن في صمت وأكملن وجبتهن ثم حملن أطباقهن وأكوابهن لتنظيفها في غرفة الغسيل. قامت السجانة بجلب بعض الجرادل ومكنسة فأقسام النوم يجب أن تغسل بالماء رغم نظافتها وخلوها من أي قذارة ولكن ذلك هو روتين

السجن. بقي الآن التفتيش الذي يضطلع به مدير السجن. هنا التفتت كيبوني إلى رفيقتهن الجديدة مرة أخرى وحذرتها، «عليك أن تكوني حذرة عندما يأتي الرئيس للتفتيش. شيء واحد يثير جنونه ـ الانتباه! قفي باستقامة ويداك إلى جانبيك! إن لم تفعلي ذلك فسترين كيف سيقف هنا ويكيل اللعنات. إنه لا يهتم بأي شيء آخر. ذلك هو ما يثيره فقط».

انتهى التفتيش واقتيدت النسوة عبر عدد من البوابات إلى ساحة مفتوحة ومشمسة حيث سيؤدين أعمالهن اليومية. كانت تلك الساحة مسيجة بسياج عال من الأسلاك الشائكة. أما السجن فقد كان عبارة عن مركز لإعادة التأهيل حيث ينتج السجناء البضائع التي تباع في المحل التابع له فتصنع النسوة الثياب القماشية والصوفية ويعمل الرجال بالنجارة وصنع الأحذية والطوب وزرع الخضروات.

تميزت دايكليدي بعدد من المهارات فبإمكانها الحبك والخياطة ونسج السلال. جميع النسوة الآن مشغولات بغزل الملابس الصوفية وقد أخذت المبتدئات منهن بالعمل ببطء واجتهاد ومثابرة. عندما تناولت دايكليدي إبر الغزل وكرة الصوف وبدأت بالغزل جذبت انتباههن بسرعة غزلها. إن لها يدين ناعمتين رقيقتين وكأنهما بلا عظام، يدين لهما قوى غريبة تنتجان هذه التصاميم الجميلة. عند الضحى كانت قد أكملت الجزء الأمامي من القميص الذي تحوكه فتوقفن جميعًا لإبداء إعجابهن بتصميمها المبتكر.

«أنت موهوبة». قالت كيبوني بإعجاب.

«يقول جميع أصدقائي ذلك»، ردت دايكليدي بابتسامة. «تعلمين.. السقوف القشية التي أصنعها لا يمكن أن تسرب أبدًا وكلما أراد أصدقائي عمل سقف قشي لأكواخهم، أكون أنا هناك للمساعدة. لا يمكنهم عمل ذلك بدوني. لقد كنت دائمًا مشغولة ولدي أعمال أنجزها فبهاتين اليدين أطعم أطفالي وأقيم أودهم. أما زوجي فقد هجرني بعد أربع سنوات من الزواج لكني تمكنت من تدبر أمري بما يكفي لإطعام تلك الأفواه. إذا لم يدفع الناس المال لقاء عملي فإنهم يهبون لي الهدايا والطعام».

«الوضع هنا ليس بسيىء»، قالت كيبوني. «بإمكاننا الحصول على قليل من المال الذي يحتفظون به لنا من مبيعات إنتاجنا وإذا عملت بهذا الشكل فسيكون بإمكانك أيضًا جني المال لأبنائك. كم طفلًا لديك؟»

«لدي ثلاثة أبناء».

«هل يلقون الرعاية الحسنة؟»

«نعم».

«أحب وجبة الغداء»، قالت كيبوني ذلك وهي تغير مسار الحديث بشكل غريب، «إنها أفضل وجبات اليوم ففيها يمكننا تناول العصيدة واللحم والخضروات».

وهكذا ما بين الثرثرة والعمل مر اليوم بسلام وعند الغروب اقتيدت النسوة مرة أخرى إلى الزنزانات لفترة

الاحتجاز. فردن طيات أغطيتهن وأعددن أماكن نومهن وبينما شموعهن مضاءة استمررن في الحديث برهة من الزمن. في الليل وهن يستعددن للنوم، أومأت دايكليدي لصديقتها الجديدة كيبوني، «أشكرك لكل تلك الطيبة التي منحتني إياها». قالت دايكليدي برقة.

«يجب أن تساعد إحدانا الأخرى»، ردت كيبوني بابتسامتها العبثية الساخرة. «إنه عالم فظيع. لا شيء هنا سوى البؤس».

وهكذا استهلت المرأة دايكليدي المرحلة الثالثة من حياتها وقد اصطبغت بشحوب الوحدة والتعاسة. بالرغم من ذلك كانت دائمًا تجد الذهب وسط الرماد، إنه الحب العميق الذي ربط قلبها بقلوب الآخرين. ابتسمت لكيبوني بحنان فقد علمت أنها وجدت حبًا آخر من ذلك النوع. لقد كانت شغوفة بجمع ذلك النوع من الكنوز.

بالفعل هناك نوعان فقط من الرجال في هذا المجتمع. أحد النوعين لا يخلق سوى البؤس والاضطراب وجدير بأن تحل عليه اللعنة كالشياطين. إن شاهد أحد كلاب القرية وهي تطارد كلبة في ذلك القيظ فإنه سيرى أربعة أو خمسة منها تتحلق حولها بينما يحاول أحدها فرض سطوته عليها والاستئثار بها فيأخذ بقيتها من تعيسي الحظ بالعض والنباح أمامها. عندئذ يزهو المنتصر بغنيمته متخيلًا بعمله الهرقلي ذلك أنه الذكر الوحيد في الكون وأن الجميع سيأتي زحفًا إليه. يحيا ذلك النوع من الرجال قريبًا من الحيوان ويتصرف

مثلهم تمامًا، وكالكلاب والثيران والحمير فإنه لا يتحمل مسؤولية الصغير الذي ينجبه وأيضًا كالكلاب والثيران والحمير فإنه يدفع أنثاه للإجهاض. وحيث أن تلك النوعية من الرجال هي الغالبة في المجتمع فإن تحليلًا بسيطًا سيكشف لنا مسؤوليتهم الكاملة عن انهيار الحياة الأسرية.
يمكن تقسيم حياة هذا الرجل إلى ثلاث فترات زمنية. في العهد القديم وقبل الغزو الاستعماري لإفريقيا، كان هذا النوع يحيا ضمن أعراف القبيلة ومقدساتها التي يخضع لها الجميع. لم يكن لديه قط الحرية الشخصية لتقييم تلك التقاليد وهل هي مناسبة أم لا، بل هو مجبر على طاعتها والخضوع لها بلا تفكير. ولكن عند التدقيق في قوانين الأجداد ستعلم أنها تهتم بمصلحة المجتمع ككل ولا تلقي بالًا لرغبات الفرد وحاجاته. لقد ارتكب الأسلاف الكثير من الأخطاء ومن أسوئها على الإطلاق أنه منح الرجل المكانة العليا في القبيلة وحط من شأن المرأة واعتبرها مخلوقًا حقيرًا بالفطرة. ما زالت المرأة إلى يومنا هذا تكابد الأمرين جراء التقليل من إنسانيتها. حقبة الاستعمار وزمن هجرة عمال المناجم إلى جنوب إفريقيا كانا هما أقسى فترة مر بها هذا الرجل. لقد تحطم قيد الأسلاف وتحطم معه الشكل التقليدي القديم للحياة الأسرية فقد أصبح لزامًا عليه قضاء وقت طويل بعيدًا عن زوجته وأبنائه ليتمكن من العمل بأجر زهيد في أرض أخرى ويكسب بعضًا من المال ليدفعه للمستعمرين البريطانيين كضريبة أفراد. لم يغن الاستعمار

حياته إلا بشكل طفيف فقد أصبح «صبي» الرجل الأبيض وعتاد مناجم جنوب إفريقيا. أما استقلال إفريقيا(*) فقد كانت المأساة التي تفوقت على جميع المآسي التي مر بها هذا الرجل فحدوثه بذلك الشكل المفاجئ والمثير ألغى النموذج التقليدي لتبعيته للمستعمر. لقد وفر البرنامج الحكومي الجديد للتوطين عددًا أكبر من الوظائف وكذلك وفر رواتب ارتفعت بشكل صاروخي في الوقت ذاته. كما منحت الحياة الأسرية ذات النظام الجديد فرصتها الأولى لدحر الاستعمار إضافة إلى انضباطها الطفولي المعتاد. في خضم هذه الحياة الجديدة توجب على الرجال والنساء العودة إلى مواردهم الداخلية ليتمكنوا من النجاة. عند هذا المنعطف بدا الرجل كحطام بال فلم تكن لديه أي موارد داخلية على الإطلاق. شعوره بالخزي دفعه لبذل مزيد من الجهد للهرب من فراغه النفسي إلى رقصة الموت المتهاوية بالمزيد من التدمير والانغماس في الملذات.

من ذلك النوع كان غورسيغو موكوبي زوج دايكليدي الذي كان يعمل قبل الاستقلال بأربع سنوات كاتبًا في الخدمة الإدارية للمقاطعة ويحصل على راتب ثابت قدره 50 رندًا(**) شهريًا. أما بعد الاستقلال مباشرة فقد ارتفع فجأة إلى 200 رند في الشهر. لقد كان لديه تذوق للنساء والشراب حتى أيام فقره. أما الآن فقد أصبحت لديه القدرة

(*) نالت بوتسوانا الاستقلال عام 1966.

(**) رند: عملة بوتسوانا وجنوب إفريقيا.

المادية التي تمكنه من الانغماس في ذلك بشكل حقيقي وصاخب. بعدئذ لم يعد غارسيغو يرى بالبيت بل قضى أيامه متنقلًا في أنحاء القرية من امرأة إلى أخرى. أما بالنسبة إلى زوجته وأبنائه الثلاثة، بانابوث، الابن الأكبر وعمره أربع سنوات، أناليم ذي الثلاث سنوات وأصغرهم موتسومي ويبلغ من العمر سنة واحدة فقد تركهم لمواردهم الخاصة. ربما يعزى تصرفه ذلك إلى كونها نصف متعلمة ومن ذلك الطراز التقليدي الممل بينما تعجّ القرية بنساء أخر مثيرات. بالفعل لقد صنع الاستقلال الأعاجيب.

كان هناك في المجتمع نوع آخر من الرجال ذو القدرة على خلق نفسه من جديد. لقد حول كل مصادره العاطفية والمادية تجاه حياته الأسرية بصبر وثبات وبإيقاع هادئ كالنهر. إنه قصيدة من حنان.

من ذلك النوع كان بول ذيبولو الذي قدم وزوجته وأبناؤه الثلاثة للعيش في قرية بولنغ في العام 1966، عام الاستقلال حيث عين مديرا لمدرستها الابتدائية. اختارت الأسرة قطعة أرض خالية بجوار فناء دايكليدي موكوبي لتشييد منزلها الجديد.

يعتبر الجيران هم مركز الكون فهم يساعدون بعضهم بعضًا طوال الوقت ويتبادلون استعارة الأغراض بينهم لذا فقد أخذت دايكليدي ترقب جيرانها الجدد بلهفة. في البدء لم تر غير الرجل ومعه عدد من العمال يقومون بنصب السياج الذي أنجز بسرعة وكفاءة عالية. عندما ذهبت إليه

لتعرفه بنفسها لم تعرف عنهم إلا القليل إلا أن الرجل ترك لديها انطباعًا حسنًا منذ الوهلة الأولى. كان طويلًا ذا بنية ضخمة وحركة بطيئة وكان مطمئنًا لدرجة أن الشمس والظلال أخذا يتلاعبان في عينيه حتى صعب على المرء تحديد لونهما بدقة. وعندما وقف ساكنًا في تأمل تلهفت أشعة الشمس للزحف إلى عينيه والسكون فيهما، لذا فقد اكتسبتا لون الظلال حينًا واللون البني الفاتح حينًا آخر.

عندما قدمت نفسها إليه، ابتسم بمودة مخبرًا إياها بأنه وزوجته سينتقلان من بوبونغ وبأنها والأطفال الآن يقيمون مع أقارب لهم في القرية حتى يصبح الفناء جاهزًا وبأن عليه التعجل في الاستقرار ذلك أن العام الدراسي سيستهل خلال شهر. كما أخبرها بأنهم سيشيدون في البدء كوخين من الطين لكنهم ينوون بناء منزل قرميدي صغير فيما بعد. ستأتي زوجته خلال أيام ومعها بعض النسوة لرفع جدران الكوخ الطينية.

«أنا أيضًا أرغب في تقديم المساعدة»، قالت دايكليدي. «إذا بُدىء بالعمل يوميًا منذ الصباح الباكر وكان هناك ستة منا، سنتمكن من رفع جميع الجدران في أسبوع واحد، وإذا رغبت في تغطية أحد الكوخين بسقف قشي كالذي تصنعه النساء فإنني أعلمك بأن جميع صديقاتي يعرفن أنني المرأة التي لا يمكن لسقفها القشي أن يسرب أبدًا».

أجابها الرجل مبتسمًا بأنه سينقل كل تلك المعلومات إلى زوجته ثم أضاف بعذوبة أنه يعتقد أنها عندما تقابل زوجته ستعجب بها فهي إنسانة ودودة والجميع يحبها.

سارت دايكليدي إلى فنائها بسعادة غامرة فزوارها قليلون، كما أن أحدًا من أقاربها لا يزورها منذ أن هجرها زوجها وذلك خوفًا من أن تعتمد عليه لتلبية احتياجاتها، أما أولئك الذي يأتون إليها فيكون ذلك لغرض ما كأن يطلبوا منها حياكة الملابس لبناتهم أو حبك القمصان الصوفية في الشتاء. وعندما لا يكون لديها أي من تلك الطلبات فإنها تقوم بصنع السلال كي تبيعها وبذلك تمكنت دومًا من إيفاء احتياجاتها هي وأبناؤها الثلاثة إلا أنها كانت تشعر بالوحدة وبالحاجة إلى أصدقاء حقيقيين.

صدق الرجل في كل ما قاله عن زوجته فهي امرأة لطيفة ومفعمة بالحيوية، ذات قدّ ممشوق وطول فارع. لم تحاول إخفاء مشاعرها بل كانت كل يوم تشعر بسعادة كبيرة. لقد جرت الأمور كما قالت دايكليدي فقد تمكنت ست من النساء من رفع الجدران الطينية في أسبوع واحد، وبعد أسبوعين أنجز أيضًا السقف القشي. انتقلت عائلة ذيبولو إلى مسكنها الجديد وبذلك تكون دايكليدي أيضًا قد انتقلت إلى أكثر مراحل عمرها خيرًا وسعادة.

لقد شكل ذلك منعطفًا كبيرًا في حياتها فقد كانت علاقتها بأسرة ذيبولو أكثر من مجرد جيرة طيبة، بل كانت علاقة غنية ومتجددة. لم يمر وقت طويل حتى أصبحت علاقة تلكما المرأتين من ذلك النوع العميق جدًا والعاطفي الذي يجعلهما تتشاركان في كل التفاصيل، ذلك النوع من الصداقة الذي لا تعرفه إلا النساء.بدا وكأن كينالبي بحاجة

إلى عدد لا نهائي من الثياب لنفسها ولصغيراتها الثلاث. ولأن دايكليدي لم تقبل أي أجر نظير خدماتها معترضة بأن الخير الذي عم حياتها منذ مجاورتهم لها لا تقدر بثمن، لذا فقد رتب بول ذيبولو لأن يزودها بالمؤونة التي تحتاج إليها مقابل تلك الخدمات. وهكذا قضت دايكليدي بضع سنين من حياتها مطمئنة لتوافر جميع احتياجاتها المنزلية: كيس كامل من الذرة، سكر، شاي، حليب مجفف وزيت الطبخ. كينالبي أيضًا كانت من ذلك النوع من النساء اللاتي يجعلن العالم يدور حولهن فقد جذبت شخصيتها الساحرة عددًا كبيرًا من نساء القرية إلى فنائها، كما جذبت كذلك عددًا كبيرًا من الزبائن إلى صديقتها الخياطة، دايكليدي. وهكذا بالتدريج أصبحت دايكليدي غارقة في العمل لدرجة أن اضطرت إلى شراء آلة حياكة جديدة وتعيين مساعدة لها. أصبحت المرأتان تقومان بجميع أعمالهما معًا حتى بدتا وكأنهما معًا إلى الأبد فقد حضرتا معًا حفلات الزفاف، المآتم واحتفالات القرية، أما في أوقات فراغهما فكانتا تتحدثان بحرية تامة في جميع شؤونهما الخاصة جدًا حتى أصبحت كل منهما تعرف حياة الأخرى بكامل تفاصيلها.

«أنت إنسانة محظوظة»، قالت دايكليدي إحدى المرات بكآبة. «بول هبة إلهية ولا يسع كل امرأة الحصول على رجل مثله».

«أوه نعم»، قالت كينالبي بسعادة. «إنه رجل صادق»، وقتئذ لم تكن كينالبي على علم بقائمة المآسي التي مرت بها

دايكليدي فسألتها: «ولكن ما الذي دفعك إلى الزواج من رجل مثل غارسيغو؟ في ذلك اليوم عندما أشرت إليه ونحن في السوق، تفحصته بعناية ومن النظرة الأولى علمت أنه شخص عربيد».

«أعتقد أني كنت أرغب في التخلص من عمي فقط»، ردت كينالبي. «لم أحب عمي قط فعلى الرغم من ثرائه كان قاسيًا وأنانيًا وقد أرغمت على أن أكون مجرد خادمة لديه. عندما توفيت أمي وأنا في السادسة من العمر اضطررت إلى الذهاب إليه. حياتي آنذاك لم تكن سعيدة البتة فقد كرهني جميع أبنائه لأنني كنت خادمة لهم. قام عمي بدفع مصاريف تعليمي لمدة ست سنوات وبعدها أخبرني بأن علي ترك الدراسة. كم كنت أتوق إلى إكمال تعليمي فكما تعلمين ذلك هو الشيء الذي يجعل العالم يفتح ذراعيه لك. وقتئذ كان غارسيغو صديقًا لعمي وكان هو الشخص الوحيد الذي تقدم لخطبتي. بعد أن تناقشا في ذلك الأمر قال لي عمي: «من الأفضل لك الزواج من غارسيغو فوجودك هنا يخنقني وكأن قيدًا يكبل عنقي». فوافقت لأتخلص من ذلك الرجل الفظيع فقط. في ذلك الوقت قال لي غارسيغو بأنه يفضل الزواج بامرأة مثلي على أن يتزوج من ذلك النوع من النساء المتعلمات فهن عنيدات ويرغبن في فرض القوانين على رجالهن. في الحقيقة أنا لم أعترض قط حين بدأ بالتجوال بين النساء. تعلمين ما تفعله النساء الأخريات. إنهن يطاردن الرجل من كوخ إلى آخر ويضربن عشيقاته فيقوم الرجل

بالهرب من ذلك الكوخ إلى كوخ آخر. هذا كل ما في الأمر لذا فأنت حقًا لا تخرجين من ذلك التصرف بأي فائدة. لم أكن لأفعل أي شيء من ذلك القبيل بل كنت راضية بأبنائي. إنهم البركة التي حلت بي».

«أوه ذلك غير كاف»، قالت ذلك صديقتها وهي تهزّ رأسها بأسى شديد. «كم أتعجب كيف تقسم الحياة هباتها بين الناس فالبعض يحصل على الكثير جدًا بينما آخرون لا يحصلون على شيء البتة. لقد كنت دائمًا محظوظة في هذه الحياة. سيقوم والداي اللذان يعيشان في الجنوب ذات يوم بزيارتي وسترين ما يسبغانه علي من اهتمام مبالغ فيه، وبول أيضًا يفعل مثلهما تمامًا. إنه يهتم بكل شيء بنفسه حتى لا يبقى هناك ما يقلقني أبدًا...».

وكزوجته، اجتذب الرجل بول عددًا كبيرًا من الرجال كأصدقاء له فكان الضيوف يتقاطرون على منزلهم كل مساء: أميون يحتاجون لأن يعبئ لهم استمارات الضرائب وأن يكتب لهم الخطابات عدا زملائه الراغبين في مناقشة الأحداث السياسية الساخنة، فبعد حصول البلد على الاستقلال أصبح هناك حدث جديد كل يوم. كانت المرأتان تجلسان جانبًا وهما تستمعان إلى تلك المناظرات بافتتان ولكن دون أن تشاركا فيه أبدًا إلا أنهما كانتا تستعيدان فيما بعد تلك الحوارات بعبارات صادقة ومتعقلة.

«إن عقول الرجال تشطح بعيدًا وبجراءة»، قد تعلق كينالبي بذلك. «إن الطريقة التي ينتقدون بها الحكومة

الجديدة بكل حرية تجعلني أرتعد. هل سمعت ما قاله بيتروس الليلة الفائتة؟ لقد قال إنه يعرف كل أولئك الأوغاد وإنهم ليسوا إلا محتالين يرتكبون الكثير من الخدع القذرة. أوه يا إلهي! كم خفت عندما قال ذلك. إن الطريقة التي يتحدثون بها عن الحكومة تجعلك تشعرين في داخلك بأنك تحيين في عالم غير آمن عكس الماضي عندما لم تكن لدينا حكومة. وقد قال لينتسو إن عشرة في المائة فقط من سكان بريطانيا يتحكمون فعليًا في ثروات البلاد بينما يعيش البقية تحت خط الفقر كما قال إن الشيوعية هي التي ستنهي كل ذلك. شعرت بالخوف من الطريقة التي تحدثوا بها عن هذا الأمر وكيف أن الحكومة لا تتفق والشيوعية. ارتعدت كثيرًا عندما بدأت تلك المسألة تتضح لي...» توقفت وضحكت بزهو، «لقد سمعت بول يقول عدة مرات: «بريطانيا حكمتنا لمدة ثمانين سنة فقط». استغرب لم بول مولع بترديد ذلك؟»

وهكذا فتح عالم كامل لدايكليدي، عالم ثري وسعيد بشكل لا معقول حتى أنها انغمست في تلك الحياة بشكل عميق وتجاوزت كل ما مر بها من فشل وتعاسة. إلا أن الأمر أخذ يقض مضجع صديقتها كينالبي باستمرار.

«عليك أن تجدي رجلًا آخر»، جادلت كينالبي صديقتها وهما في إحدى محادثاتهما الخاصة. «ليس من المحبذ للمرأة أن تحيا وحيدة».

«ومن سيكون ذلك الرجل يا ترى؟» سألتها دايكليدي ببراءة، «لن يجلب ذلك إلا التعاسة لحياتي التي بدأت توًا

تستقر نوعًا ما فابني الأكبر يدرس وبإمكاني توفير الرسوم الدراسية. صدقيني ذلك هو كل ما يهمني».

«أنا أقصد»، قالت كينالبي، «أن علينا أيضًا أن نحب وأن نستمتع بذلك».

«أوه أنا لم أحفل بذلك الأمر قط». قالت الأخرى: «عندما تجربين أسوأ ما فيه فإنك ستحرصين على تجنبه».

«ماذا تقصدين بذلك؟» سألتها كينالبي وقد اتسعت عيناها.

«أقصد أن الأمر لا يعدو في نظري قفزًا إلى الأعلى وقفزًا إلى الأسفل. لقد تعجبت دائمًا ما الفائدة من كل ذلك، ومع الوقت نما لدي شعور بالنفور منه».

«تقصدين أن غارسيغو يتصرف على ذلك النحو!» قالت كينالبي مصعوقة. «لم؟ إن ذلك أشبه بديك يتقافز من دجاجة لأخرى. ترى كيف يتصرف مع كل أولئك النساء. أنا متأكدة أنهن لا يسعين إلا لنقوده لذا فهن يغازلنه. . . .» توقفت ثم أضافت بجدية، «ذلك فعلًا هو أكبر دافع لك للبحث عن رجل آخر. آوه لو علمت حقيقة ذلك الأمر فقط إذن لتلهفت توقًا إليه، أنا أؤكد لك ذلك! أحيانًا أعتقد أني أستمتع بهذا الجانب من الحياة أكثر مما ينبغي. إن بول يعرف كل شيء عن هذا الأمر ولديه دائمًا حيل جديدة يفاجئني بها، وعندما تراوده فكرة جديدة، يبتسم بطريقة معينة تجعلني أرتجف قليلًا وأسائل نفسي: ها، ترى ماذا لدى بول الليلة؟»

توقفت كينالبي عن الحديث وابتسمت لصديقتها بمكر: «يمكنني أن أعيرك بول إذا رغبت». قالت ذلك ثم رفعت يدها لإيقاف صديقتها التي كانت على وشك الاعتراض، «إنني أفعل ذلك لأنني لم أحظ يومًا بصديقة مثلك أثق بها إلى هذا الحد. كما تعلمين لقد تعرف بول إلى العديدات قبل أن يتزوجني لذا فإن الأمر بالنسبة إليه لن يكون صادمًا، إضافة إلى أننا اعتدنا فعل ذلك قبل الزواج ولم يتسبب في حملي قط. إنه يهتم بذلك الجانب أيضًا. أنا لا أمانع أبدًا في أن أعيرك إياه خصوصًا وأني حامل وأشعر بتوعك هذه الأيام....».

حدقت دايكليدي في الأرض لفترة طويلة ثم رفعت ناظريها إلى صديقتها والدموع تملؤهما. «لا يمكنني قبول هدية كهذه منك»، قالت بتأثر شديد. «ولكن باستطاعتي حقًا إن كنت مريضة أن أغسل وأطبخ لك».

رغم رفض صديقتها لعرضها السخي إلا أن ذلك لم يمنعها من إخبار زوجها بالحوار الذي دار بينهما في تلك الليلة ذاتها. في البدء صعق بول من هول المفاجأة وبقي صامتًا لبعض الوقت ولكنه ما لبث أن انفجر ضاحكًا حتى بدا وكأنه غير قادر على التوقف.

«لم تضحك بهذه الطريقة؟» سألته كينالبي باستغراب.

ضحك كرة أخرى ثم التفت إليها فجأة بجدية وتأمل وتاه لبرهة في خضم أفكاره.

عندئذ سألته عما يشغل باله فأجابها ببساطة، «لا أريد أن أخبرك بكل شيء بل أرغب في الاحتفاظ ببعض الأسرار لنفسي».

في اليوم التالي أخبرت كينالبي صديقتها بذلك.

«ترى ماذا كان يقصد بذلك؟ أرغب في الاحتفاظ ببعض الأسرار لنفسي؟»

«أعتقد»، قالت دايكليدي مبتسمة، «أعتقد أن له تصوره الخاص عن الرجل الطيب كما أن المرء عندما يحب شخصًا آخر بتلك القوة فإن من المؤلم أن يقال له ذلك فيؤثر حينها الصمت».

بعد ذلك بفترة قصيرة فقدت كينالبي حملها فأدخلت المستشفى لإجراء عملية بسيطة أما دايكليدي فقد أوفت بوعدها وقامت بجميع أعمال الطبخ والغسل من أجل صديقتها. لقد اهتمت بالمنزلين ورعت الأطفال وأدارت شؤونهم على أتم وجه، ولأن الناس دائمًا يشكون سوء التغذية في المستشفيات فقد عمدت دايكليدي إلى الطواف في القرية لجلب الدجاج والبيض الطازج ومن ثم طهوه وأخذه إلى كينالبي كل يوم ساعة الغداء.

في أحد المساءات أعاقتها بعض الأعمال عن روتينها اليومي ذاك فما أن أنهت وضع العشاء لأبناء آل ذيبولو حتى أتتها إحدى زبوناتها على عجل لإجراء بعض التعديلات على ثوب زفافها الذي كان سيقام في اليوم التالي مما جعلها تترك الأطفال حول طعامهم عند المدفأة وتهرع إلى

منزلها. بعد ساعة من ذلك أوى صغارها إلى أسرتهم واستقروا للنوم فارتأت الذهاب إلى منزل ذيبولو للاطمئنان إلى أن كل شيء على ما يرام. دخلت كوخ الصغار فوجدتهم قد ذهبوا إلى أسرّتهم واستغرقوا في النوم بينما أطباق العشاء متناثرة حول المدفأة. أما الكوخ الذي يتقاسمه بول وكينالبي فقد كان مظلمًا مما يعني أن بول لم يعد بعد من زيارته اليومية لزوجته فجمعت دايكليدي الأطباق وغسلتها ثم سكبت الماء القذر على الجمرات المشتعلة في الموقد الخارجي. رصت الأطباق بعضها فوق بعض وأخذتها إلى الكوخ الإضافي الثالث الذي كان يستخدم كمطبخ. عندئذ وصل بول فلاحظ الضوء المشتعل والحركة الصادرة عن كوخ المطبخ فاتجه إلى هناك. توقف عند الباب المفتوح.

«ماذا تفعلين في هذا الوقت يا أم بانابوث؟» سألها بلطف وهو يناديها بالطريقة المتعارف عليها باسم الابن الأكبر بانابوث.

«أنا أعرف تمامًا ما أنا فاعلة». ردت دايكليدي بمرح ثم التفتت إليه لتخبره أنه ليس من الجيد ترك الأطباق القذرة طوال الليل إلا أنها فغرت فاها من الدهشة فقد تلألأت في عينيه بحيرتان رقيقتان من سائل بارد فمر بينهما شيء عذب لم تعرف كنهه. لقد كان أروع من أن يكون حبًا.

«أنت امرأة طيبة جدًا يا أم بانابوث»، قال برقة.

هو ذاك. لقد شعرت وكأنه أهدى إليها قطعة من

ذهب. هدية مثل تلك لا يهبها إلا رجال من أمثال بول ذيبولو. أخذتها وحفظتها في قلبها إلى جانب كنوزها الأخرى. انحنت له بالطريقة التقليدية ثم سارت إلى منزلها بهدوء.

مرت على دايكليدي ثماني سنوات ازدانت بإيقاعها الهادئ من خلال عملها وصداقتها مع آل ذيبولو. لكن أزمتها بدأت مع ابنها الأكبر بانابوث فقد توجب عليه اجتياز امتحان المرحلة المتوسطة في نهاية تلك السنة وقد أكسبته تلك المناسبة الكثير من الرزانة والجدية بعد أن كان مولعا جدًا باللعب فأحضر كتبه إلى المنزل وأخبر والدته أنه يرغب في قضاء فترات المساء بالمذاكرة وأنه يطمح إلى الحصول على درجة الامتياز إرضاء لها. أخبرت دايكليدي صديقتها كينالبي بذلك بفخر وتواضع.

«يقضي بانابوث كل ليلة في المذاكرة الآن»، قالت. «لم يحفل قط بالدراسة من قبل. كم أشعر بالسعادة حتى أني اشتريت له مصباحًا جديدًا ونقلته من كوخ الصغار إلى كوخي حيث الوضع أكثر هدوءًا له. نبقى كلانا مستيقظين حتى وقت متأخر من الليل، أنا أخيط الأزرار وأصلح الحواشي وهو يذاكر دروسه...».

قامت دايكليدي أيضًا بفتح حساب توفير في مكتب البريد لادخار المال اللازم لدفع مصاريف المرحلة الثانوية التي كانت تصل إلى 85 رندًا. بالرغم من حرصها الشديد على ادخار المبلغ اللازم إلا أنها في نهاية السنة كانت ما

زالت بحاجة إلى 20 رندًا لتغطية التكاليف. أعلنت النتائج في منتصف إجازة الكريسماس وحصل بانابوث على الدرجة «أ» وقد أصاب هذا الإنجاز والدته بحالة هستيرية من الفرح. ولكن ترى ما عساها فاعلة؟ فالولدان الصغيران عليهما أيضًا الالتحاق بالمدرسة هذه السنة ولن تمكنها مصادر دخلها من توفير كل تلك الرسوم لذا فقد قررت بأن تذكر غارسيغو بأنه والد أبنائها رغم أنها لم تره طوال الثمان سنوات الماضية إلا مصادفة وهو يعبر الطريق. في بعض الأحيان كان يلوح لها غير أنه لم يتحدث إليها قط أو يسألها عن شؤون حياتها. وهكذا أقدمت على ذلك الفعل السيئ بالنسبة إلى غارسيغو في أحد الأيام وهو موشك على مغادرة مكتبه للغداء. لقد سمعت ثرثرات أهل القرية أنه قد استقر مع امرأة متزوجة لديها قطيع من الأطفال وأنه قام بطرد زوجها على طريقة أهل القرية الصاخبة بالعراك واللعنات والسباب. أغلب الظن أن الزوج لم يهتم بذلك الأمر كثيرًا فدائمًا هناك الكثير من الأيدي الممتدة لمساعدة الرجل لمجرد أنه رجل. أما غارسيغو فقد انجذب لتلك المرأة بسبب ما تناقله عشاقها السابقون بخبث عن اندفاعها الثائر في الحب وجرأتها المكشوفة.

عندما هم غارسيغو موكوبي بالخروج من مكتبه، بدا عليه الانزعاج لظهور ذلك الشبح من ماضيه، زوجته. واضح أنها ترغب في الحديث إليه لذا اتجه إليها وهو

ينظر إلى ساعته طوال الوقت. وعلى نمط الرجال الناجحين فقد برزت بطنه أمامه وغدت عيناه محتقنتين ووجهه منتفخًا بينما نضحت منه رائحة الجنس من الليلة الفائتة. أومأ لها بعينيه إلى الجهة الخلفية للمكتب حيث يمكنهما التحادث على انفراد.

«عليك أن تسرعي في قول ما تريدين»، قال بصبر نافذ. «استراحة الغداء قصيرة جدًا وعلي أن أعود إلى العمل في الثانية».

بالطبع ليس هو الشخص الذي يمكنها التحدث إليه عن فخرها بالإنجاز الذي حققه بانابوث، لذا فقد قالت ببساطة وهدوء: «غارسيغو، أتوسل إليك بأن تدفع مصاريف دراسة بانابوث في المرحلة الثانوية. لقد اجتاز الامتحان بامتياز وكما تعلم فإنه يتوجب علي دفع الرسوم مع أول يوم في الدراسة وإلا فإنه لن يقبل فيها. لقد كافحت لمدة سنة كاملة لادخار المال رغم ذلك ينقصني 20 رندًا».

ثم ناولته دفتر التوفير الذي أخذه منها وألقى عليه نظرة سريعة ثم أعاده إليها. ابتسم لها بتصنع ابتسامة العارف ببواطن الأمور معتقدًا بأنه سيوجه لها صفعة قاسية ثم قال: «ولم لا تطلبين المال من بول ذيبولو؟» ثم أضاف، «يعلم الجميع أنه يرعى منزلين وأنك امرأته الإضافية، كما يعلم الجميع بأمر كيس الذرة الذي يحضره إلى منزلك كل ستة أشهر لذا لم لا يقوم أيضًا بدفع رسوم المدرسة؟»

كانت تلك بالفعل صفعة لها لكنها لم تنكر الأمر أو تؤكده بل رفعت رأسها في كبرياء وسارت بعيدًا.

كعادتهما اجتمعت المرأتان ذلك العصر ونقلت دايكليدي الحوار الذي أجرته مع زوجها إلى صديقتها كينالبي فأخذت تهزّ رأسها في غضب وتزمجر، «ذلك الخنزير القذر! إنه يعتقد أن جميع الرجال على شاكلته. أليس كذلك؟ سأخبر بول بالأمر وهو سيريه شيئًا لن يعجبه».

وكذلك غارسيغو فعل شيئًا آخر ولكن على طريقته ففي أعماقه تقبع أنثى عاهرة وككل العاهرات المحترفات استمتع بعلانية أفعاله وصخبها بل كانت تحفزه للمزيد. عندما جاءه بول ذيبولو غاضبًا إلى باب منزل خليلته الذي يسكنه، استقبله بابتسامة عريضة صفراء. لقد مر بمواقف مماثلة لمرات عديدة خلال السنوات الثماني الماضية حتى أصبح يعرف عن ظهر قلب الحوار الذي سيتبعه.

«أيها النذل!» هدر بول ذيبولو. «زوجتك ليست خليلتي. هل تسمع ذلك؟»

«لم إذن تهتم بتأمين طعامها؟» أخذ غارسيغو يتشدق. «لا يفعل الرجال ذلك إلا للنسوة اللاتي يعاشرهن. لا أحد يفعل ذلك مجانًا».

أسند بول ذيبولو يده إلى الجدار وقد أخذ منه الغضب كل مأخذ ثم قال بانفعال: «أنت تدنس الحياة غارسيغو

موكوبي. لاشيء في عالمك سوى الدنس. تصنع أم بانابوث الملابس لزوجتي وأطفالي وترفض المال فكيف لي أن أدفع لها بغير تلك الطريقة؟»

«هذا يؤكد أن القصة حقيقية ليس إلا»، قال الآخر بخسة. «تتصرف النساء بتلك الطريقة مع الرجال الذين يعاشرونهن».

وجه بول ذيبولو بيده الأخرى لكمة إلى عينه ثم سار مبتعدًا. لم يتمكن من إخفاء تلك العين المزرقة المتورمة فأصبح يجيب عن كل من يسأله عنها بضعف مصطنع.

«إنه حبيب زوجتي من فعل ذلك. بول ذيبولو».

لقد جذب ذلك اهتمام القرية كلها إليه وهذا هو ما يرغب فيه تمامًا. شكل ذلك الصنف من الرجال أدنى درجة في السلّم الحكومي فهم يتوقون بشدة إلى الزعامة فقط ليصبحوا محط الأنظار لذا حرص غارسيغو على تضخيم الأمور بشكل أكبر فأعلن أنه سيدفع مصاريف ابن خليلته الذي سيلتحق هو أيضًا بالمدرسة الثانوية ولكنه لن يدفع أبدًا مصاريف ابنه هو، بانابوث. أما أهل القرية فقد استمتعوا بتلطيخ سمعة بول ذيبولو فطيبته اللامتناهية أعظم من أن تكون حقيقية وابتهجوا بجعله جزءًا من فساد القرية العام لذا توجهوا إلى غارسيغو بتوبيخ مصطنع، «ربما تحصل زوجتك فعلًا على احتياجاتها من بول ذيبولو رغم ذلك يصعب على أي رجل دفع المصاريف الدراسية لأبناء رجل آخر كما

يدفعها لأبنائه. غارسيغو أنت من أنجب بانابوث لذا فأنت الملزم برعايته إضافة إلى أن تعلق زوجتك برجل آخر هي غلطتك أنت فقد تركتها وحيدة طوال السنين الماضية».

استمر الناس في اجترار تلك القصة لأسبوعين كاملين، غالبًا لأنهم أرادوا أن يكون بول ذيبولو جزءًا من الحياة وأن يشعروا بأنه غير مختلف عنهم بل إن أخلاقياته ومبادئه غير راسخة مثلهم تمامًا. إلا أن القصة أخذت منحى مأسويًا جعل الرجال يرتجفون رعبًا واحتاج الأمر منهم إلى عدة أسابيع حتى يجدوا في أنفسهم الشجاعة لمضاجعة النساء مرة أخرى عوضًا عن ذلك فضلوا إشغال أنفسهم بأشياء أخرى.

تسببت أفكار غارسيغو الداعرة بدماره فقد صورت له بأن رجلًا آخر استلب حصة من دجاجته دون وجه حق وكأي ديك مثله فقد انتصب شعره غضبًا لذا قرر أن يستعيد حقه المغتصب. بعد أسبوعين ـ وقد زال ورم عينه ـ لمح غارسيغو ابنه بانابوث في القرية فطلب منه حمل رسالة إلى والدته وإحضار ردها. لقد كتب في رسالته: أيتها الأم العزيزة. أنا عائد إلى البيت مرة أخرى لنتمكن من حل خلافاتنا. هل بإمكانك إعداد وجبة طعام لي وبعض الماء الساخن فقد أرغب في الاستحمام. غاري».

أخذت دايكليدي الرسالة وقرأتها بسخط. تلك اللهجة المتعالية تعرفها تمامًا. إنه قادم من أجل الجنس ليس إلا فلا خلافات بينهما بل إنهما لم يتحدثا في شيء.

«بانابوث»، قالت. «هل يمكنك اللعب في الجوار؟ أرغب في التفكير لبعض الوقت بعدئذ سأعطيك الرد لتأخذه إلى والدك».

لم تكن أفكارها متضحة أمامها كما أن هناك شيئًا مبهمًا لم تستطع تلمسه مباشرة. لقد أصبحت حياتها مقدسة بالنسبة إليها بعد كل تلك السنين التي كافحت فيها لتعيل نفسها وأبناءها كما أنها ملأت تلك الحياة بكنوز من الطيبة والحب التي جمعتها من الآخرين. ذلك بالضبط هو ما رغبت في حمايته من دنس ذاك الرجل الشيطاني. ولذعرها وخوفها فإن أول فكرة خطرت ببالها هي أن تضم صغارها وتفر من القرية. ولكن إلى أين ستذهب؟ غارسيغو لا يرغب في تطليقها ولقد تركت ذلك الأمر بين يديه من قبل حيث أنها لم تكن لديها النية للارتباط بأي رجل آخر. استبعدت فكرة الهروب، إذن ليس أمامها سوى أن تواجهه. لو أنها كتبت إليه إياك وأن تجرؤ على الاقتراب من فناء داري فأنا لا أرغب في رؤيتك أبدًا لتجاهل ذلك فليس للنساء السوداوات ذلك النوع من السلطة. اكتسى وجهها بملامح التفكير العميق والكآبة. أخيرًا توصلت إلى قرار تطمئن إليه نفسها فاتجهت إلى كوخها وكتبت ردها، سيدي، سأعد لك كل شيء كما طلبت. دايكليدي .

كان النهار قد انتصف تقريبًا عندما أخذ بانابوث الرد وأسرع به إلى والده، أما دايكليدي فقد انشغلت طوال فترة العصر بتحضيراتها استعدادًا لحضور زوجها بعد الغروب.

حضرت كينالبي لبرهة ودهشت لكل تلك التحضيرات فعلى نار مشتعلة وضع إبريق معدني كبير ممتلئ بالماء إضافة إلى قدور الطبخ الإضافية التي وضعت على الموقد لكنها لم تتنبه سوى في وقت لاحق لوجود ذلك السكين، لكنه مجرد سكين كبير وغير حاد، يستخدم في المطبخ لتقطيع اللحم وقد جثت دايكليدي لشحذه على الحجر ببطء وتركيز. ما أجفلها هو ذلك التعبير المأسوي المحتوم الذي اكتسى به وجهها وهي تلتفت إليها مما جعلها تضطرب بشدة حتى أنها لم تتمكن من الدخول معها في أي من تلك الثرثرات الأنثوية الشفيفة التي اعتادتاها. قالت لها دايكليدي: «أنا أقوم ببعض التحضيرات من أجل غارسيغو فهو قادم إلى البيت الليلة». عندئذ هرعت كينالبي إلى بيتها مرتعدة. لقد علمت أن لهذا الأمر علاقة بهما فعندما أخبرت كينالبي زوجها بالأمر، تملكته حالة من الذهول والقلق طوال اليوم. لقد أخذ في تقليب الأمور رأسا على عقب، غير آبه لأسئلتها، تاركًا كوب الشاي ليبرد تمامًا وهو شارد الذهن يذرع المكان جيئة وذهابًا بين الفينة والأخرى، غارقًا تمامًا في أفكاره. كان قلقهما عميقًا حتى أنهما لم يتفوها بكلمة واحدة طوال المساء بل اكتفيا بالجلوس في كوخهما بصمت. بعد ذلك وعند الساعة التاسعة تقريبًا سمعا صيحات عذاب همجي ونشيج ألم فخرجا مسرعين إلى فناء دايكليدي موكوبي.

لقد جاء إلى البيت عند الغروب ووجد كل شيء معدًا

من أجله كما طلب تمامًا فجلس هناك ليستمتع بحياته كأي رجل. أحضر معه علبة بيرة وجلس خارجًا يستمتع بارتشافها ببطء ملقيًا بين الفينة والأخرى نظرة إلى فناء آل ذيبولو. لم ير غير الزوجة والأطفال يتحركون في فناء الدار، أما الرجل فلم يظهر البتة. ابتسم غارسيغو شاعرًا بالرضا التام فهو قادر الآن على التبجح والنعيق كما يشاء دون أن يكون هناك من يوقفه أو يتحداه. وضعت دايكليدي أمامه حوض ماء دافئ ليغسل يديه ثم قدمت له الطعام، وعلى مبعدة منه قدمت الطعام لأبنائها أيضًا ثم طلبت منهم غسل أيديهم والاستعداد للنوم. لاحظت أنه لم يعر أبناءه أي اهتمام بل كان منغمسًا في ذاته مهتمًا بأمر نفسه وراحته الشخصية فقط. لو أنه منحهم القليل من الحنان لربما جعلها ذلك تتراجع عما تنوي فعله وما قضت معظم النهار تخطط له بعناية. حتى هي كانت خارج تفكيره وانتباهه فحين جلبت طبقها لتأكل بجانبه لم يلق إليها بالًا البتة. شرب البيرة وهو يرمق فناء ذيبولو بين الوقت والآخر. لم يلمح رجل الدار قط حتى حل الظلام وأصبح من الصعب الرؤية. شعر بالسرور التام فبإمكانه تكرار هذا الأمر كل يوم حتى يحطم الديك الآخر ويجبره على إظهار غضبه بطريقة سافلة كما هو حري به. كم يحب تلك الأمور.

«غارسيغو، هل تعتقد أن بإمكانك مساعدتي على دفع مصاريف دراسة بانابوث؟» سألته دايكليدي في وقت ما.

«أوه، سأفكر في الأمر». أجابها بلا مبالاة.

وقفت وحملت دلاء الماء إلى الكوخ وأفرغتها في صفيحة كبيرة ليتمكن من الاستحمام. وبينما هو يستحم، أشغلت نفسها بترتيب المنزل وإتمام واجباتها المنزلية الأخيرة. بعد الانتهاء ولجت إلى كوخ الأطفال. لقد أرهقهم اللعب طوال النهار فاستغرقوا في النوم في الحال. جثت إلى جانب حصيرة النوم وبعينين ملؤهما الحنان والعطف أخذت تنعم النظر فيهم لوقت طويل ثم أطفأت المصباح وخرجت من الكوخ.

وجدت غارسيغو ممددًا بعرض السرير بطريقة توحي بأنه لم يفكر إلا في نفسه وأنه لا ينوي تقاسم السرير مع أي أحد آخر. شعوره بالتخمة من الطعام والشراب جعله يغط في نوم عميق وثقيل حالما وضع رأسه على الوسادة. لا بد أن خليلته قد علّمته بأن الطريقة المثلى لنوم الرجل على سريره هو أن يكون عاريًا. وهكذا تمدد بعرض السرير على ظهره مجردًا من أي حماية أو قدرة على الدفاع عن النفس.

أحدثت أدوات الاستحمام جلبة صاخبة وهي تخرجها من الحجرة، رغم ذلك لم يستيقظ وظل في سباته العميق. عادت دايكليدي إلى الحجرة مرة أخرى وأقفلت الباب ثم انحنت لتلتقط السكين المخبأ في قطعة قماش تحت السرير وبكل مهارة ودقة ليدين اعتادتا الأعمال الشاقة قبضت على أعضائه الذكرية وجزتها بضربة واحدة ثم شقت الشريان الممتد بطول فخذه فتدفقت كميات هائلة من الدماء على السرير. أخذ غارسيغو في الصراخ والنحيب من الألم بعدها

صمت تمامًا. وقفت هناك وراقبت آلامه وهو يموت بنظرة قوية ومغتمة دون أن تغفل أيًا من التفاصيل لكن طرقات على الباب قطعت عليها حبل أفكارها. إنه الصبي بانابوث. فتحت الباب وحدقت به في صمت أما هو فقد كان ينتفض بعنف.

«أمي»، همس بذعر. «ألم يكن ذلك صوت صياح أبي؟»

«لقد قتلته»، قالت ذلك وهي تلوح بيدها وكأنها تقول حسنًا، ماحصل قد حصل ثم أضافت بحدة: «بانابوث، اذهب واستدع الشرطة».

استدار بانابوث وولى هاربًا في عتمة الليل ثم تلا ذلك صوت خطوات تتبعه على عجل. كانت تلك كينالبي التي فرت إلى كوخها مسرعة وقد جنت خوفًا وهلعًا. وفي الظلام خطا بول ذيبولو باتجاه الكوخ وولج إليه. تمعن في كل التفاصيل التي أمامه ثم التفت إلى دايكليدي بنظرة ملؤها الأسى والحسرة وقد تجمدت الكلمات على لسانه لكنه نطق في النهاية: «لا داعي لأن تقلقي بشأن الصغار يا أم بانابوث. سأرعاهم كما لو كانوا أبنائي وسأمكنهم جميعًا من الالتحاق بالمدرسة الثانوية».

المؤلفة

Bessie Head

بيسي هيد
جنوب إفريقيا ـ بوتسوانا

ولدت عام 1937 من أم بيضاء وأب إفريقي. قضت طفولتها الصعبة ما بين أسرة بيضاء تبنتها وأم أخرى تبنتها أيضًا وبعدها إلى دار الأيتام. تلقت تدريبها كمعلمة ثم عملت كصحفية وبعد أن فشل زواجها في كيب تاون غادرت جنوب إفريقيا بلا رجعة واستقرت مع ابنها في بوتسوانا التي عاشت فيها كلاجئة إلى أن حصلت على الجنسية. تدور معظم كتاباتها حول خبراتها الحياتية كشخص ذي أصول مختلطة تتضمن العنصرية والاضطهاد والتشرد ومشاكل إفريقيا من فقر وعوز. توفيت إثر إصابتها بالتهاب الكبد عام 1986. لغتها هي الإنجليزية ومن أهم أعمالها: عندما تجتمع الغيوم، مارو ومسألة قوة.

مانا، الطيبة مانا

Mana, Kind Mana

الكاتبة/منيرو رافانيبور Moniru Ravanipor

قلت له: «كيف لك ألا تكون على علم بهذه الأمور؟ إن البحر يعجّ بأسماك القرش التي تبدو كأي أسماك أخرى حتى أنك لن تميزها إلى أن تصبح قريبًا منها وتشعر بأنفاسها. وفي تلك الحالة تكون قد انتهيت».

ضحك. كان جالسًا على هذه الأريكة السوداء ذاتها أمامي، وكان يضحك. ثم وقع نظره على أصيص الزهور ذاك، أو ربما تعمد ذلك لتغيير موضوع الحديث فقط. قال: «زهور نخيل المستنقع توشك أن تموت. يحسن بك سقيها».

قلت: «نخيل في المستنقع؟ لا.. لا أحب ذلك».

دفع شعره عن جبهته إلى الخلف وقال: «يالك من بوشهرية(*) شريرة!»

(*) نسبة إلى مدينة بوشهر جنوب إيران على ساحل الخليج العربي.

سيأتي... فهو عادة يأتي إلى منزلي عند حضوره إلى طهران لسبب ما فنجلس لنقرأ ونتبادل الأحاديث.

في ذلك اليوم حضر أيضًا فقرأنا القصص وعليه الآن أن يغادر فقد حل الظلام وبزغت نجمة متلألئة في السماء أمام النافذة.

لم أعلم قط بمكان إقامته ولا حتى اسمه! كنت أتخوف دائمًا من معرفة اسمه فما أن تعرف اسم شخص ما حتى ينفصل عنك وتكون قد أقصيته عنك بشكل تلقائي. نحن لم نرغب في حدوث ذلك ولم نرغب في الانفصال لذا لم يعرف اسمي يومًا ولم أعرف اسمه إلا أن كلًا منا عرف الآخر وكلًا منا وجد الآخر حتى لو تهنا وسط كل التائهين في هذا العالم.

«أين هو بيتك؟»

«في البعيد... البعيد جدًا».

سألته مرة هذا السؤال ولم أعده كرة أخرى! كنت خائفة من السؤال، تمامًا كما كنت خائفة من النظر إليه. أضناني القلق فأخذت أحادث نفسي: ماذا لو لم يكن له بيت على الإطلاق؟ فمن المستحيل بناء بيت من أمواج البحر، أليس كذلك؟ حالما تبزغ نجمة متلألئة في السماء، ينهض ليقف إلى جوار النافذة ويتطلع إلى السماء كما لو أنه قائد بارجة حربية يحاول شق طريقه وسط بحر عاصف وليل بهيم، وكما لو أنه يبحث عن أثر، أثر لحياة.

بعدئذ تأوه ومضى لينتعل حذاءه ذا العنق الطويل، ولو قلت له، «تتصل بي...؟» لقال: «لا يمكنني الاتصال من البحر، كما أنك لا تملكين لا سلكيًا...».

إلا أنني بادرته هذه المرة بالسؤال بينما هو يهم بالمغادرة، «متى ستعود؟»

لم يسبق لي أن طرحت هذا السؤال لذا فقد بدا تائهًا في أفكاره وعندما استعاد تركيزه أشار إلى المخطوطة التي خطها لي بنفسه، «عندما تشتعل البحار».

شعرت بالبرد فاجتاحتني ارتعاشة سرت إلى أسفل ظهري ويبدو أنه أدرك ذلك فحول دفة الحديث، «أشفقي على هذا الأصيص وازرعي شيئًا فيه، شيئًا تحبينه». ثم غادر...

استمر صدى خطواته يتردد لفترة طويلة وصوت يديه وهو يغوص في الماء ثم أصوات النباتات البحرية وأغصان المرجان وهو يقتلعها من قاع البحر...

أصبح بيتي يعجّ بتلك الأغراض التي دائمًا يجلبها معه... قواقع ملونة تعوي من خلالها الرياح ليلًا ونهارًا، حيوانات البحر، أسماك نجمية وأغصان مرجانية...

كيف تأتى لي أن أتعرف إليه وأين؟

قد يكون ما أقوله مجرد كلمات لا جدوى منها فالجميع يعلم بمن فيهم أنا بأنه في بعض الأحيان لابد أن

تكون لك ذكرى، ذكرى شكلت في زمن ما جزءًا من حياتك، في زمن بعيد، بعيد جدًا، من قبل حتى أن يتكون جسدك الدنيوي ويبدأ بالتحرك على الأرض. هذه الأرض ذات الأديم الملموس الذي يمكنك أن تفهمها وتحطمها من أول نظرة، هذا إن تمتعت بالذكاء الكافي.

رأيته لأول مرة عند الغسق الكئيب. كنت جالسة بحمى المنحدر الصخري أشاهد البحر بخضرته وزرقته وتموجاته الرمادية...لم أتمكن من التخلي عنهما، لا البحر ولا بوشهر. قدمت من طهران ومنذ ذلك الحين وأنا آتي كل يوم لأجلس في ظل المنحدرات الصخرية.

في ذلك اليوم رأيت شخصًا آخر غيري في المكان، شخص يقف في زيه البحري وقد تملك صوت ما كل جوارحه. إنه ينصت ووجهه إلى البحر وكأن هناك شيئًا ما يحاول أن يفكّ طلاسمه. أقبل نحوي على عجل ورفع قبعته وقال: «هل بإمكانك أنت أيضًا سماع ذلك؟»

عندما جلس إلى جواري كانت الشمس قد شارفت الزوال خلف المياه وكنا نحن قد أمسينا متآلفين تمامًا وكأن واحدنا يعرف الآخر جيدًا. رغم ذلك فقد بدا وكأنه لا يعرف البحر جيدًا. لقد حصل توًا على رتبته وهو الآن على وشك أن يستهل حياته في البحر.

قلت له: «إنه صوت المحار..».

قال: «آه..».

أخذ المحار يصدر أصواتًا، «هوووو.... هوووو...». وتناهى صوت رفرفة نجوم البحر وصوت الأغصان المرجانية وهي آخذة في التيبس.

قال: «هل هو دائمًا هكذا؟ دائمًا في هذا الوقت عند الغروب؟»

قلت: «لا، لابد أن خطبًا ما قد وقع».

لم أنطق بشيء وبقيت صامتة إلى أن أخذ المحار في الارتفاع ببطء بقواقعه المحملة باللؤلؤ ثم بدأ بتسلق ساقي وذراعي. قلت: «لابد أن إحدى الزرقاوات حزينة. كما تعلم تقع الحوريات في الحب طالما هي زرقاء. لابد أن إحداها وقعت الآن في الحب، في حب صياد أو... ربما بحار..». أردفت، «أنا راحلة. أنا حقًا راحلة. إنه لمن النادر جدًا أن ينادوك من داخل البحر. من أعماق المياه الخضراء..».

ضحك بصمت، في صمته هو، في ضجيج البحر ونحيب المحار...

أذكر ضحكته، تلك الضحكة التي أصبحت جزءًا من الأمور التي بدأت تنجلي لي يومًا بعد يوم. ربما كان على علم بكل شيء وكان يضحك مني. ربما كان مندهشًا وربما ضحكته تلك كانت ضحكة الحنين إلى الوطن، ضحكة رجل بحر وقع على اليابسة.

غادرنا معًا. هناك أنا وهناك هو ببزته البحرية البيضاء وقواقع صغيرة وكبيرة وطحالب بحرية عالقة في

سيقاننا وأذرعنا وسمكة نجمية أخذت ترفرف بأذرعها الملونة وتنوح.

مضينا بعيدًا لنجد إحدى الزرقاوات تنتفض من الحمى وقد شارفت الموت وتناثر القار على شعرها الأزرق وفاح جسدها برائحة الزيت وترددت أنفاسها بحفيف صاخب. كانت عيناها نصف مفتوحتين ولم يكن بمقدورك أن تحمل نفسك على النظر إليها فلو فعلت ورأيت تلكما العينين الملطختين بالزيت لشعرت برغبة عارمة في البكاء ولما تمكنت...

غمرت رائحة الزيت المكان وبدأت ذكرى البحر تضمحل شيئًا فشيئًا في عقول الزرقاوات وأخذن يرتعشن بعنف ويتحولن إلى اللون الأحمر أمام ناظري ذلك البحار الشاب وأمامي.

قلت: «يا إلهي، رأيت ذلك؟ منذ الآن سيكون البحر عاصفًا على الدوام فالحوريات يتحولن إلى اللون الأحمر». «وأكملت، منذ الآن سيكون البحر مظلمًا دائمًا وسيبزغ القمر بآمال الزرقاوات. والآن انظر، انظر بنفسك..».

بقي صامتًا وهو ينظر إلى إحدى الزرقاوات وهي تصارع الحمى وقد التصق القار بشعرها وفاح جسدها برائحة الزيت.

قلت: «أسماك القرش هي التي تسببت بذلك. إنه من فعل أسماك القرش». ثم جعلت أبكي وأبكي حتى الصباح

وعندما خرجنا من الماء كانت الشمس قد أشرقت وكنا نحن جالسين على المنحدر الصخري. كنت مستمرة في البكاء أما هو فقد كان مستغرقًا في تفكير عميق وقد أجفله بكاء الزرقاوات.

أخبرته بأن بكاءهن هو ما جعل مياه البحر ترتفع بذلك الشكل المخيف حتى أوشكت على أن تغرق الميناء وأن تغرق بوشهر.

كان ما زال مستغرقًا في تفكيره العميق وهو يتنهد. في أعماق عينيه شيء لا يمكنني النظر إليه، تمامًا كما حصل في المرة السابقة في هذا البيت بالتحديد عندما قال: «ازرعي شيئًا في الأصيص، شيئًا ما تحبينه».

عندما أوشك الأمر على الوقوع وفي تلك اللحظة ذاتها، كنت أنا هنا في طهران، في هذه الشقة بعينها ذات الرقم أربعين في الطابق الرابع إلى جوار حديقة القيطرية...أخذ المبنى في الاهتزاز كبارجة حربية تتمايل على أمواج البحر وقد تناثرت الأبواب والجدران كما لو أنها دكت بقذائف صاروخية موجهة بالليزر. بدأت أصص النباتات في الشقة بالاهتزاز وأخذت الصور تتساقط عن الحائط وأصبح بإمكاني سماع أصوات صراخ ونحيب فأدركت بأن أسماك القرش قد أضرمت النيران في كل شيء لتتمكن من التهام البحر. لم يرد شيء عن ذلك في المذياع ولا في التلفاز، فكلمات كتلك دائمًا تموت قبل أن تصل

إلي وتتساقط أشلاؤها حولي. دومًا هناك رائحة تحيط بي، رائحة جثث الكلمات الميتة النتنة: كلمات ناضلت وناضلت لسنين لتصل إلي لكنها لم تفعل.

لقد تلقيت الخبر بطريقة مختلفة: عندما ارتفع الماء إلى نافذتي في الطابق الرابع وبلغتني القواقع الباكية والأسماك النجمية وتناهى إلى سمعي نواح ليس بأرضي - فأنا أميز نواح البشر الأرضيين، إنه شهيق محمل بالغبار، أسود ويفوح برائحة قذارة التاريخ، إنه مضطرب ومدمر كزوبعة عاصفة. كان ذلك النواح هو نواح الزرقاوات وكان أنين بط البحر الذي يمكنك من خلال ألمه البلوري الناعم وأساه أن ترى القمر يتحول إلى الأحمر ثم إلى العتمة والظلام.

«هووووو.... هوووو...».

نهضت وأسدلت الستائر. ارتفعت مياه البحر وغمرت كل شيء، غرقت أشجار القيطرية في المياه ودخلت القواقع عبر النوافذ وزحفت على أبواب المنزل وجدرانه. عندها فقط، عندما رأيت حورية البحر وقد أمست هزيلة غائرة العينين من شدة البكاء وقد تهتك جسدها بشعاع ليزري، عندها أدركت أن كل ذلك كان حقيقيًا وأن كل ما كان يجب أن يحدث في الجانب الآخر قد حدث فعلًا. مددت يدي عبر سياج الشرفة المتشابك فصفعتني أمواج البحر وأحسست باختناق أنفاسي. ارتفعت أمواج البحر حتى بلغت قمة السطح. احتضنت الزرقاء الهزيلة التي أخذت تتنفس

بصعوبة وقد جلست على الأريكة السوداء، الأريكة السوداء نفسها التي جلس عليها البحّار الشاب ذات يوم. جلست هناك وأخذت تبكي...

بدا البحر وقد اشتعل تمامًا. جعلت القواقع والمرجان وحورية البحر تنوح في منزلي وأخذت النوارس تطير وتصرخ بلوعة...

وددت عندئذ أن أراه، أن أرى ابتسامته الطفولية، عينيه الواسعتين الليمونيتي الشكل، خديه الضامرين وشعره الناعم الذي اعتاد دفعه عن جبهته بيده إلى الخلف.... ولكن أين هو؟

الأسماك التي كانت أسماكًا فعلًا، ولأنفاسها رائحة الأسماك، كبيرة وصغيرة، جميعها دخلت عبر النوافذ والسلالم والأبواب. أخذ أصيص نخلة المستنقع في التأرجح والاهتزاز واقتلعت جذورها خارجًا. وعندها رأيت، رأيت بأم عيني سمكة سيلاغو يتجه بعينيه إلى الأصيص - عينين واسعتين ليمونيتي الشكل، عينين اعتادتا التحديق إلى النجوم، النجوم المتلألئة.

بعد أن تراجعت مياه البحر وبعد أن هدأت حورية البحر ومضت لتلعق جراحها، وجدت نفسي إلى جوار مزهرية خزفية ضخمة وأرض مشبعة برائحة ملح البحر وبحر يعج بأسماك القرش وأسماك قرش أصبحت الآن على اليابسة.

المؤلفة

Moniru Ravanipor

مونيرو راڤانيبور
إيران

كاتبة إيرانية ولدت عام 1956 في بوشهر بإيران. التحقت بجامعة شيراز وتخرجت فيها كأخصائية نفسية. مطلوبة لدى القضاء الإيراني بتهمة المشاركة في مؤتمر برلين العام 2000 والمشاركة في الدعاية المناهضة لإيران. سحبت كتبها عن رفوف المكتبات الإيرانية ومازالت ممنوعة إلى الآن. تعالج مونيرو في كتاباتها ما يواجهه المرء من تعقيدات تفرزها طبيعة الحياة العصرية عندما تصطدم بالتقاليد والأعراف، وقد اشتهرت على مستوى العالم بأسلوبها المبتكر الذي يختلط فيه الواقع اللاذع بالخيال والأساطير. تعمل حاليًا في التدريس بجامعة نيفادا في الولايات المتحدة الامريكية. كتبت للكبار والصغار العديد من الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة ومن أعمالها: كانيزو، قلب من فولاذ ونازلي.

بورتريه أم

His Mother's Portrait

الكاتبة / سلمى لاغرلوف Selma Lagerlöf

في قرية الصيد، لم تختلف المائة منزل بعضها عن بعض حيث كانت تشبه بعضها بعضًا تمامًا في الحجم والشكل ولها جميعًا نوافذ متشابهة العدد ومداخن متشابهة الطول. هناك عاش الطيار العجوز ماتسون.

تحتوي جميع الحجرات في قرية الصيد على أثاث من الطراز نفسه، وعلى عتبات نوافذها تنتصب أصناف الزهور نفسها، وفي كل خزائنها الركنية تقبع مجموعات الصدف والمرجان نفسها، وعلى الحيطان تتدلى الصور نفسها. إنه عرف قديم ثابت بأن يحيا جميع أهالي قرية الصيد الحياة نفسها. بينما كان الطيار ماتسون يتقدم في السن،اهتم بأن يتوافق مع جميع العادات والظروف: فمنزله وحجراته وطريقة حياته كانت كالآخرين تمامًا.

علق العجوز ماتسون على الحائط فوق سريره صورة والدته. في إحدى الليالي حلم بأن الصورة قد خطت أسفل

إطارها ثم وقفت أمامه وقالت بصوت مرتفع: «عليك أن تتزوج يا ماتسون».

عندئذ أخذ العجوز يوضح لوالدته استحالة ذلك فهو يبلغ السبعين من العمر. إلا أن صورة والدته أخذت تردد فقط ولكن بحزم أكبر: «عليك أن تتزوج يا ماتسون».

يكنّ العجوز ماتسون عظيم الاحترام لصورة والدته فقد كانت المستشار الأمين في كثير من المناسبات المحيرة. وكان يحسن التصرف بانصياعه الدائم لنصائحها. إلا أنه لم يتمكن هذه المرة من فهم تصرفها تمامًا. لقد بدا له أن الصورة تتصرف ضد آرائها المعروفة له. بالرغم من أنه كان يحلم وهو نائم، إلا أنه تذكر بدقة ووضوح ما حصل في المرة الأولى التي تمنى فيها الزواج. فبينما كان يرتدي حلة الزفاف، انخلع المسمار المثبتة عليه الصورة وسقطت على الأرض. أدرك عندئذ أن الصورة تحذّره من هذا الزواج إلا أنه لم يستمع إليها. اكتشف بعدها وبشكل سريع أن الصورة كانت محقة فحياته الزوجية القصيرة كانت تعيسة جدًا. وفي المرة الثانية التي ارتدى فيها حلة الزفاف حدث الشيء نفسه. لقد سقطت الصورة على الأرض كالمرة السابقة إلا أنه هذه المرة لم يجازف بعصيانها. لقد هرب من العروس ومن الزفاف وسافر حول العالم عدة مرات قبل أن يجرؤ على العودة إلى بيته. والآن تنزل الصورة عن الحائط لتأمره بالزواج!

لكنه كان طيبًا ومطيعًا وسمح لنفسه بالاعتقاد بأن الصورة تسخر منه. إلا أن صورة والدته وقفت هناك ونظرت

إليه بأكثر ما يمكن أن تنحته الرياح العاتية وزبد البحر من تجهم على وجهها وبصوت متمرس استمد قوته من عرض السمك في سوق البلدة لعدة سنوات، كررت: «يجب أن تتزوج يا ماتسون».

طلب العجوز ماتسون من صورة أمه مراعاة المجتمع الذي يعيشون فيه.

جميع منازل قرية الصيد المائة كان لها سقف مستدق وحيطان بيضاء. وجميع المراكب لها البناء نفسه والتجهيز نفسه. لم يأت أي منهم بفعل غير معتاد. لو كانت أمه على قيد الحياة لكانت هي أول من عارض هذا الزواج. لقد سيطرت العادات والأعراف على والدته، وزواج الرجل السبعيني لم يكن من عادات القرية ولا أعرافها. مدت صورة أمه بيديها ذواتي الخواتم بحزم وأمرته بالطاعة. شيء ما كان دائمًا يوقع الرهبة في نفسه عند ظهور والدته في ثوب حريري أسود متموج. البروش الذهبي الكبير اللامع والقلادة الذهبية المجلجلة. كانا دائمًا يخيفانه. لو أن والدته ارتدت لباس السوق وغطاء الرأس المخطط والمئزر الزيتي المغطى بحراشف السمك وعيونها لما أحس بالرهبة إلى هذا الحد. في النهاية قدم وعده بالزواج. عندئذ فقط زحفت صورة والدته إلى الإطار مرة أخرى. في الصباح التالي استيقظ العجوز ماتسون باستياء شديد. لم يجل بخاطره قط أن يعصي صورة والدته فهي دائمًا أدرى بما هو أفضل له. إلا أنه ارتعد عند اقتراب الموعد.

في ذلك النهار نفسه عرض العجوز ماتسون الزواج على أقبح ابنة لأفقر صياد في القرية. مخلوقة ذات رأس يتدلى بين كتفيها وفك سفلي ناتئ. أجاب الوالدان بنعم وتم تحديد اليوم الذي سيذهب فيه إلى البلدة ويوزع بطاقات الدعوة.

يمرّ الطريق من قرية الصيد إلى البلدة خلال المستنقعات العاصفة ومراعي البقر الموحلة ويبلغ طوله الميلين. هناك تقليد لدى سكان قرية الصيد بأنهم من الثراء لدرجة أنه من الممكن لهم أن يرصفوا هذا الطريق بالعملات المعدنية اللامعة. لقد أعطى هذا التقليد للطريق جاذبية غريبة. يمر الطريق المتلألئ كبطن السمكة بحراشفه البيضاء خلال كتل البردي والبرك الغاصة بحشرات الماء والضفادع الكئيبة. ينعكس الأقحوان وزهور اللوز التي زينت تلك الأرض المهجورة على القطع الفضية اللامعة. مدت الشجيرات أشواكها ووجدت الريح لوحًا صوتيًا رنانًا عندما تلاعبت بسقوف حظائر الأبقار القشية وأسلاك الهاتف.

تمكنه من المرور بحذائه البحري الثقيل ذي العنق الطويل فوق القطع الفضية الرنانة لربما منحه بعضًا من الراحة خصوصًا وأنه سيضطر إلى عبور هذا الدرب أكثر مما يحب.

ولأن صحافه لم تكن نظيفة فإنه لم يتمكن من طبع الدعوات وهذا بسبب هروبه من عروسه سابقًا. لقد استغرق رجل الدين بعضًا من الوقت قبل أن يكتب إلى المجلس

الكنسي للحصول على الموافقة على عقد زواج جديد له. طوال مدة الانتظار هذه، كان العجوز ماتسون يمضي إلى البلدة أسبوعيًا، يجلس بالقرب من باب حجرة القس في ترقب صامت حتى ينتهي دور الجميع، ثم ينهض ويسأل رجل الدين إن كان لديه أي شيء يخص موضوعه. لا، لم يكن لديه شيء. تعجب القس من قوة الحب التي تملكت ذلك الرجل العجوز. جلس هناك بقميصه المحبوك الثقيل وحذائه البحري ذي العنق الطويل ومعطف مطر قد ترك الطقس أثره فيه، وبوجه حاد ذكي وشعر رمادي طويل منتظرًا الترخيص له لعقد الزواج. أخذ رجل الدين يفكر في غرابة أن يتملك هذا العجوز كل هذا الاشتياق العارم.

«أنت على عجلة لإتمام هذا الزواج يا ماتسون». قال القس.

«أوه نعم، من الأفضل إتمامه بأسرع ما يمكن».

«ألا يمكنك التخلي عن الموضوع برمّته؟ ماتسون أنت لم تعد شابًا».

لا ينبغي لرجل الدين أن يكون متفاجئًا لهذه الدرجة. إنه يعلم أنه كبير جدًا ولكنه مجبر على هذا الزواج. لا مفر من هذا الأمر.

وهكذا أخذ يأتي أسبوعًا بعد آخر ولمدة نصف عام إلى أن صدرت الموافقة أخيرًا.

تعرض العجوز ماتسون طوال تلك الفترة للاضطهاد.

فحول مواضع التجفيف الخضراء، حيث تعلق شباك السمك البنية، على امتداد الجدران الإسمنتية المجاورة للمرسى، على طاولات السمك في السوق حيث يباع القد وسرطان البحر وبعيدًا من بين أكياس سمك الرنجة، اندلعت عاصفة من الدهشة والضحك.

«هكذا إذن سيتزوج ماتسون الذي هرب من زفافه».

لم ينج أي من العروسين من ذلك.

ولكن كان أسوأ شيء بالنسبة إليه هو أنه لا يمكن لأحد أن يضحك على هذا الموضوع أكثر منه. كانت صورة وجه والدته تقوده إلى الجنون.

عصر أول يوم لطلبه ذلك، اتجه ماتسون الذي كان مازال ملاحقًا بالحديث والتساؤلات، إلى المنارة البيضاء ليكون وحده. وجد هناك خطيبته، جالسة تبكي فسألها إن كان هناك شخص آخر تحبه أكثر. جلست ونزعت قطعًا من الهاون من حائط المنارة البيضاء وقذفته في الماء ولم تجب بشيء في البداية.

«أليس هناك أحد تحبينه؟»

«أوه لا. طبعًا لا».

كان المكان إلى جانب المنارة البيضاء جميلًا جدًا فالدوامات الصوتية للمياه الصافية والشاطئ المنخفض ومنازل قرية الصيد ذات الشكل الموحد والبلدة القاصية،

كلها تسطع في جمال أخاذ. من خلال الضباب الناعم الذي لف الأفق الغربي يمر مركب صيد من وقت لآخر ثم ينعطف بجرأة باتجاه المرسى وينفذ من خلال مدخله الضيق وسط هدير المياه المرحة. في اللحظة نفسها يهوي الشراع بصمت. أخذ الصيادون بالتلويح بقبعاتهم في تحيات مبتهجة بينما تتلألأ غنائمهم في قاع المركب. حين وقف العجوز ماتسون إلى جوار المنارة، دخل مركب إلى المرفأ. رفع شاب كان يجلس عند ذراع المقود قبعته وأومأ للفتاة. لقد لمح العجوز وميض عينيها.

«حسنًا»، أخذ العجوز يفكر، «هل وقعت في حب أجمل شاب في قرية الصيد؟ نعم، لن تحصلي عليه أبدًا. بإمكانك أن تتزوجيني كما هو بإمكانك أن تنتظريه». ارتأى أنه لم يعد ممكنًا له الآن الفرار من صورة وجه أمه فلو أن الفتاة اهتمت بأحد وكان هناك احتمال بأن تحصل عليه لوجد دافعًا جيدًا للتخلص من الموضوع برمته. أما الآن فلا جدوى من إطلاق حريتها.

بعد أسبوعين تم الزفاف وبعد أيام قليلة جاءت عاصفة نوفمبر العنيفة واجتاحت أحد مراكب قرية الصيد. لم يكن للمركب دفة ولا صوارٍ مما جعل السيطرة عليه غير ممكنة. كان العجوز ماتسون وخمسة آخرون على متن ذلك المركب الذي جنح بهم لمدة يومين بلا مؤونة. عندما تم إنقاذهم كانوا في حالة يرثى لها من الإعياء والجوع والبرد. غمر الجليد كل ما في المركب وتصلبت ملابسهم المبتلة.

أصيب العجوز ماتسون بالبرد حتى أنه لم يتعاف بعد ذلك بتاتًا، لم تتحسن صحته قط. لازم فراش المرض حتى حانت ساعته.

فكر الكثيرون في غرابة أن تواتيه فكرة الزواج فقط قبيل مغامرته التعيسة تلك فقد تلقى الرعاية الجيدة من تلك المرأة الصغيرة. ماذا كان ليفعل لو استلقى هناك وحيدًا بلا عون؟ لقد عرفت قرية الصيد الآن أنه لم يقدم على شيء أكثر منطقية من زواجه. أما تلك المرأة الصغيرة فقد حظيت بالكثير من الاهتمام لما أسبغته على زوجها من رعاية وحنان.

«لن تجد مشكلة في الزواج مرة أخرى». قال الناس.

في كل يوم من أيام رقاده على سرير المرض، أخذ العجوز ماتسون يردد لزوجته قصة الصورة.

قال: «كما ستأخذين كل شيء يخصني، عليك أيضًا أخذ تلك الصورة».

«لا تتحدث عن تلك الأمور».

«وعليك الإصغاء إلى صورة أمي عندما يتقدم الشبان لخطبتك. حقيقة ليس هناك في قرية الصيد كلها من يفهم الزواج أفضل من تلك الصورة».

المؤلفة

Selma Lagerlöf

سلمى لاغرلوف
السويد

ولدت الكاتبة عام 1858. عملت في التدريس لفترة ثم تفرغت للكتابة والتأليف. تحول الكثير من أعمالها إلى أفلام سينمائية. تعتبر من أهم رموز السويد وقد طبعت صورتها على العملة السويدية. تميزت كتاباتها بالمثالية النبيلة والإدراك الروحي والخيال المفعم بالحياة. فازت بجائزة نوبل للأدب وكانت أول امرأة تحصل على هذه الجائزة إضافة إلى العديد من الجوائز الأدبية الأخرى والألقاب الفخرية. توفيت عام 1940. ترجمت العديد من كتاباتها من اللغة السويدية إلى لغات مختلفة. من أهم أعمالها كتاب للأطفال عنوانه (مغامرات نيلز الرائعة) إضافة إلى الكثير من الأعمال الأخرى مثل: القدس، ملحمة غوستا برلنغ والمنبوذ.

تقشير اللوز

Shelling Peanuts

الكاتبة / ايفون فيرا Yvonne Vera

«احتموا! احتموا!»

تراكض الفتيان في الشوارع والساحات حاملين بنادقهم الرشاشة وآخذين في تصويبها وإطلاق النار من خلال الأسوار النباتية صارخين إذ هم ينخفضون أرضًا لينهضوا مرة أخرى ويواجهوا الآخرين. رسموا على وجوههم أكثر التعابير وحشية متظاهرين بأنهم قساة بلا رحمة. أخذوا في الصراخ وإصدار أصوات شبيهة بالطلقات المتفجرة. أما الفتيات فقد بقين يشاهدن ذلك وهن يتضاحكن في سرور بينما تدحرج الصبية على الأرض واختبأوا خلف الأعشاب العالية والصخور التي خيل إليهم أنها ستحميهم.

«إنك تغش. لقد قلت احتموا! لكنك ظللت تركض. أنت لا تعرف كيف تلعب بشكل صحيح. عندما أقول احتموا فعليك أن تنخفض أرضًا وتختبئ. هذا يعني أنني سأطلق النار على العدو وإلا سيطلق العدو النار علي».

«علينا أن نبدأ من جديد. ولكن نحن بحاجة إلى عدد أكبر من الناس لنجعل اللعب أكثر إثارة. دعونا ننادي الفتيات للانضمام إلينا فعندئذ سيكون لدينا فريقان».

«الفتيات لا يجدن القتال كما أنهن يبكين إن دفعتهن. لا أعتقد أنه من الجيد دعوة الفتيات للعب معنا».

«ولكن ليست كل الفتيات كذلك. ريبيكا لا تبكي. فلنناديها للعب معنا وعندئذ سنصبح أربعة».

«لقد أخبرتني أمي بأن بعض النساء قد شاركن في الحرب فحملن بنادق ضخمة وقاتلن إلى جانب الرجال. كما أن عمي أطلعني على صور لنساء قتلن على أيدي الجنود في الحرب في العهد الإفريقي. هذا يعني أنه يتوجب علينا أن نستدعي الفتيات للانضمام إلينا».

حسنًا إذن. لكن لنقرر أولًا كيف سنلعب. أنتما الاثنان ستكونان الجنود أما أنا وريبيكا فسنكون المتمردين. في البداية عليكما أن تطلعانا على مطالبكما التي سنرفضها بعد ذلك ثم تبتعدان عنا لنثير نحن القتال. إن نجحنا في إطلاق النار عليكم ولم تقولا احتموا فستصبحان أسيرين. علينا أيضًا أن نتخذ خوذًا من ورق الموز وأن نصبغ وجوهنا بالألوان. ما هي مطالبكم؟»

«نرغب في المزيد من المال، ونود لو نعرف لم لا تطبعون بآلاتكم ما يكفي من نقود للجميع؟»

جلست الأم في الظل ترقب الفتيان وهم يتحاورون ويقررون. ارتعش خداها قليلًا إلا أن الدموع كانت قد نضبت في عينيها فتمسكت بقوة بإبر الحبك بين ساقيها الممدودتين. على أحد جانبي الحصيرة كانت هناك سلة من اللوز غير المقشر. شعرت بانزعاج وهي تشاهد ابنتها تنضم إلى الفتيان للقتال معهم على نطاق سيطرتهم. هل يعقل أن الفتاة تسير على خطى والدها؟ إنهما لم يتقابلا قط: الأب والابنة.

«احتموا! احتموا!» صاحت ابنتها. وضعت الأم الإبر جانبًا والتقطت سلة اللوز وطوت ساقيها تحتها وبدأت بتجرع ذكرياتها المؤلمة. عندما تحرك ظل الشمس قليلًا، نهضت لنقل حصيرتها إلى الجانب الآخر من الشجرة.

«أنت ميت! أنت ميت!» اخترقت صيحات الصغار الهواء وهم يندفعون إلى السياج مثيرين وراءهم سحائب من غبار بأقدام عارية تتراءى بين الظلال.

عادت المرأة بذاكرتها إلى الوراء لتتذكر ذلك الوجه ولتتخيل ذينك المنكبين العريضين والعضلات المفتولة فشعرت بالخوف. وجه رجل لم يكن يكبرها كثيرًا في السن. ترى ما هي فاعلة الآن وهي تحمل طفله في أحشائها؟ لقد أخبرها أنه يتعذر عليه البقاء وأنه قد أتم استعداده للرحيل. لم يخطر بباله قط أن الظروف قد تتغير في يوم ما؟ وأن هناك طفلًا في الطريق؟

«لقد أصبتك! أنت ميت... توقف عن الغش».
صاحت ريبيكا بسخط. لم يسع الصبي إلا أن يضحك ويقفل راجعًا متظاهرًا بالغضب ثم يبدأ بإطلاق زخم من الرصاص تجاهها. تناهى إلى سمع الأم صراخ ابنتها ثم تلته نبرة الدفاع في صوت والدها وهي تستعيد تلكم الذكريات.

«عندما أعود، سنبدأ من جديد». قال لها.

«عندما تعود؟» رددت. «وهل ستعود؟»

نكس رأسه فرأى بنطاله الممزق عند الركبة.

«على كل من لا يملك عملًا أن يغادر فهناك سنجد أعمالًا لنا». لم يكن يقصد مكانًا بعينه وهو يقول ذلك بل ربما مجرد حيز من الأرض في ساحة معركة يبسط عليها شيئًا من سيطرته.

«وماذا أنا فاعلة؟». سألته وهي تتطلع إلى عينيه، «لوحدي؟»

«احتموا! احتموا!». أخذ الصغار في تصويب طلقاتهم المعدنية على الأسطح.

«سنقضي عليك!» صاحت الفتاة.

انزعجت الأم ولم تعد قادرة على تقبل نبرة الحزم في صوت ابنتها لذا فكرت أن تستدعيها وتبعث بها إلى السوق أو أن توكل إليها بعضًا من المهام المنزلية النسائية. لمحت

ساقي الابنة وهي مختبئة في ظل إحدى الأشجار، ثم شاهدت صبيًا يعدو خلفها وبيده قنبلة رمانية.

«استسلما» صاح الصبي في الاثنين اللذين يناضلان خلف الشجرة. أغمضت الأم عينيها لتسترجع ذلك الوجه المفقود.

يوشك الرجل الواقف هناك على المغادرة لكنه ظل ينظر إلى المرأة التي سيراها للمرة الأخيرة. ربما من الأفضل لها أن تقول أو تفعل شيئًا لحثه على البقاء. البقاء معها إلى الأبد وليس ليوم واحد فقط. ولكن ما عساها أن تقول؟ لقد جاءها وقد اتخذ قراره. لا يمكنها أن تغير شيئًا ليس في متناولها. إلا أن الرجل خلف شيئًا منه معها وعليها أن ترعاه في أحشائها. حدق الرجل في المرأة. يود لو يلمسها للمرة الأخيرة لكنه أرادها أن تأتي هي إليه وأن تسلمه نفسها لكنها لم تكن لتفعل ذلك لذا فقد غادر.

نهض الموتى وساروا في طريقهم. تراكض الصغار في حلقات تحت شمس الظهيرة وقد أنهكهم اللعب. أخذوا يضحكون بعضهم على بعض وعلى تلك الأدوار السخيفة التي لعبوها. قشرت الأم اللوز ووضعته في سلة مثبتة بين ركبتيها. انسحب الصغار كل إلى عالمه واستلقوا في ظلال الأسيجة لاسترداد طاقتهم.

«أنت ميت! أنت ميت!» وهكذا انتهت اللعبة وأخذ الصغار الآن في السخرية من تلاشي خيالاتهم العجيبة.

رحبت الأم بذلك الهدوء الذي أعقب اللعب. عرفت أنهم سيقفزون مرة أخرى في حماسة إن خطرت ببالهم لعبة جديدة، لذا فقد استدعت ريبيكا وأرسلتها إلى داخل المنزل ومعها اللوز المقشر.

المؤلفة

Yvonne Vera

ايفون فيرا
زيمبابوي

ولدت الكاتبة في زيمبابوي عام 1964 حيث درست ثم عملت كمعلمة للأدب الانجليزي. في عام 1987 سافرت إلى كندا حيث تزوجت ودرست بجامعة يورك بتورونتو وحصلت منها على درجة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه. عادت إلى مسقط رأسها لتعمل كرئيسة للمتحف الوطني وذلك عام 2004 ثم عادت إلى كندا حيث توفيت عام 2005 إثر إصابتها بالإيدز. تميزت بأسلوبها العاطفي الغنائي وتناولها لقضايا المرأة بجرأة وتعمق إضافة إلى اهتمامها بطرح المشكلات التي تواجه مجتمع زيمبابوي. كتبت أعمالها باللغة الإنجليزية ثم ترجمت إلى عدد من اللغات الأوروبية كالإسبانية والايطالية والسويدية. طبعت عددًا من الروايات منها : نيهاندا، بدون اسم، تحت اللسان واحتراق فراشة. كما أن لها مجموعات قصصية قصيرة.

مايا ديفي
في رحلتها المقدسة إلى لندن
Mayadevi's London Yatra

الكاتبة/بلبل شارما Bulbul Sharma

في اليوم الذي بلغت فيه مايا ديفي الثامنة والستين أو السبعين أو ربما الخامسة والسبعين من العمر (في الحقيقة إن عمرها يتغير تبعًا للأحداث وتبعا لحالتها المزاجية) في ذلك اليوم قررت الذهاب إلى لندن. كان ذلك القرار مفاجئًا للجميع إلا أن أحدًا لم يجرؤ على الإفصاح عن شعوره خوفًا من تلك العجوز التي أحكمت قبضتها على كل من بالمنزل بطوابقه الثلاثة. لقد تعلم أبناؤها الثلاثة وزوجاتهم ببطء ومعاناة على مر السنين بأن يخضعوا سريعًا بلا نقاش لكل نزواتها. لم تكن مايا ديفي بحاجة لأن تبرر أي شيء لتلك الأسرة الطيعة الخنوعة، رغم ذلك فقد استدعت أبناءها وأوضحت لهم الأسباب التي تدعوها للقيام برحلة غير اعتيادية كهذه وهي في هذا العمر.

«أريد أن أرى آميت قبل أن أموت».

إنه ابنها الأكبر الذي ذهب إلى انجلترا للدراسة عندما كان في الثامنة عشرة من العمر ولم يعد إلى الهند منذ ذلك الحين. لقد اعتاد أن يكتب لوالدته في اليوم الخامس عشر من كل شهر وأن يرسل إليها المال والعديد من الهدايا الثمينة والعديمة الفائدة بالنسبة إليها، إلا أنه لم يأت قط لرؤيتها فقد كان مصابًا برهاب حاد من الطيران. سافر آميت إلى انجلترا عن طريق البحر عام 1948 ومنذ ترجل هناك بعد رحلة شاقة عانى فيها المرض لم يخط خارج نطاق تلك الجزيرة الآمنة. بالطبع كانت هناك بعض الرحلات المشحونة بالقلق إلى فرنسا وايطاليا التي استخدم فيها إما القطار وإما المركب، إلا أنها كانت رحلات قصيرة. عند اقتراب موسم البوجا(*) في شهر أكتوبر من كل سنة، كان يقدم الوعود إلى والدته بأنه سيغامر ويستقل طائرة للقدوم إلى كلكتا لكن شجاعته لم تسعفه قط ليطمئن نفسه بأنه سيتمكن من فعل ذلك في السنة التي تليها.

«لطالما كان ذلك الولد البائس جبانًا فلم يتمكن يومًا من عبور الشارع إن وقفت بقرة في وسطه وكم أخافته السحالي وكم صرخ من رؤية الجرذان مذ كان في الخامسة عشرة من العمر. سيشعر بالخزي عندما يراني قد أتيت بنفسي إلى عتبة داره حتى لو اضطررت إلى الاغتسال مئات

(*) البوجا: مناسبة دينية هندوسية.

المرات في غانغا(*) بعد عودتي. هذا ما أعلنته العجوز لأبنائها الذين أومأوا برؤوسهم موافقين كما فعلوا طوال حياتهم رغم اعتقادهم بسخافة الفكرة».

ما إن اتخذت مايا ديفي قرارها حتى بدأت بالتخطيط للرحلة وكأنها تخطط لمعركة حربية. أولًا بدأت بالتقدم لطلب الحصول على جواز سفر وتأشيرة دخول إلا أن عملية تعبئة الاستمارات كانت مليئة بالجدل والاعتراضات على تلك الأسئلة الوقحة التي تجرأت الحكومة على طرحها عليها. بعد ذلك مباشرة ابتاعت سجلًا ضخمًا وبدأت بتدوين مخططها خطوة خطوة.

الآن قررت معالجة مسألة اللغة الإنجليزية. رغم أن مايا ديفي لم تذهب يومًا إلى المدرسة إلا أنها تجيد قراءة وكتابة البنغالية بطلاقة تفوق كثيرًا أبناءها المتعلمين العاملين بالمحاسبة. لم تستخدم يومًا اللغة الانجليزية فلم تكن هناك حاجة إلى ذلك رغم أنها تفهم بعضًا من الجمل البسيطة. أما الآن فقد استولت على كتاب ممزق لتعليم الانجليزية يخص أحد أحفادها وفي كل صباح وبعد قراءة البوجا، تضع كتابها المقدس بعناية جانبًا وتقوم بتوزيع الحلويات الطاهرة ثم تبدأ بدراسة ذلك الكتاب القديم المبقع بالمربى. عادة ما تكون فترة الصباح في المنزل وادعة وهادئة إلا أنها أصبحت الآن تضج بدراسة مايا ديفي العجيبة لكتاب

(*) الغانغ: من أكبر أنهار الهند ومقدس لدى الهندوس.

الإنجليزية للمبتدئين فهي تجلس على الأرض القرفصاء وتأخذ في التأرجح أمامًا وخلفًا وهي تقرأ كل سطر مرات ومرات بنغم موسيقي وكأنها ترتل آيات مقدسة، وقد تتوقف فجأة لتسأل بنبرة اتهام، «هل جلب جاك الدلو؟» ثم تجيب. «لا، جين جلبت الدلو». ثم تنهض مرة لتعديل نظارتها وتسند كتابها على صدرها لتسير به في الحجرة وهي تحفظ بالطريقة التي رأت فيها حفيدها وهو يذاكر دروسه. لم يتجرأ الخدم على الاقتراب من منطقة الدراسة بل راقبوها بتوجس وهم واثقون بأنها لا تدرس الانجليزية إلا لتنزل الرعب في قلوبهم بشكل أسوأ.

«في عمرها هذا، يجدر بها قراءة جيتا(*) بدلًا من ترديد جاك - جاك - جاك كالببغاء». يقولون ذلك فقط عندما يكونون بمأمن منها في جناح الخدم.

أثارت تلك الدروس الرعب في نفس الطاهي حتى أنه توقف عن التلاعب في الحسابات خوفًا من أن تكشفه المرأة العجوز وقد تسلحت الآن باللغة الانجليزية، واعتبرت زوجات الأبناء الدروس شيئًا غريبًا فقهقهن في حجراتهن بصوت خفيض ولكن حرصن على رسم الجدية على وجوههن حين يكن قريبات منها. أما الأبناء فقد فضلوا البقاء بعيدًا عنها بعد أن رفضت كل محاولاتهم لمساعدتها على تحسين نطقها للكلمات.

(*) جيتا: كتاب مقدس لدى الهندوس.

«أمضيت ستين عامًا من عمري وأنا أدير هذا المنزل وأدير حياتي دون أن أطلب المساعدة منكم أو من أبيكم، ولا أنوي بتاتًا أن أفعل ذلك الآن». قالت ذلك ثم صرفتهم عنها بتلويحة مهيبة بكتابها الممزق.

وهكذا استمرت الدروس واعتاد كل من بالمنزل تلك الأصوات الغريبة بل إنهم أصيبوا بالعدوى حتى أن الخدم بدأوا يرددون «جاك وجيل» وهم يؤدون أعمالهم. خلال أسابيع قليلة أنهت مايا ديفي كتاب المبتدئين لتنتقل إلى كتب أكثر صعوبة وبدأت الآن بترديد محادثات طويلة لتستمتع بتلك المعرفة الجديدة التي اكتسبتها. وهكذا مع مرور الوقت تشابك كتاب المبتدئين بكتاب علم نفسك الانجليزية في 21 يومًا مع الكتب الأخرى وتشكلت بينهم أكثر العلاقات بؤسًا وفوضى.

«هل ذهبت جين إلى البقالة وحدها؟ لا، السيد سميث ذهب كذلك. السيدة سميث جالسة على مقعد الحديقة مع جاك. هي تدخن غليونًا. كيف حالك يا جاك؟ أنا بخير. شكرًا لك. أين خط الترام؟» رددت بلا حدود حتى حفظت عن ظهر قلب كل الكلمات الموجودة في كل الكتب وحفظها معها كل من بالبيت.

بقي الآن ثلاثة أشهر على موعد المغادرة فانتقلت مايا ديفي إلى المرحلة التالية من استعداداتها لرحلتها المقدسة كما تدعوها الأسرة ـ من خلف ظهرها طبعًا.

«الآن سأنتعل الحذاء». أعلنت ذلك وأمرت أبناءها بإحضار زوج من حذاء الكانفاه الأسود وستة أزواج من الجوارب القطنية البيضاء.

اعتادت مايا ديفي السير حافية بالمنزل وفي زياراتها النادرة خارجه كانت تنتعل الخف. استمر الخف الرقم 3 المطاطي الأزرق معها لما لا يقل عن خمس سنين وقد كان يغسل بالماء والصابون يوميًا رغم أنها لم تخرج به إلى الشارع قط. لكن خفها الوفي ذاك لن ينفعها في انجلترا لذا فقد أرغمت نفسها في منظر استشهادي على إقحام قدمها الضئيلة الضامرة في أول زوج تقتنيه من الأحذية. أخذت تتمرن على السير به مدة ساعة في الصباح بعد دروس الانجليزية ثم ساعة أخرى بعد شاي المساء، وجعلت تذرع المنزل جيئة وذهابًا بلباسها الأبيض يرافقها صرير إيقاعي للمطاط وكأنها طائر بلشون أخرق يتهادى بساقيه الممرغتين في الطين. بعد فترة قصيرة أصيبت قدماها بالتقرحات إلا أنها استمرت في نضالها كالمحاربين المخضرمين ولم يسمع منها تأوه البتة. شعر أبناؤها تجاهها بالإعجاب ولكن عن بعد طبعًا ولم يجرؤوا على إطرائها قط فهم يعلمون أنها لا تثق بمن يمتدحها ودائمًا تقول: «قل ما تريد ودع عنك التملق». لذا فقد اعتادوا طلب ما يريدون دون إطراء إطلاقًا.

حين لم يتبق سوى شهر واحد على المغادرة. كتبت مايا ديفي إلى ابنها في انجلترا لتعلمه بخططها فشعر على

الفور بالهلع وأسرع إلى الهاتف لمكالمتها وهو شيء لم يفعله قط طوال الثلاثين سنة الماضية.

«أمي، أرجوك لا تقدمي على هذا الفعل الخطير فدائمًا تتحطم الطائرات أو تخطف إلى ليبيا. الرحلات الجوية ليست آمنة البتة هذه الأيام. انتظري. سآتي حتمًا إلى البيت في موسم البوجا القادم». أخذ يصيح بهستيرية من خلال خط الهاتف الرديء.

استمعت مايا ديفي بصبر ثم قالت: «قد أكون ميتة عندما يحين موسم البوجا. لقد اشتريت التذكرة وسوف تأتي أنت لتحيتي بالمطار واحرص على أن تأتي لوحدك دون زوجتك العملاقة تلك». قالت ذلك ووضعت السماعة بحزم رغم أن صوت ابنها ما زال يتناهى عبر الهاتف.

منذ تلك اللحظة ساد سكون وصمت عبر المحيط إلا أن ذلك لم يزعج السيدة العجوز، بل إنها انتقلت إلى الاستعدادات النهائية لرحلتها المقدسة، فبدأت بزيارة أقربائها واحدًا واحدًا لتعلمهم بنفسها بخطة السفر، وقد اتبعت في ذلك إجراءات محدّدة تشبه الاستعدادات لحفل زفاف والدعوة إليه. كانت زياراتها لهم قصيرة جدًا حتى أنها رفضت المكث لتناول شاي أو مجرد كأس ماء بل كانت تخبرهم بدوافع رحلتها باختصار ثم تغادر سريعًا. فوجئ أقاربها برحلتها الملكية تلك، لكن قدومها إليهم لإخبارهم بنفسها كان أمرًا مفاجئًا أكثر.

«فأس الحرب العجوز تلك بدأت تفقد صلابتها. لقد

غدا رأسها أكثر رقة الآن». قالوا ذلك وهم يشعرون في دواخلهم بالسرور لتنازلها لزيارتهم.

الآن جاء دور الخطوة الأكثر أهمية ففي أحد الصباحات استدعت العجوز أبناءها ورجل الدين الخاص بالأسرة للاجتماع بها، أما زوجات الأبناء والخدم فلم يكونوا مدعوين لذا فقد تناوبوا على التنصت على الباب.

«إن مت هناك أعيدوا جثماني فورًا قبل أن يلوثوه، ثم أقيموا شعائر التطهير واحرصوا على أدائها على الوجه الصحيح». قالت ذلك وهي تركز بنظرة ثاقبة على رجل الدين دون أن يطرف لها جفن مما جعله يرتعد هلعًا وهو يتخيل أنها قد ماتت فعلًا وأنها الآن تراقبهم من السماء.

ما أن أنهت وضع الخطط التي يتوجب عليهم اتباعها، حتى بدأت مايا ديفي بإعطائهم تعليمات مفصلة عن شعائر التطهير التي ستشرع بها بمجرد عودتها.

«سيتوجب علي أن أمضي أسبوعًا كاملًا في التكفير عن ذنبي وعلي أن أطعم البراهميين كما يجب غسل البيت كله بماء غانغا. لذا عليكم جميعًا التأكد أنكم ستحصلون على إجازة في ذلك اليوم». قالت ذلك لأبنائها الذين أدركوا أهمية تلك المناسبة فأومأوا على الفور بالموافقة آملين أن يكون الاجتماع قد شارف أخيرًا نهايته.

تبقى الآن أسبوع واحد على الرحلة. حين قدمت مايا ديفي إلى هذا المنزل وهي في الخامسة عشرة من العمر

جلبت معها حقيبة كبيرة كجزء من جهاز عرسها الثمين وظلت تلك الحقيبة قابعة في ركن مظلم في المستودع لزمن طويل وحان الوقت الآن لاستخدامها فأخرجتها وبدأت على الفور بتعبئتها. ستة أطقم بيضاء من الساري القطني، ست تنانير تحتية وعدد مماثل من القمصان. كنزة صوفية وشال رمادي إضافة إلى حقيبة صغيرة من القماش الأحمر لكتابها المقدس ومسبحتها وعلبة صغيرة لطقم الأسنان. ذلك هو كل ما حملته معها.

«عندما أعود سأتخلص من كل شيء أخذته معي ماعدا الجيتا وطقم الأسنان. لذا ما الداعي لتضييع النقود؟» قالت العجوز.

حزمت الحقيبة وأصبحت جاهزة قبل السفر بخمسة أيام ووضعت كغنيمة مشتهاة بأعلى درجات المنزل فتوجب على كل من يأتي أو يغادر أن يجتازها، رغم ذلك لم يجرؤ أحد على التأفف أو الاعتراض، بل على العكس أخذ الخدم في نفض الغبار عنها كل يوم وجعل الصغار يقتربون منها في رهبة.

وأخيرًا جاء يوم السفر. استيقظت مايا ديفي قبل الفجر واستحمت ثم مضت إلى حجرة الصلاة. ركعت أمام آلهتها وأخذت تهمس: «امنحيني القوة لأجتاز هذه المحنة ولا تقدري لي الوفاة هناك. أعدك بأن أصنع لك حليًا ذهبية جديدة عند عودتي. أرجوك أعيديني إليك سالمة».

مكثت لوقت طويل في تلك الحجرة العبقة برائحة البخور ولم تتحرك إلى أن بدأ الضوء بالتسلل عبر النوافذ، عندئذ نهضت ومضت لتوقظ أبناءها. استيقظ كل من بالمنزل فورًا وبدأوا بالتحرك في أرجاء المنزل رغم أنه لم يكن لديهم الكثير ليفعلوه. نفض الغبار عن الحقيبة عدة مرات وتوجب على الصغار لمس قدم جدتهم كلما مروا بها. أما الأبناء فقد أمضوا الوقت في تصفية حناجرهم والتطلع إلى ساعاتهم.

«هل أخذت كل شيء؟» دمدموا ولكن بصوت خفيض حيث أنه لم يكن في نية أحدهم التأكد من ذلك البتة.

وضعت مايا ديفي ست عبوات من الأرز المنتفش في صرة وملأت الماء في قارورة بلاستيكية تخص حفيدها. هذا هو كل ما كانت مايا ديفي ستتناوله خلال الاثنتي عشرة ساعة المقبلة فهي لا تنوي أن تمس أي طعام «يعلم الإله وحده من لمسه».

مر النهار سريعًا في استقبال الزوار الذين قدموا لتوديعها وقد أعجبوا جميعًا بالحقيبة التي أدهشتهم بخفتها بعد أن أمسكوا بها وحركوها. غادرت الطائرة في الثانية عشرة ليلًا، رغم ذلك كانت مايا ديفي وأبناؤها بالمطار قبل ذلك بأربع ساعات. جلسوا متراصين في وقار وأخذوا الآن في مراقبة ساعة المطار بدلًا من ساعات معصمهم. كم كان الجلوس على تلك الكراسي البلاستيكية صعبًا عليهم فلم يسبق لهم أن قضوا مدة طويلة ومشحونة كتلك مع والدتهم

لذا فقد حرصوا على التناوب على الكرسي المجاور لها لتقاسم ذلك العبء بعضهم مع بعض. كانت مايا ديفي تصدر آخر أوامرها من وقت لآخر ولم يسعهم سوى أن يومئوا موافقين وأن يصفوا حناجرهم مرة أخرى.

أخيرًا تم الإعلان عن الرحلة فرفعت العجوز رأسها وأصغت بعناية. انتابت المشاعر أحد أبنائها على حين غرة فحاول تزويد والدته ببعض الإرشادات المفيدة للرحلة إلا أنها نهضت بهدوء وانضمت إلى طابور الركاب أمام منصة التفتيش. انحنى أبناؤها أمامها واحدًا واحدًا للمس قدمها بصعوبة وقد أثقلت كواهلهم تبعات منتصف العمر ووقفوا هناك كالأيتام وهي تباركهم وتمنحهم ابتسامة رقيقة نادرًا ما ترى على وجهها ثم تختفي عن أنظارهم لتعبر بوابة النطاق الأمني. لم يكن الأبناء قلقين تجاه والدتهم العجوز بقدر ما كانوا متحيرين كيف ستتمكن انجلترا من التعامل معها.

كانت السماء تمطر عند هبوط الطائرة في لندن فقلقت العجوز بعض الشيء حيال قدرتها على السير بالحذاء على الأرض المبتلة. لكن ذلك أمر لا مفر منه، حدثت نفسها بذلك وهي تنظر إلى حذائها الأسود بصرامة وكأنها تأمره بالرضوخ لها. عدلت الساري بعد أن انكمش لاثنتي عشرة ساعة ثم نهضت استعدادًا لمغادرة الطائرة.

كانت قد جلست طوال الرحلة وظهرها مستقيم وعندما عرضت عليها المضيفة إمالة مقعدها إلى الخلف في

وضع أكثر راحة لها، قالت بنبرة حادة: «لم أجلس في ذلك الوضع؟ أنا لست مريضة». فتجمدت على وجهها الجميل ابتسامة كانت على وشك الارتسام.

ومنذ تلك اللحظة عمدت المضيفة إلى تجاهلها إلا أنها لم تتمكن من منع نفسها في كل مرة تمر بها عن النظر إلى ذلك الرأس الغريب المغطى بالبياض. أما الراكبة المجاورة لها في المقعد فقد امتنعت عن التحدث معها حتى من قبل أن يجتازوا جبال هندوكوش، وها هي الآن وقد حرصت على الإشاحة بنظرها بعيدًا عنها. لقد حاولت أن تتودد إليها فساعدتها على ربط حزام الأمان بينما بقيت العجوز واجمة. اعتقدت الفتاة أن ذلك يعود إلى خجلها لعدم قدرتها على الحديث باللغة الانجليزية مما دعاها للمبالغة في التلطف معها. «لقد كان الجميع طيبين معي في الهند رغم فقرهم إلا أنهم يملكون قلوبًا طاهرة». قالت بدفء وهي تردد ما ستقوله عدة مرات بعد وصولها إلى الوطن، عندئذ فتحت العجوز فجأة فمها لأول مرة لتقول: «ولم لا يكونون طيبين؟ إنهم يلعقون أحذية البيض منذ مائتي عام حتى أصبحت تلك مجرد عادة سيئة، تمامًا كالشرب والتدخين».

ذهلت الفتاة فطوال بقائها في الهند لم تقابل أحدًا بهذه الوقاحة. استجمعت نفسها وأوشكت على أن توجه إلى العجوز ردًا قاسيًا إلا أنها أخذت تراقبها وهي تهزّ رأسها بحزم وتضع يديها متعاكستين في حجرها على الطريقة

البنغالية في رفض الطعام أثناء الاحتفالات لتظهر أن رفضها أكيد ولا رجعة عنه. جعلت العجوز ترقب الفتاة المسكينة بحدة وهي تتناول طعامها لدرجة أنها لم تتمكن من إنهاء تلك الوجبة الأوروبية المغطاة بالبلاستيك بعد ستة أشهر من تناول العدس والشاباتي بلا حدود.

تناولت مايا ديفي قبضة من الأرز المنتفش مرة واحدة وارتشفت بعضًا من الماء من قارورتها البلاستيكية. لقد حملت صرة الأرز والماء قريبًا من جسدها طوال الرحلة حتى عندما طلب منها رجال الأمن بالمطار أن تمررها عبر جهاز الفحص، تشبثت بالصرة كما تتشبث اللبوة بأشبالها وقالت: «إن لمستها، سأقذف بها في وجهك وسأتضور جوعًا لاثنتي عشرة ساعة وإن مت، ستتحمل أنت وأربعة عشر جيلًا من ذريتك إثم التسبب بموت امرأة عجوز».

لم يعرف رجال الأمن كيفية التصرف معها رغم تدربهم على التعامل مع الإرهاب، لذا فقد تركوا تلك المرأة العجوز تمرّ بصرتها الخرقاء دون أي تفتيش. في الحقيقة لم تكن مايا ديفي بحاجة ماسة إلى الأرز بل يمكنها البقاء لساعات بلا طعام فقد اعتادت الصوم لأيام كما اعتادت معدتها التضور جوعًا منذ كانت تتبع الحميات الغذائية القاسية في شبابها، رغم ذلك فاجأتها عندما أوشكت الطائرة على الهبوط بقرقرة عالية جعلت مايا ديفي تندهش لهذا التمرد غير المتوقع. ابتسمت الفتاة بلؤم وأخذت تحدث نفسها «تلك الغراب العجوز. كم أتمنى أن

تقضي أوقاتًا سيئة هنا». إلا أنها ما لبثت أن أحست بالذنب فأخذت نموذج الهبوط الخاص بمايا ديفي وملأته لها. بالطبع لم تقل مايا ديفي شكرًا قط وما أن توقفت الطائرة حتى نهضت عن مقعدها ثم سارت بمشية عسكرية في الممر وهي متشبثة بصرة الطعام لئلا يمسها أحد فتتلوث وبالطبع كانت أول من خرج من الطائرة. بعد ذلك تمهلت لتنضم إلى مجموعة من الهنود الذين خرجوا توًا من الطائرة فتتبعتهم عن قرب إلى أن وصلوا إلى منطقة الهجرة وبدأوا بالاصطفاف، عندئذ تجاوزتهم لتقف في أول الطابور. لا يمكن لأحد أن يطلب من امرأة عجوز التراجع إلى الوراء حتى لو فكر أحدهم في ذلك فإن مايا ديفي سترشقه بنظرة ازدراء. ابتسم الشاب الأشقر بلطف من خلف منصة الهجرة رغم أن ذلك يتعارض مع مبادئه وقد تلقى الرد على تلك الابتسامة النادرة بنظرة السمكة الميتة التي تنَعم بها عدد لا يحصى من رجال كلكتا ونسائها، كبارًا وصغارًا، وبدون سبب واضح شعر الضابط الشاب بالارتباك فاستدعى مترجمًا لإنقاذه.

«أنا أتحدث الإنجليزية. تحدث أنت معي الانجليزية». قالت مايا ديفي ذلك بوضوح.

صفى ضابط الهجرة حنجرته ثم قال: «لكم من الوقت تنوين البقاء في المملكة المتحدة؟» وعندما لم ترد أعاد عليها السؤال مرة أخرى ولكن بإضافة «مدام» هذه المرة.

«لا داعي لأن تقول مرة أخرى وأخرى. أنا أجيبك.

أنا أبقى على هذه الأرض لأسبوع واحد فقط. ولا يوم إضافيًا. يمكنك أن تخبر ملكتك فيكتوريا بذلك». قالت مايا ديفي.

ختم الضابط المذهول جواز سفرها بعنف وتركها تغادر بأسرع ما يمكن.

«تلك الطير العجوز لا يمكنها أن تكذب ولا يمكن أن أقبض عليها يومًا في سيلفريدجيز(*). ذلك مؤكد». قال ذلك وهو يضحك بتوتر وكأنه خارج توًا من محنة.

تبعت مايا ديفي المجموعة ذاتها من المسافرين بعد أن ضمنت بأنهم سيحملون حقيبتها في عربتهم. كان ابنها في الخارج بانتظارها وعندما ظهرت أخيرًا لم تعطه أي إشارة بأنها قد تعرفت إليه رغم أنها رأته. لم يجرؤ ابنها ذو الخمسين سنة على رفع يده والتلويح لوالدته وهو طبيب الأسنان الناجح جدًا وعضو الكلية الملكية لأطباء الأسنان، أعرق أندية لندن. سارت تجاهه ببطء وعندما وصلت إليه أخذت تحدق به وكأنه شخص غريب عنها تمامًا. انحنى أمامها بارتباك ليمس قدمها وفي الوقت نفسه حاول المراوغة ليبدو وكأنه يعقد رباط حذائه. كانت مايا ديفي متنبهة تمامًا لهفوات ابنها فجعلت تتفحصه بعينيها وكأنها نسر يوشك على الانقضاض على فريسته عند أقل غلطة.

(*) سلسلة متاجر ضخمة في بريطانيا.

«الآن تشعر بالخجل من لمس قدم والدتك؟ أليس كذلك؟ والدتك التي لم يتبق لها الكثير من الوقت في هذه الحياة والتي تحملت عناء السفر بطول مسافته والصوم لاثنتي عشرة ساعة والجلوس مع جميع أصناف البشر من الهندوس غير الملتزمين. كل ذلك فقط لتراك». قالت باستهجان.

كان آميت، طبيب الأسنان المعروف بحدة ذكائه وصراحته على وشك أن يدافع عن نفسه بكلمات هشة ضعيفة ولكن وقبل أن يتمكن من الحديث، اهتز شيء بداخله وبينما هو ينظر إلى ذلك الوجه المتغضن، أثيرت بداخله الذكريات المخيفة فأخذ يئن بصوت طفولي، «لا، أمي... أنا... هناك الكثير من الناس». جعل يتلعثم بيأس.

الآن وقد أعادته إلى الجو العائلي المعتاد، أمرت مايا ديفي ابنها بحمل حقيبتها وأخذها إلى منزله. لم تقابل الأم ابنها منذ ثلاثين سنة ورغم ذلك أمضيا الوقت في صمت مطبق وهما في طريقهما إلى منزله الذي يتوسط ذلك الحي الجميل ذي الأشجار المرصوفة على جانبيه. لم تسأل الأم ابنها أي سؤال ولم يقدم الابن أي تفسير فهو يعلم أن أمه وبشكل ما تعرف كل شيء عنه وأنها معترضة بشدة على كل شيء. عندما وصلا إلى المنزل، ترجلت مايا ديفي بارتياب وتسللت وكأنها تتوقع أن تكون هناك فخاخ مخبأة في تلك الحديقة الأنيقة. دخلت الأم والابن المنزل وكأنهما

في حداد وعندما خرجت الزوجة من المطبخ لتحيتها اندفعت الدموع من عيني آميت وتنفس الصعداء.

«مرحبًا بك في انجلترا سيدة بانرجي. أتمنى أن تكوني قد استمتعت بالرحلة». قالت مارثا زوجة آميت بابتهاج.

تطلعت مايا ديفي من خلال أعلى نظارتها إلى كنتها ذات الطول الفارع والبنية العريضة لثوان بدت طويلة ومزعجة ثم قالت: «أرغب في غسل يدي. كل شيء قذر جدًا». ارتسمت علامات الدهشة على وجه مارثا اللطيف لوهلة لكنها ما لبثت أن ابتسمت وقالت لحماتها: «تعالي معي لتري حجرتك وبعدها يمكننا تناول كوب لذيذ من الشاي. أتمنى أن تعجبك الستائر التي وضعناها لك. آميت لا يعرف لونك المفضل لذا فقد اخترت لك اللون الأزرق».

وهكذا استمرت مارثا في التودد والحديث وصوتها ينضح عاطفة صادقة تجاه تلك العجوز التي تقابلها للمرة الأولى. بينما أخذت والدته تتفحص الحجرة، اختبأ آميت وراء زوجته الضخمة وكلما اقتربت من والدته انكمش فزعًا فهو يعلم ما سيحدث إن لمستها مارثا بدون قصد.

«هل تشعرين بالبرد؟ ربما يحسن بنا رفع مستوى التدفئة المركزية». سألتها مارثا وقد شعرت فجأة بالبرد.

رغم أن مايا ديفي كانت ترتجف في الساري القطني إلا أنها قالت: «لست باردة. أغسل يدي فقط. قذرة جدًا».

أخذتها مارثا فورًا إلى الحمّام الذي زينته بعناية بالنباتات المدلاة والسجاد الزغبي. صفقت مايا ديفي الباب في وجه مارثا الباسم وبدأت بغسل يديها. أولًا بدأت بغسل الصنبور بشكل كامل ثم رشت الصابون بالماء رغم أنه كان جديدًا وأخيرًا جعلت تغسل يديها بريبة لأربع مرات متتالية، وبعد أن انتهت أغلقت الصنبور بمرفقها حتى لا تضطر إلى لمسه مرة أخرى. أخذت تحرك يديها في الهواء لتجفيفهما وهي تنظر شزرًا إلى تلك الفوط الجميلة الموردة التي وضعتها مارثا لها، ثم خرجت بحثًا عن ابنها.

«كيف يتسنى لي أن أستحم في ذلك المستنقع الذي تدعوه حمامًا؟ لم وضعت فيه السجاد؟ لتغطي أرضه القذرة؟» قالت بعنف وقد شعرت بالسعادة لأنها سرعان ما وجدت شيئًا تتذمر منه.

«أمي.. قد تسمعك». قال وهو ينظر بقلق تجاه المطبخ رغم أنهما كانا يتحدثان بالبنغالية.

«لابد أنك متعبة. لم لا تتناولين الأرز الذي أعددته لك ثم تذهبين للنوم؟» اقترح عليها ذلك بيأس على أمل أن توافق.

وافقت فعلًا وكم كان ذلك مفاجئًا.

«إن كنت صادقًا فعلًا فلأنك أنت من أعددته». قالت ذلك في تمنع ثم ما لبثت أن تبعته إلى المطبخ.

«أنا من طهوته أمي. إنها لم تلمسه. أنا لا أكذب عليك». ثم احمر وجهه هلعًا وهو يرى مارثا تراقبهما رغم أنه يعلم أنها لم تفهم ما قاله إلا أن مايا ديفي تأكدت بأن تصلها الرسالة برسم أمارات النصر على وجهها. أخرجت أسنانها الصناعية بابتهاج وحدة وجلست لتأكل. أجهزت على وجبتها المكونة من الأرز المطهو جيدًا والعدس البني كالطين. أجهزت عليه بسرعة وصخب وهي تمضغ الطعام بلثتها لتأخذ بعد ذلك الطبق إلى الحوض وتغسله بعناية مرتين. هزّت الطبق في الهواء لتجفيفه ثم وضعته أبعد ما يمكن عن بقية الأطباق والأواني. تلاشت الآن ابتسامة مارثا الودودة وظهرت عليها أمارات الحيرة والدهشة وهي ترقب الماء يقطر من الطبق إلى أرضية مطبخها النظيف اللامع كأرضيات المستشفيات. لم تعرف ما تقول أو تفعل وقد وقف آميت إلى جوارها وقد ارتسم البؤس على محياه متوقعًا بأن القادم سيكون أسوأ.

تركتهما مايا ديفي وذهبت إلى حجرتها وقد أمست الآن راضية بمجريات الأمور. سحبت الغطاء عن السرير ونشرته على الأرض وبعد أن تلت صلواتها استغرقت في النوم مباشرة. لكنها استيقظت في منتصف الليل وجلست على السرير. تسللت أضواء الشارع الصفراء الباهتة عبر النافذة وبدت لها السماء أكثر شحوبًا من أي وقت مضى. تبدو كلكتا بعيدة جدًا. «فليغفر لي الإله. لسوف أعود

عاجلًا». قالت مايا ديفي وقد تملكها شعور بالوحدة لأول مرة في حياتها الطويلة المتنسكة.

مر اليوم الثاني كسابقه سوى أن مايا ديفي قامت بطهو الطعام لها ولآميت. أحس ابنها بالذنب إلا أن عبارة آه، عبد زوجته! إضافة إلى العبق اللذيذ لأطباقه المفضلة التي لم يتذوقها منذ فترة طويلة أجبرته على الجلوس مع والدته وتناول الطعام معها كل مساء بعد عودته من العمل. رغم ذلك لم تتذمر مارثا البتة ولم يجرؤ هو على أن يسألها كيف أمضيا نهارهما، فالإجابة على أي حال كانت ظاهرة نظرًا إلى ما طرأ على وجهها المبتهج دائمًا من آثار التعاسة. أمضت مارثا ومايا ديفي يومهما في الدوران في أرجاء البيت كبطلين محتجزين في خاتم، تتجنبان الالتقاء وفي الوقت نفسه تراقب كل منهما ما تفعله الأخرى. تصغي العجوز بينما تؤدي كنتها مهامها المنزلية ثم تتسلل خارجًا بعينين تشعان كجهاز ليزر باحث عن الأخطاء. فتحت الأدراج وأمعنت النظر تحت الأسرة ومرت بأصابعها على عتبات النوافذ إلا أنها لم تتمكن من إيجاد أي غبار أو شباك عناكب كما يحدث في جولاتها التفقدية الأسبوعية بمنزلها في كلكتا. لقد أغضبها ذلك وسبب لها الملل فأمضت نهارها كله في حجرتها في وجوم. لقد حاولت مارثا من وقت لآخر تقديم اقتراحات متوددة إلا أنها كانت في كل مرة تقابل بحائط صلب من الصمت والصد فكانت مايا ديفي تغلق عينيها بشدة وتتظاهر بأنها ترتل صلواتها في

كل مرة تأتي فيه كنتها إلى حجرتها. لم ترغب قط في الخروج لرؤية المحال أو مشاهدة التلفاز أو شرب الشاي وقد عجزت مارثا عن التفكير في أي أمر آخر يغري العجوز بالخروج. مرت الأيام الستة المتوترة والمغرقة في الصمت ببطء وبدأت مايا ديفي بحزم حقائبها مرة أخرى بابتهاج.

«أشكر الإله أن انتهى الأمر. هذه الرحلة الزرية». أخذت تدمدم.

كان يوم السبت هو آخر يوم في الزيارة وقد تغيب آميت عن العيادة وكم تمنى أن يطرأ أمر مستعجل يضطره إلى الإسراع إلى العيادة، إلا أنه يعلم جيدًا أن تلك مجرد فكرة سخيفة فلا طوارئ في مهنته. لا أضراس محطمة ولا سوس مفاجئ لذا قرر أن يواجه الأمر بشجاعة ويأخذ والدته للتسوق. عرضت مارثا عليه الذهاب معهما فروحها الطيبة ما زالت حية إلا أن آميت أجابها بصوت مقدام «لا. استريحي أنت وسآخذها أنا لوحدي». قال ذلك وكأنه بصدد القيام بعمل رهيب. إلا أن مارثا أصرّت على مرافقتهما لتدعمه بصمت. وهكذا ذهب ثلاثتهم إلى مركز التسوق المجاور وكالمعتاد قابلت مايا ديفي القابعة في المقعد الخلفي كل تعليقاتهم اللطيفة ومحاولاتهم لتعريفها بمعالم لندن بالرفض والازدراء. عندما وصلوا إلى ذلك المبنى الضخم المتلألئ حدثت مشادة كلامية محرجة في موقف السيارات فمايا ديفي ترفض الخروج من السيارة.

«لم يتوجب علي دخول هذا الدكان الكبير؟ ما عساي أن أبتاع من هنا؟» سألت ابنها بعناد.

حدق آميت بيأس في المركز التجاري الهائل بأدواره العشرة وبضائعه الأفضل على مستوى العالم، لكنه لم يتمكن من التفكير في شيء واحد على الأقل يمكن لوالدته شراؤه من هناك.

«حسنًا. بما أننا هنا، دعينا ندخل. يمكنك على الأقل إخبار الجميع في الوطن بما شاهدته هنا. أليس كذلك؟» قال ذلك وهو يبتسم ببلاهة وكأنه يتحدث إلى طفلة.

انحشر ساري مايا ديفي في فجوة بين الدرجات فراحت تصرخ في آميت معتقدة أنه من داس عليه. حرر الساري ثم دخلوا مباشرة إلى ذلك العالم الساحر من الأضواء ومستحضرات التجميل والعطور والملابس الداخلية. توقفت مايا ديفي فجأة وتسمّرت بلا حراك فطوال سنواتها الخمس والسبعين العجيبة لم تر قط عالمًا مثل هذا. المئات من الأضواء الوهاجة تسطع حيثما نظرت، مرايا باهرة ومموهة في طول الأشجار وجدران ذات مصابيح ذهبية. كان هناك على المنصات اللامعة كميات لا تعد ولا تحصى من الأشياء الغامضة الملونة التي لم تتمكن من التعرف إليها وهناك تلك الشرائط الحريرية المدلاة من الرفوف الزجاجية. يا لشكلها العجيب وكأنها زوج من الأكواب. لقد أعجبت مايا ديفي التي لم يسبق لها أن ارتدت أي ملابس داخلية شأنها شأن النساء من جيلها أيما

إعجاب بتلك الزينة الجميلة. انساب إلى أنفها الأريج المتدفق من تلك الزجاجات البراقة الممتلئة بالسوائل السحرية. إنها أجمل وأقوى رائحة شمّتها في حياتها، وهناك جواهر بحجم البيضة وضعت في علب متلألئة بخيوط الذهب والفضة. شعرت مايا ديفي بأنها قد ماتت وبعثت في الجنة سوى أنها لم تكن مع أولئك الذين يفترض أن تكون معهم.

«ينبغي أن تكون بهذه الجنة آلهة وإلهات وليس هؤلاء البشر الشاحبين». همست لنفسها دون أن تحرك ساكنا خوفًا من أن تكون في حلم فعلًا.

فجأة أدركت زوجة الابن ما يحدث للعجوز فأخذت ذراعها بلطف وقادتها عبر الممرات الضيقة الشبيهة بالمتاهة والمتخمة بالبضائع الزاهية وللمرة الأولى لم تجفل مايا ديفي من لمس مارثا لها بل تبعتها في خضوع وكأنها حورية سماوية تقودها إلى الجنة.

«آميت، ربما يجدر بنا شراء كنزة دافئة لها». قالت مارثا لزوجها الذي لم يلاحظ بعد التغيير الذي طرأ على والدته.

توجهوا إلى قسم السيدات حيث انتقت مارثا سترة من الصوف الأزرق الباهت.

«لا، لا. أبيض فقط». همست مايا ديفي وهي لا تزال في سكرتها، وسرعان ما وجدت مارثا سترة زغبية

بيضاء وشالًا أبيض يتماشى معه وقدمتهما للعجوز بابتسامة عذبة. إلا أن هذه الهدية سببت لها صدمة تفوق صدمتها من رؤية ذلك المعرض الضخم بكل بهائه لأول مرة. لقد كانت دائمًا تعطى ما تريد فزوجها الأخير وأبناؤها وعدد لا يحصى من أقاربها اعتادوا منحها ما تطلبه لكن أيًا منهم لم يقدم لها هدية قط. لم تعتد عينا العجوز القاسيتان البكاء لكنهما الآن غارقتان في الدموع. تطلعت مايا ديفي من خلال دموعها إلى مارثا وتناولت يدها وصافحتها بالطريقة التي رأتها في كتابها التعليمي.

«فتاة طيبة. حسن جدًا. شكرًا لك». قالت لكنتها وهي تمطرها بكل الكلمات الانكليزية المهذبة التي تعرفها.

بعد عودتهم إلى المنزل، تلاشت لحظات الضعف القصيرة وعادت بصيرة مايا ديفي. لقد عادت إلى طبيعتها الصلبة لكن تغيرًا واضحًا طرأ على سلوكها. حقيقة هي لم تبتسم إلا أن عينيها فقدتا تلك النظرة الجامدة كما بدأت تنادي مارثا باسمها.

في اليوم التالي وقبل أن تغادر مايا ديفي إلى المطار، سمحت لمارثا بإعداد الشاي لها. لقد أدركت الكنة حجم التضحية التي أقدمت عليها العجوز رغم أنها لم تشكرها وهي تضع الكوب أمامها. كانت الرحلة إلى المطار غارقة في الصمت هذه المرة أيضًا لكنها لم تكن رحلة تعيسة ومزعجة كالمرة السابقة. عندما أوشكت مايا ديفي على

المغادرة ربتت على يد مارثا وهي تقول: «عندما أموت، تعالي إلى كلكتا لحضور جنازتي. لا عليك من ابني الأبله. تعالي أنت».

بعد ذلك سارت نحو المنطقة الخاصة بالركاب بعد أن تأكدت من جعل ابنها يمس قدمها على النحو الصحيح. لم تلتفت لتحيتهم مع أنها كانت تعلم أنها قد لا ترى ابنها مرة أخرى أبدًا. لقد كانت تشعر بالرضا لإنجاز مهمتها وتتطلع الآن إلى قضاء سنة كاملة في الاستغفار والتطهر وتقديم الأضحيات لتغتسل من آثام رحلتها المقدسة إلى لندن.

المؤلفة

Bulbul Sharma

بلبل شارما
الهند

كاتبة وفنانة ومحبة للطبيعة ومهتمة بمجال التربية. ولدت عام 1952 في الهند. درست الأدب الروسي في نيودلهي وموسكو. تعمل مع الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة بإقامة ورش الرسم وسرد الحكايات. تنظم المسيرات من أجل الطبيعة وحماية البيئة. تعيش ما بين نيودلهي ولندن. تكتب باللغة الانجليزية وقد ترجمت أعمالها إلى العديد من اللغات الأوروبية كالفرنسية والايطالية والفنلندية. لها الكثير من المجموعات القصصية وقصص الأطفال منها : المرأة المثالية، غضب الباذنجان وقصة رامايانا للأطفال، ولها كذلك رواية أحلام زهرة الموز.

أحلام يقظة

Daydreaming

الكاتبة/نورشمسو ناسوتيون Nursyamsu Nasution

كنت جالسة الليلة الفائتة على الشرفة الأمامية وأنا أتأمل البدر المنير وفكري سابح في عوالم لا حدود لها... انتبهت لوقع أقدام تقترب مني فجأة فرأيت صديقتي تهم بالجلوس إلى جواري. جلسنا صامتتين لوقت طويل ثم تناهت إلى أسماعنا ضحكة عالية لامرأة من الداخل تلاها صوت ذكوري يرد عليها بنبرة خفيضة.

«لم يرَ منذ وقت طويل». ترى من الذي قال ذلك؟ هي أم أنا؟

وكالعادة بادرت صديقتي إلى الحديث ولسبب ما لم يبد حديثها واضحًا تمامًا وكعادتها أيضًا قامت ببتر الحديث وتغيير موضوعه متحدثة عن عملها... عن الحب... عن الفن... عن الماضي... عن أحلامها وهي مبتسمة طوال الوقت وواثقة بأني قادرة على تتبع حبل أفكارها.

بعد ذلك جاء دوري للحديث إلا أن صوتي أيضًا بدا مكتومًا وغير واضح.

«إنني أطوف العالم منذ آخر مرة رأيتك فيها».

«حلمت في إحدى الليالي بأني شاهدت القمر وتطلعت إليه بشوق و... تعلمين كيف يكون الأمر بالأحلام. لا شيء مستحيل فيه... فجأة تدلى سلّم أمامي مشيرًا إلي لأتسلقه وأقابل القمر. عندما بلغت آخر درجة فيه، أقبلت امرأة عجوز ومدت يدها لتحيتي. قادتني إلى صخرة أمام كهف وجلست هي على سطحه المنزلق. بدا واضحًا أنها اعتادت أن تجلس في ذلك المكان للتأمل والتدبر. جلست أمامها القرفصاء دون أن أنبس ببنت شفة.

«ثم وضعت العجوز يسراها على كتفي وأشارت بيمناها إلى الأرض وقالت بصوت رقيق وحازم في الوقت نفسه»، «دققي النظر يا صغيرتي، ماذا ترين؟»

«نظرت إلى الأسفل بلهفة شديدة فلطالما حلمت بهذا الأمر، أن أتمكن يومًا ما من النظر إلى الأرض من علياء. في البدء لم أر شيئًا فقد كان الظلام حالكًا.

«إلا أن المرأة العجوز أضاءت كل الصور واحدة واحدة حتى أصبح كل شيء واضحًا أمامي.

«أول شيء رأيته كان حديقة من الأزهار البيضاء تتمايل على سويقاتها مع هبات النسيم. عبيرها الحلو ألهب العاطفة في عاشقين يمشيان يدًا بيد ويتنعمان بجمال الطبيعة. أخذا يتطلعان من وقت لآخر إلى السماء ووجهاهما يشعان ألقًا وأعينهما تبز القمر في ضيائه.

وعلى مضض ابتعدت بناظري عن ذلك المشهد لأرى غابة كثيفة من الأشجار المعمّرة الضخمة تتلألأ على أغصانها أوراق فضية ببريق ذهبي. أخذت أتطلع إلى الأودية والتلال.

«بدت قمم الجبال في منتهى السكون. يمكنني رؤية شخصين يلتقطان أنفاسهما بعد تسلقهما الشاق.

«انحنيت إلى الأمام لأنظر إلى الأودية ولكن في تلك اللحظة تمامًا مرت أمامي سحابة حجبت عني الرؤية.

عندما تمكنت من الرؤية مرة أخرى، رأيت حقلًا شاسعًا ممتدًا أمام ناظري وصفوفًا من البشر مقبلة من كل الاتجاهات وبأصوات هادرة أخذوا يقرعون الدفوف معلنين ولاءهم لجزيرتهم وهكذا شهدت ذلك التلاقي بين الشعوب.

«لاحظت صديقين يسيران باتجاه البلدة بخطوات متناغمة وضحكات تشفيهما من نصب الطريق. لقد رغبا بشدة في الوصول قبل الظهر ولم يخطر ببالهما أن يتوقفا أبدًا.

في أطراف البلدة رأيت شابًا منهمكًا في صنع تمثال لامرأة جميلة، جمالها لا يضاهيه أي جمال أرضي. قالت العجوز وكأنها قرأت أفكاري: «أنت على حق يا صغيرتي. إن جمال ما يصنعه ذلك الفنان ليس بأرضي. إنه مخلوق من دنيا الآلهة».

ورغما عني أبعدت بصري عن خيالات ذلك الفنان الفتي فرأيت إستادًا رياضيًا ضخمًا تجري فيه المنافسات بين عدد من الرياضيين. كان هناك الآلاف من المشاهدين الذين يتنافسون في النصر حتى أني سمعت هتافاتهم وتصفيقهم.

بعد أن تعبت من متابعة ذلك المنظر، رأيت مشهدًا هادئًا ومألوفًا لأم تتأمل صغيرها وهو نائم. ابتسامة الطفل المطمئنة وهو نائم انعكست على وجه والدته المحبة.

جلس زوجها على الشرفة الخارجية مع ابنهما الأكبر سنًا. أخذ الأب يلقن ابنه ما على الشباب من واجبات فهم «مستقبل الأمة». كان الفرق بين الاثنين مذهلًا فالأب في منتصف العمر وقد جلس منحنيًا وبصره معتم والكلمات تنساب من فمه ببطء، كلمة بعد كلمة... أما المراهق فقد جلس منتصبًا ورأسه عالٍ وعيناه تتوهجان وكأنه مقبل توًا من واحة في وسط صحراء. بدا صبر الغلام نافدًا من حديث والده المتأني فقد كان يتوق إلى كلمات يخمد بها ظمأه.

«لقد رأيت يا صديقتي الكثير من الأشياء الأخرى، حدائق غناء... غابات كثيفة... ووديانًا وتلالًا... بلادًا... شبابًا ـ لا أعتقد أني بحاجة إلى الاستمرار.

«أبحرنا أنا والمرأة العجوز والقمر عبر بحر من الغيوم حتى وصلنا أخيرًا إلى بحر السكون. كان هناك صياد يجدف بزورقه الشجري عائدًا إلى بيته بعد قضاء يوم كامل في الصيد. زاد من سرعته وهو يقترب من الشاطئ حيث نرى

أضواء ترشده إلى بيته. إنه يرى زوجته وطفله وهما بانتظاره بباب المنزل. فقدت السيطرة على مشاعري وأنا أشيح بنظري عن الأرض وأتطلع إلى عيني المرأة العجوز، «لم أكن أعلم أن الأرض بهذا السكون والطمأنينة. كم هو جميل! أريد أن أعود إلى البيت، أرجوك دعيني أذهب». وعندما أوشكت على القفز، كبحت العجوز جماحي ووضعت يدها على كتفي قائلة: «مهلًا يا صغيرتي. لا تتسرعي هكذا. ما زال لدي الكثير لأريك إياه. أود أن أهبك شيئًا من الحكمة. إلى الآن أنت لم تري العالم إلا وهو متألق في ضياء القمر. عندما تظلم الأرض تتضح الأشياء بجلاء. من فضلك انظري الآن وضوء القمر آخذ في الذبول. سيحيط الشحوب العالم إلى أن يلفه الظلام البهيم. لنعد الآن إلى حيث بدأنا. هناك حيث حديقتك الخلابة من الأزهار البيضاء. هل يصعقك ما ترين؟»

«صديقتي. ستفهمين ما أشعر به وأنت ترين ما حل بالحديقة من دمار بعد أن مر بها إعصار التايفون(*). صحت من أعماقي، «الأزهار، أين هي بتلاتك. أين لقاحك، عسلك...» والعاشقان اللذان كانا غارقين في الحب ها هما يتخاصمان بمرارة. أخذ الذكر بتوجيه الاتهام إلى أنثاه بالخيانة لأنها وكأي زهرة تفتحت توًا، جذبت إليها الكثير من النحل غيره.

(*) التايفون: إعصار موسمي.

«صمتت الفتاة بعبوس وتوقف الذكر عن الصراخ ثم رحل تاركًا إياها خلفه.

لم يعد بوسعي التحمل. أشحت بنظري بعيدًا بحثًا عن غابة الذهب والفضة لكني لم أر غير ما خلفته عاصفة رعدية من دمار كارثي. لم يبق هناك غير حطام الأشجار والأغصان المتكسرة.

«وصلنا إلى قمة الجبل. هاهما الشخصان اللذان تسلقا القمة آخذين في الهبوط على عجل. لا شك أن الهبوط أسهل من الصعود، لكن ترى لِمَ يبدوان نافدي الصبر هكذا؟ ترى هل تملكهما هناك بالأعلى شعور بالوحدة لا يطاق.

«لا غيوم هذه المرة لتعيقني عن الرؤية وبإمكاني مشاهدة الوادي بوضوح. إنه يعجّ بالبشر المنهمكين في القتال. كل ما أراه الآن هو الدماء والآلاف من الجثث. إنني لا أسمع الطبول ولا صيحات اللقاء بل صراخ المتألمين ونحيبهم.

«الصديقان اللذان كانا يتضاحكان ويمشيان بوئام، ها هما قد تفرقت بهما السبل، أحدهما على اليسار والآخر على اليمين، وبيأس نظرت تجاه المدينة.

«ترى أي كارثة حلت بفناننا الفتي؟ يمكنك أن تخمن ولا شك. كان تمثال الفتاة الباهرة الجمال واقعًا على وجهه وقد تناثرت أجزاؤه المهشّمة. انتزع الفنان سوطًا من على الجدار وأخذ يرغي ويزبد متوعدًا بأنه سيجد الجاني.

«فجأة سمعت العجوز إلى جانبي تقول: «إنه خطؤك أيها الشاب. لم يوقع أحد تمثالك بل هو عيب في التصميم فأعلاه ثقيل جدًا! أنت من سيتلقى ضربات ذلك السوط. إنك عدو نفسك الذي تبحث عنه...».

توقفت عن سرد قصتي في اللحظة التي لامست فيها يد صديقتي يدي. احتضنت يديّ بين يديها في تفهم، لكن الغريب أني حين نظرت إلى حجري رأيت يدي ما زالت هناك ويد صديقتي ما زالت على ذراع الكرسي.

لكني مضيت في قصتي بشعور متزايد بالإحباط وأنا أصف تغير كل الأشياء الجميلة بشكل كارثي بما فيه ذلك الصياد الذي أخذ الآن في التجديف مبتعدًا عن منزله.

«عندما تركنا الشاطئ، كان ضوء القمر قد خبا تمامًا فعم الكون ظلام دامس. فجأة ظهرت المياه جلية أمامي فقد أضاءتها ومضة من برق وفي اللحظة ذاتها رأيت هناك على صفحة الماء وجهًا شاحبًا كالموت بلا أمل. ثم اختفى وعم الظلام مرة أخرى.

شعرت بعيني تحترقان تحت وطأة الدموع ولم أعد قادرة على الاحتمال. قبضت على ركبة العجوز وأخذت أبكي»، لم؟، أوه، لم على الأمور أن تتبدل هكذا...؟

«وضعت المرأة العجوز يدها على رأسي وكم كانت يدها ضئيلة ولكن ثابتة ـ «لمَ تسألين هذا السؤال يا صغيرتي؟ لم يكون العالم قاسيًا هكذا؟ لمَ لا تدوم الأشياء

على حالها إلى الأبد؟ ألم تعد لديك رغبة في العودة إلى البيت الآن؟»

«تعلمين يا صغيرتي أن بعض الأمور أبدية. الزوال دائم، التغير أبدي، وستنمو الأزهار في حديقتك الخلابة مرة أخرى. صدقيني يا صغيرتي فالظلام دائمًا ما يعقبه الضوء. لم إذن نتذمر إن أعقب الضوء الظلام.

«عودي إلى البيت الآن ولكن إياك أن تبقي حالمة إلى الأبد. إنني لا أحرم عليك الحلم بل احلمي كما تشائين في الليل ولكن وفي كل الأحوال خذي مني هذه الحكمة ـ أبقي عينيك مفتوحتين أثناء النهار.

في تلك اللحظة استيقظت ففتحت عيني إلى أقصى مدى لكني ما لبثت وأن أغمضتهما فقد أعماهما ضوء باهر. بعدئذ أخذت في فتحهما ببطء مرة ثانية. . . .

«منذ ذلك الحين تعلمت أن أبقي عيني مفتوحتين أثناء النهار. ماذا عنك؟

تنهدت صديقتي وقالت: «لقد علمتني بأن أبقي عيني مفتوحتين ولكني الآن أدركت أن علي أن أبقيهما مفتوحتين حتى وأنا أحلم. . .».

كان المنزل غارقًا في الصمت وقد توقفت أصوات الضحك والحديث. نهضنا وسرنا معًا إلى البوابة.

المؤلفة

Nursyamsu Nasution

نورشمسو ناسوتيون
اندونيسيا

ولدت الكاتبة في سومطرة الغربية عام 1921. درست الأدب في كلية المعلمين وعملت في تدريس اللغة الأندونيسية. بدأت بممارسة الكتابة خلال فترة الاحتلال الياباني (1942 ـ 1945). كتبت مجموعة من القصص والقصائد الشعرية وهي عضو في مجلس جاكرتا للفنون. تعتبر أحد أعضاء مجموعة من الكتاب عرفوا بـ(جيل 45).

زهرة حمراء

Red Flower

الكاتبة/بوليت بوجول - اوريول Paulette Poujol-Oriol

تمطى ناغاو على سريره المحبوك من القش. كانت الليلة الماضية ربيعية ومعتدلة، وبقدوم الصباح فاح انتعاش الندى في حصيرته. شعر بجسد زوجته ألوكا الساكن إلى جانبه. إنها مستغرقة في نوم هادئ منتظم وتلكما الشفتان محتفظتان بامتلاء الطفولة. أسقطت النخلة التي زرعها والدها أوراقها الجافة المصفرة ست عشرة مرة منذ ولادتها. كان الجو لطيفًا في ذلك الكوخ ذي النافذة الواحدة وبدا وكأنه قد تكوم على نفسه ليبقي على برودة الليل.

تقلبت ألوكا في نومها. كم هي جميلة زوجته! جسد أبنوسي متألق وردفان بانحناءات الوادي الظليل. نامت وصدرها ملتصق بالحصيرة بعشوائية. إنها مستغرقة في نوم عميق من أثر ليلة الحب تلك.

لكنه في تلك الليلة كان رقيقًا جدًا معها. مع ألوكته. لقد تزوجا قبل خمسة أقمار. خمسة أقمار وهما يمارسان

الحب بقوة وشبق فقد ترك ناغاو كل مشاعر الحب الملتهبة التي تملكته لتتفجر بعنفوان واهتياج.

لقد عرف ألوكا مذ كانت فتاة صغيرة عندما كانت تأتي من القرية المجاورة ثم شاهدها وهي صبية يافعة بالكاد تجاوزت سن البلوغ وهي تتراقص مع رفيقاتها حول الشجرة الكبيرة. سمع ضحكاتها بجوار ضفة النهر عندما كانت تمضي مع نساء القريتين إما لجلب الماء وإما لغسل الملابس الكتانية فغزت قلبه وجلده بشفتيها البنفسجيتين ويضحكاتها الصافية الرقراقة كقطرات المطر وهي تنساب من شجرة الباوباب الضخمة بعد حمّام مطري منعش.

«بني، آن الأوان لاتخاذ زوجة لك». عندما قال له والده ذلك، انحنى أمامه دون أن يجيبه بشيء. والده هو زعيم القبيلة لذا بإمكانه اختيار أي فتاة وهو الشاب الضخم القوي والمحارب الأكثر وسامة بالقرية. لطالما شعر بولاء عظيم تجاه والده إلا أن قلبه وقع بين رجليه حين خيره بين ثلاث أو أربع فتيات لتكون إحداهن زوجة له. منذ طفولته لم يعص لوالده أمرًا بل أطاعه طاعة عمياء لكنه شعر هذه المرة بشيء ما يجثم داخله كصخرة هائلة تضغط على صدره. إنه يشعر بذلك وعليه إن تطلب الأمر أن يدافع عن حبه وأن يحميه من كل ما يهدده. صمد ناغاو على تلك الحال لثلاث سنوات بلا تردد رافضًا كل عروض الزواج إلى أن لان قلب الزعيم العجوز ووافق أخيرًا على ارتباطه بألوكا، تلك الفتاة الجميلة من القبيلة المجاورة.

مر عليهما منذ زواجهما خمسة أقمار. خمسة أقمار من العشق والوله ومن تجسد أحلامه كل ليلة فيها. في البدء كانت ألوكا خجلى ومترددة إلا أن حبها المتوهج أخذ في التزايد كل ليلة حتى تفوقت عليه في ولعها. لكنها في الليلة الفائتة أفضت إليه بسر وهي خجلى. إنها لم تزهر لشهرين مضيا. شهران وداخلها يضم الأمل الجميل بمولود واعد. قريبًا سيكون لهما ولد. ولد، إنه واثق بذلك. ولد سيمد في نسبه، ولد سيصطحبه معه إلى الصيد حالما يترك مرافقة النساء، ولد سيعدّه ليكون هو من يستهل طقوس القبيلة وشعائرها الدينية، ولد سَيمنحه بدوره أبناء آخرين يرفعون رأسه عاليًا حين يبيض شعره.

وستكون محبوبته ألوكا هي من تحمل بذوره وهي من سيفخر بأن تكون أمًا لأبنائه وستكون هي من يدير بيته وهي من سيجدها في بيته في المساء حين يعود محملًا بالغنائم بعد رحلة صيد منهكة في الغابة.

في ذلك الصباح كانت تلك هي الأفكار التي راودت ناغاو الصيّاد الماهر والمحارب الشجاع. شعر بنفسه يذوب وهو يراقب زوجته النائمة محاولًا تتبع آثار الحياة الجديدة التي تنمو بداخلها. لقد أحبها وأحبته تلك الليلة بتحفظ من ناحيتها ومن ناحيته بتوق عذب وحنان لم يصدق بأنه يتصف به. لقد كان حنونًا جدًا معها فضبط نفسه على إيقاع بطيء ناعم. كان خائفًا أن يؤذيها أو يجرحها وبعد انتهائهما جعل يداعبها بلطف لوقت طويل إلى أن استسلمت للنوم بين

ذراعيه ورأسها على صدره. ظل كذلك حتى تقدم الليل فوضعها جانبًا بلطف قبل أن يستسلم بدوره للنوم راضيًا وسعيدًا.

وبالتالي وفي ذلك الصباح استغرق ناغاو المحارب العظيم في أحلام اليقظة. أراد أن يمنح ألوكا هدية، هدية تفشي بمدى سعادته وفخره وامتنانه. لكنها تلقت في زفافهما الكثير جدًا من الهدايا التي تطفح بها الجرة من آلاف الأغراض القيمة التي ميزت زفاف ابن الزعيم. وفي هذا الصباح يرغب ناغاو في أن يذهب بعيدًا ليبحث عن زهرة أوركيد محددة ليهديها إليها. أوركيدة حمراء في حمرة الدم. الزهرة التي طالما تاقت إليها لتزين بها شعرها والتي لا تنمو إلا في أعماق الغابة النائية جدًا. استيقظ ناغاو وطبع قبلة عميقة طويلة على شفتي البنفسج اللتين كانتا تتنفسان بهدوء وسلام.

«نلتقي في المساء، حبيبتي».

خرج ناغاو من الكوخ وهو منبهر بمشهد الفجر البازغ، نثر الماء على وجهه بحماسة ثم أخذ معه قوسه وسهامه وحامل الحراب. بما أنه ماض إلى الغابة بحثًا عن الزهرة، يجدر به أخذ أسلحته فلربما جلب صيدًا ثمينًا معه.

سار لوقت طويل، طويل جدًا قبل أن يصل إلى جدول الماء الضاحك الذي يشكل حدود قريته الصغيرة، وبينما هو يعبرها بدأت القرية بالاستيقاظ لاستهلال يوم

جديد وأخذت الأجواء تعجّ بترانيم الصباح وضحكات الأطفال المستيقظين توًا.

«قريبًا»، جعل ناغاو يحادث نفسه باسمًا. «سأسمع ضحكات ابني بين ذراعي زوجتي». تملك ناغاو شعور بالخير والرضا حتى غدت خطواته أكثر خفة ومرونة.

لذا عندما وصل إلى ضفة النهر عجز عن الصيد وبقي رمحه ثابتًا في يده الشجاعة. تلاعبت الأسماك وهي تطارد بعضها بعضًا في المياه المتلألئة تحت أشعة الشمس. ابتسم قائلًا: «أخي السمك، بإمكانك السباحة بلا خوف هذا الصباح فقلبي عاجز عن الصيد».

ثم استأنف المحارب العظيم سيره في ظلال الأوراق الكثيفة وبولوجه إلى منطقة مكشوفة خالية من الأشجار، أثار وقع خطواته سربًا من الطيور فانتشرت في السماء كأنها سحابة كبيرة بيضاء. رفرفت الطيور بأجنحتها فنفثت الهواء في وجه ناغاو الذي هزّ رأسه قائلًا:

«أخي الطير، يمكنك التحليق في سلام فالسعادة تغمر قلبي هذا الصباح حتى أفقدتني الرغبة في إيذاء ريشة واحدة من ريشك».

ثم دلف إلى المستنقع الذي يفصله عن الغابة حيث بسط التمساح نفوذه، ذلك التمساح المغطى بالكثير من النتوءات حتى بدا كجذع شجرة ميتة عجوز. ارتعد ناغاو وهو يعبر البركة المخضرة والمتلألئة بانعكاسات ذهبية ففي

هذا المكان كم من صياد باسل فقد ذراعًا أو ساقًا بين فكي السيد تمساح، سيد المياه. وفي تلك اللحظة اصطدم تابر بساق ناغاو فأوشك على التقاط قوسه لكنه تراجع عن ذلك.

«أخي التابر»، قال الصياد: «امض في سلام فللمحارب ناغاو قلب طفل هذا الصباح».

توسطت الشمس السماء وانحصر ظل ناغاو تحت قدميه عندما بلغ أكمة تعجّ بالأوركيد الأحمر. زهور في حمرة الدم ستزين ألوكا هذا المساء بها شعرها الأسود، أسود هو في سواد عينيها المتأججتين. استل ناغاو سكينه وشرع في جمع أكثر الأوركيدات جمالًا تلك التي بلغت أقصى تفتحها. صنع عقدًا من النباتات المتسلقة وعقد بها الزهور ثم غادر بخطى خفيفة.

ركض المحارب العظيم تحت الأشجار وركض وسط الغابة، ركض عابرًا المستنقع والأرض المكشوفة والسهل المطوق لقريته، ركض بخطى واسعة منتظمة. لقد أراد أن يحمل غنيمته الحمراء بأسرع ما يمكن لصغيرته الحلوة التي ستكون الآن قد استيقظت منذ وقت طويل، تلك الزهرة الصغيرة التي تنتظره هناك في الكوخ البارد.

كذلك عبر ناغاو جدول الماء الضاحك الذي غدا الآن دافئًا في دفء البشر. لكن ترى ما الذي حل بالقرية التي كانت هذا الصباح فقط تتضاحك مع الفجر؟ الأكواخ إما منهوبة محترقة وإما منهارة والأغطية متناثرة والمعدات

محطمة. جثة والده الزعيم العظيم ملقاة على الأرض تحت شمس الظهيرة وإحدى زوجاته ممددة فوقه وقد جزّ نحرها. لم يتبق من كوخ العراف سوى الأنقاض وقد تبعثرت أغراضه المقدسة على الأرض، أما رأس ذلك العجوز الحكيم فقد استقر مغروزًا على رمح وعلى قسمات وجهه ارتسمت علامات الرعب الهائل. وكبقية المنازل المدمرة، كان منزله خاويًا كذلك.

ركض ناغاو هذه المرة تجاه النهر وتجاه البحر مبعث تلك الكارثة. ذلك البحر الذي يحمل إليهم السفن الكبيرة البيضاء بأشرعتها الضخمة التي تحمل على ظهرها السود المنتزعين من أراضيهم ليصبحوا عبيدًا في بلاد قصية. لم يخامر ناغاو أدنى شك في أن تجار العبيد هم من اختطفوا قبيلته وأسرته وزوجته. جعلت تلك الفكرة قلب ناغاو يموج غضبًا وحسرة. عبيدا آآه. لا. أبدًا! وتحول بكاؤه الصامت إلى نحيب.

اعتلى ناغاو الذاهل كثيب الرمال المهيمن على المكان وأخذ ينظر تجاه النهر. مجموعة من الرجال والنساء والأطفال المقيدين بعضهم إلى بعض بالحبال يسيرون تجاه المراكب العائمة جوار الضفة. اخترق نظر الصياد الثاقب الهواء النابض بالحرارة. هناك بالقرب من نهاية الصف الثاني رآها. إنها ألوكته. لقد أمسكوا بها وسيدفعون بها إلى المركب، إنها . . .

اخترقت صرخته الأجواء: ألوكا!

مدت الأسيرة يدها تجاه الرجل الذي تحب، تجاه ذلك الظل الطويل الذي ظهر لها تحت أشعة الشمس والسماء الشاحبة. انطلق سهم مخترقًا الصمت، نافذًا إلى قلب المرأة مشكلًا بقعة نجمية كزهرة حمراء على صدرها الرقيق. تلوى الجسد وانهار فتشربت الرمال الذهبية ببطء ذلك الدفق القرمزي الغزير.

تراجع ناغاو تجاه الغابة. إنه هادىء وراض بشكل غريب. ألوكا ستبقى حرة إلى الأبد وابنه لن يصبح عبدًا لرجل أبيض قط.

سار المحارب الأسود العظيم تحت الشمس الغاربة تجاه المستنقع النتن. ابتلعه الماء الأجاج بفرقعة جشعة من ألسنتها المبتلة.

طفت زهرة حمراء على صفحة الماء لوهلة ثم طوت نفسها لتتلاشى.

المؤلفة

Paulette Poujol-Oriol

بوليت بوجول أوريول
هاييتي

كاتبة وصحفية ومؤلفة مسرحيات. ولدت عام 1926 في بورت أوبرينس في هاييتي. عاشت طفولتها المبكرة في باريس ثم عادت إلى هاييتي وعملت بالتدريس. تكتب بمزيج من اللغتين الفرنسية والكريول (لغة سكان هاييتي). ناشطة وعضو في العديد من المؤسسات التي تعنى بتحسين أوضاع المرأة كما عملت مع العديد من الجمعيات المهتمة بمسرح الطفل وأنشأت مدرسة لتعليم فن الأداء المسرحي للصغار. تعالج في أعمالها شؤون المرأة والطفل في المجتمع الهاييتي على وجه الخصوص. تعتبر من رموز الأدب في هاييتي وحازت أرفع جائزة للأدب فيها. توفيت في مارس 2011. من رواياتها (البوتقة) و(المرور). كما أن لها العديد من القصص والمسرحيات منها (زهرة حمراء) و(أورسيكا) و(المنفذ الوحيد).

جواز العبور

Passport to Paradise

الكاتبة/ميريام وارنر - فييرا **Myriam Warner-viera**

إلوي هي امرأة ريفية تعمل بلا كلال ولا ملل كليلة كارنفال حافلة ولها أسرة رائعة مكونة من أربعة صبيان وأربع فتيات يرفلون في الصحة. حملها المتكرر لم يمنعها يومًا عن أداء عملها فهي لم تعان قط متاعب الحمل كبقية النساء. تبلغ ابنتها الكبرى فلوريت التاسعة تقريبًا وقد غدت الآن اليد اليمنى لوالدتها. أما أصغر أبنائها فرضيع لم يتجاوز الأشهر الثلاثة من عمره وقد اعتادت إلوي حمله كل يوم معها في سلّة على رأسها وهو ملفوف في الأسمال البالية. بعد ذلك تشرع في أداء عملها في الحقل بعد أن تضع صغيرها في الظل حيث يمكنها رؤيته ومن ثم توكل أمر حراسته إلى أحد إخوته الكبار.

لقد جنت محصول القصب في اليوم السابق، لذا ستعمل اليوم على تنظيف حقل الخضروات من الأعشاب الضارة وتمضية الوقت مع جرافتها وهي تتغنى كالعادة بأحد الألحان القديمة الراسخة في ذاكرتها. كم تحب زوجها

وأبناءها الأصحاء وبيتها النظيف وكم هي محظوظة أن وهبت القوة والشجاعة والقدرة على العمل. بالنسبة إليها تلك هي السعادة بعينها.

في تلك الأثناء كان يوجينو قد أوصل توًا حمولته من محصول القصب إلى مصنع دوروسييه ويتوجب عليه الآن أن ينتظر لعدة أيام حتى يقبض ثمن الشحنة من أوراق نقدية بالكاد تكفي لسداد ديونه للمحل وبالكاد تكفي لتمكين أسرته من الصمود إلى أن يحين موسم الحصاد التالي. يبلغ يوجين الأربعين من العمر وقد أنهكته تلك السنوات الثلاثون التي أمضاها في الحقول. إلى جانب ذلك لا بد أن للكليرين، ذلك الشراب الشفاف الذي اعتاد معاقرته باستمرار له دور في إصابته بالشيخوخة قبل الأوان. لكنه لم يكن مدركًا لذلك. كما أن إنهاكه الجسدي لم يحد من افتتانه بمباهج الحياة. إن تخطيط زوجته الجيد وحماستها للعمل أعفياه من القيام بالمهام المعتادة لشخص مثله. إنه يحبها كثيرًا إلا أنه أيضًا رجل ذو رغبات، وكتابع مخلص للتافيا، كان قد أفضى إلى إلوي بآخر رغباته وهي أن تضع زجاجة صغيرة من ذلك الشراب الناري في نعشه حين تحين ساعته.

حوالى الساعة الخامسة من عصر ذلك اليوم، توقف يوجينو أما خمارة اديلياد، صاح ببغلتيه: «واووو» ثم قفز من عربته ليحظى بشيء من الشراب قبل موعد العشاء مع رفقائه المعتادين. نادرًا ما كان يتذكر طعم تلك الوجبة فغالبًا ما يصل إلى البيت وهو ثمل تمامًا ليقع نائمًا على كومة

الأحجار وعيناه مفتوحتان على اتساعهما. بعكس المطر، تأتي المصائب بلا إنذار. فما أن ابتلع يوجينو جرعته الأولى حتى نشب عراك بين اثنين من الرجال فحاول تهدئة الوضع، ذلك أنه ما زال متيقظًا ولم يثمل بعد عكس البقية، لكن محاولاته لم تجد نفعًا. أخذ الشجار يزداد ويزداد حتى تحول إلى عاصفة من القذائف والركلات. وأولاها كانت مميتة، فقد فتحت إحدى الزجاجات المكسورة جمجمة يوجينو. سقط على الأرض في صمت ومات بعد حشرجة واحدة ليس إلا وأخذ دم له رائحة الروم يتدفق من فمه...

حاول أصدقاء يوجينو إنهاضه بطريقة لا تنسى فسكبوا عليه الكثير من شرابهم المفضل...

في الباكر جدًا من صباح اليوم التالي بعثت إلوي بأحد أصدقائها من الجيران ليقابل السيد المعالج قس القرية ليطلب منه بأن يتكرم بالحضور لمباركة الجثمان. رغم أنها لم تكن تملك ما يكفي من المال لإقامة جنازة من الدرجة الثانية أو حتى من الدرجة الثالثة إلا أنها كإنسانة مؤمنة تدرك أهمية أن يبارك الجثمان وأن يتلو القس إحدى صلواته اللاتينية تلك فهي المفتاح الذي سيفتح أبواب السماء.

عاد الجار ومعه رد القس صارمًا وجائرًا: يوجينو رجل سكير عربيد عاش في الخطيئة ومات دون أن يذهب للاعتراف بآثامه. لن يكون له أي تكفير ولا غفران ولا مسح بالزيت ولا منح للبركة.

عندما سمعت إلوي ذلك الخبر شعرت بالدماء

تتصاعد إلى رأسها وتعمي بصيرتها وظلت للحظات ساكنة بلا حراك. رجلها سيحترق في الجحيم ولكن ليس بسبب آثامه بل لأنه أسود فقير. احتفظ ملاك الأرض الأثرياء بالكثير من العشيقات بلا مواراة وقد أضفى شراب الابسينث على بشرتهم وأعينهم خضرته فهم يشربونه كما يشربون ماء جوز الهند، وهو يسبب لهم الشيخوخة المبكرة تمامًا كما فعل شراب الروم مع سائق العربة. رغم كل ذلك عندما توفي أحدهم أقيمت له جنازة من أعظم الجنائز، مشى فيها عدد كبير من رجال الدين في أثوابهم المهيبة أمام النعش وهم يحملون الصلبان والرايات وأنشدت جموع غفيرة باللاتينية واستمرت المراسم لأشهر حتى منحت أرواحهم الراحة الأبدية...

أشفقت يونيس جارة إلوي على حالها فتذكرت الغريب الذي قدم أخيرًا من آسيا، ذلك أن جميع من بالسوق يقولون إنه يمتلك القدرة على صنع تمائم تسمح بالعبور إلى السماء وكل ما عليك فعله هو وضع ذلك السحر على صدر المتوفى لتضمن صعوده إلى السماء. كانت إلوي على أتم الاستعداد للإقدام على أي عمل لإنقاذ روح زوجها حتى لو اضطرت بالمقابل إلى منح روحها هي للشيطان، لذا بعثت مع يونيس أثمن شيء تملكه وهو الخاتم الذي أهداه إليها يوجين منذ عشر سنوات عندما بدآ بتشييد منزلهما معًا.

مضت يونيس بحثًا عن الساحر وفي غضون ساعة

عادت ومعها ذلك القربان الثمين. إنها قطعة من جلد الماعز تحمل علامات غريبة من الرموز الصينية أو العربية التي في كلتا الحالتين لم تكن تعني شيئًا للمرأتين. قبَلت إلوي تلك المخطوطة المقدسة وأودعتها كل حبها لترافق حبيبها في رحلته، ثم وضعتها على صدر يوجين، تحت قميصه الأبيض الوحيد الذي امتلكه طوال حياته. عندئذ شعرت بالراحة أنها قد أدت واجبها تجاهه وأحست بشيء من السعادة. الآن ستصعد روح يوجين إلى السماء رغمًا عن المعالج وبعد وفاتها ستجتمع به هناك في العلياء. . .

بعد أسبوع من الدفن، قبضت الشرطة على ذلك الدجال بائع التذاكر إلى عالم الغيب وقد ألقى ذلك الخبر الرعب في كل القرية الواقعة في المنطقة الصغيرة التابعة لغراند فونت دو سانت آغنيس. دجال... كانت كلمة لم يعرفها أحد منهم أو يتمكن من نطقها بسهولة فأصبحت دزالًا وجدالًا وداجلًا وجدلًا ولإنهاء تلك المسألة قدم موظف من البلدة للتحقيق مع الرجل حول قدراته. بالطبع لم يخطر ببال أحد أنه ولإدانة المجرم يتوجب إثبات أن البضاعة المبيعة أو الطلاسم كانت عديمة الجدوى. كيف لأحد إثبات ذلك والموتى لن يعودوا أبدًا للتذمر بأن أبواب السماء ظلت موصدة أمامهم. وهكذا لم يتم الإثبات بدليل ملموس بأن جريمة قد ارتكبت ولم يكن هناك مفرّ من إطلاق السجين. ابتهج أهل القرية البسطاء وصفقوا من أعماق قلوبهم، ومن جانبه أخذ الغريب بلا كلال في منح

كل من بالقرية جواز مرور سماويًا ليكون مستعدًا للحظة المغادرة. هناك من أعلنوا نكرانهم وعدم تصديقهم للأمر خلال النهار إلا أنهم كانوا يتسللون في الليل خفية عبر الأسوار للحصول على تمائمهم التي ستساعدهم على تسديد رهونهم. بل حتى إن المشعوذ رأى أنه من الحكمة له أن يتضرع إلى آلهة إفريقيا ومن ثم أن يحجز مقعدًا مريحًا في السفينة العائدة إلى غينيا في رحلتها العظمى.

آخر ما تناهى إلى سمعها أن ساحر الجزر أصبح يمزج الدم مع الحبر الصيني لزيادة فعالية جواز المرور السماوي ذاك وأن رجال الكنيسة فقط هم الذين لا يشعرون بالرضا حيال ذلك الأمر، وهذا طبيعي فلم يعد أحد بحاجة إليهم لإقامة قداس للموتى.

السماء مفتوحة للجميع وبإمكان الإنسان أن يصل بخياله إلى أعماق لا يمكن سبر أغوارها من دون شك.

المؤلفة

Myriam Warner-viera

ميريام وارنر فييرا
غوادالوب (جزر فرنسية في البحر الكاريبي)

ولدت في بوينت أي بيتر بغوادالوب عام 1939.
قضت طفولتها في غوادالوب ثم انتقلت إلى دراسة المرحلة الثانوية بفرنسا. التحقت بجامعة داكار بالسنغال حيث تزوجت واستقرت فيها. اهتمت في كتاباتها بالمصاعب التي تواجه المرأة الكاريبية وشعورها بالوحدة والعزلةِ عند صراعها ضدِ الظلم والعنف. لها روايتان وعدد من القصص القصيرة مثل: الجائزة الأولى، الظل القادم من الجسر وانتحار. تعكف حاليًا على تأليف كتابين وسيرة ذاتية لإحدى الشخصيات الهامة بالنسبة إليها.

البالية

Cast-offs

الكاتبة / وجيدة تبسم Wajida Tabassum

«لا ، يا الله! إنني أشعر بالخجل».

«لأي شيء تخجلين؟ ألم أخلع أنا أيضًا ملابسي؟»

«لاااااا!» قالت تشامكي وهي محرجة.

«اخلعيها الآن! هل علي أن أشكوك إلى آنّا بي؟» هكذا هددتها شاه زادي باشا التي لم تتقن شيئًا أكثر من إصدار الأوامر. بذعر وحياء خلعت تشامكي بيديها الصغيرتين قميصها وسروالها. ثم وبأمر من شاه زادي قفزت إلى داخل الحوض الصابوني معها.

بعد الانتهاء، ابتسمت شاه زادي باشا بعبث، وباستعلاء السيدة على خادمتها قالت: «أخبريني الآن، ماذا سترتدين؟».

«هذا، قميصي الأزرق والسروال». قالت تشامكي بجدية. سدت شاه زادي باشا أنفها بتعجب، «هذه.. هذه

الملابس القذرة العفنة؟» ما فائدة الاستحمام إذن؟ «وبدلًا من الإجابة ردت تشامكي بسؤال آخر: «باشا.. . وأنت ماذا سترتدين؟»

«أنا؟» تحدثت شاه زادي بزهو جلي، «تلك البسمللة البراقة التي صنعتها لي جدتي آمًا. لم تسألين؟».

استغرقت تشامكي في التفكير، «كنت أفكر. . .».

«ماذا؟» سألتها شاه زادي باشا بفضول شديد.

زمجرت فجأة آنّا بي، «باشا، هل تخلصت مني في الحمام لتبقي وحدك مع هذه الصغيرة البائسة الحقيرة؟ اخرجي فورًا وإلا أخبرت بي باشا الآن!»

أفصحت تشامكي بسرعة عما يجول في فكرها.

«باشا، أعتقد.. . إن تبادلنا ملابسنا وأصبحنا أختين، عندئذ يمكنني أيضًا ارتداء ملابسك».

«ملابسي؟ تقصدين كل تلك الملابس القابعة في صندوقي؟»

بعد تردد أومأت تشامكي موافقة وهي تشعر بخطر. انفجرت شاه زادي ضاحكة، «أوه، لا! يا لك من فتاة سخيفة! أنت خادمة. أنتم فقط من ترتدون ملابسي البالية. لن ترتدي طوال حياتك غيرها».

وعندئذ وباهتمام شديد لم ينتج من طيبة بل من

غرور، التقطت شاه زادي ملابسها التي كانت ترتديها قبل الاستحمام وقذفت بها إلى تشامكي، «هاك! ارتديها. لدي الكثير منها».

انفجرت تشامكي غاضبة. «لم علي ذلك؟ لم لا ترتدين أنت ملابسي؟» وأشارت إلى كومة الملابس القذرة.

استهجنت شاه زادي بغضب، «آنّا بي... آنّا بي...!» قرعت آنّا بي الباب بشدة وحيث أنه لم يكن موصدًا بالمزلاج فقد انفتح في الحال. «هكذا إذن. أنتما الاثنتان ما زلتما عاريتين؟» ووضعت آنّا بي إصبعها على أنفها في حنق.

سحبت شاه زادي فوطة وردية ناعمة ولفت بها نفسها. بقيت تشامكي واقفة في مكانها. حملقت آنّا بي بابنتها وقالت: «وأنت! كيف تجرئين على دخول حمام باشا؟»

«شاه زادي باشا قالت... أنت أيضًا استحمي... معي».

تطلعت آنّا بي حولها خوفًا أن يكون هناك من سمعهما ثم تحدثت إليها بقسوة وهي تسحبها خارجًا، «اذهبي إلى قسم الخدم الآن. بسرعة! وإلا ستصابين بالبرد».

«ولكن ملابسي؟» قالت تشامكي بذل وحياء.

«لا ترتدي تلك الملابس القذرة الآن. يوجد في

الصندوق الأحمر قميص وسروال منحتك إياه شاه زادي ذلك اليوم. ارتديها».

بينما وقفت هناك عارية، تحدثت الصغيرة ذات السنوات السبع بتردد: «أمي، إذا كنت في عمر شاه زادي باشا نفسها، لم لا يمكنها أن ترتدي ملابسي البالية؟»

«انتظري! انتظري حتى أخبر ماما بأن تشامكي قالت لي هذا!»

ذعرت آنّا بي ورفعت شاه زادي بين ذراعيها. «باشا، إنها مجنونة، تلك الفاسقة! لم تخبرين والدتك بوقاحتها وهذيانها؟ لا تلعبي معها مرة أخرى! اقذفيها بحذائك وانسي أمرها».

ثم ألبست شاه زادي، مشطت شعرها، جهزتها وقدمت لها طبقًا من الطعام الساخن. بعد انتهائها من العمل وعودتها إلى البيت، وجدت تشامكي واقفة هناك، متصلبة وعارية. ودون أن تنظر يمينًا أو يسارًا انهالت على ابنتها بالضرب.

«تدخلين في شجار مع أولئك الذين يطعمونك! فاسقة!... إذا ألقى بنا باري ساركار خارجًا فأين سنذهب؟ فكري في ما سيحدث!»

في رأي آنّا بي فإن من حسن حظها الرائع أن تم تعيينها مرضعة لشاه زادي باشا. كانت تتناول طعامًا كأي سيدة ذات شأن فهي بالرغم من كل شيء مرضعة للابنة

الوحيدة للسيد نواب. لم يكن هناك أي نقص في الملابس فقد كان من الضروري للمرضعة أن تبقى نظيفة ومرتبة على الدوام. والأفضل من ذلك كله أن ابنتها تحصل على جميع أغراض شاه زادي باشا البالية التي لا تعد ولا تحصى. وهب الملابس كان عرفًا ثابتًا أما منحها الألعاب الفضية وأدوات الزينة البالية أيضًا فإنهم بذلك قد تعدوا حدود الكرم المعروفة! وهذه الجاحدة. . . كبرت وأصبحت تعترض على شيء واحد: «لم علي ارتداء ملابس آل بي باشا البالية؟ أحيانًا كانت تقف أمام المرآة وتقول بحكمة بالغة: «أمي! أنا أكثر جمالًا من بي باشا. لم إذن لا ترتدي هي ملابسي البالية؟»

لقد أقلق هذا الأمر آنا بي. هؤلاء أناس كبار. لو تناهت إلى مسامعهم مجرد إشارة إلى ما قالته ابنتها، لجز أنفها وشعرها ولألقي بها في الشارع. لقد انتهت مهمتها كمرضعة منذ زمن طويل ولكن التقاليد تقضي بأن الحاضنات لا يغادرن المنزل إلا على نعوشهن. هذا هو سبب بقائها هناك إلى الآن. وبالرغم من ذلك فإنهن لا يمنحن العفو والغفران إلا على الأخطاء الصغيرة التي تستحق ذلك. قالت وهي تلوي أذن تشامكي: «إن تحدثت مرة أخرى. . . تذكري فقط بأنك سترتدين ملابس آل بي باشا طوال حياتك. هل تفهمين يا حمارة؟»

أطبقت تشامكي شفتيها إلا أن حممًا بركانية أخذت تغلي في عقلها.

عندما بلغت الثالثة عشرة من العمر، لم تتمكن شاه زادي للمرة الأولى من أداء صلواتها. في اليوم الثامن وبهذه المناسبة، رُش رذاذ ماء الورد وطرزت لها والدتها لباسًا زاهيًا يخطف الأبصار ببريقه. زُين الزي بأزواج صغيرة من الحلي الذهبية. عندما تحركت شاه زادي أطلقت الأجراس رنينها الموسيقي، وحفاظًا على تقاليد المنزل، حتى ذلك.. . ذلك الزي الثمين منح كملابس بالية. اهتزت آنّا بي طربًا. أحضرت الملابس لتشامكي التي أصبحت الآن أكثر حكمة من السابق «أمي، إن قبول هذه الملابس البالية كأمر قسري شيء مختلف. ولكن ليس عليك أن تظهري كل تلك السعادة من أجل هدايا كهذه».

«أوه يا إلهي»، قالت بلطف: «حتى لو كنا سنبيع هذه الملابس فإننا على الأقل سنجني مائتي روبية، مبلغًا نقديًا. نحن بالفعل محظوظتان للعيش بهذا المنزل».

«أمي، كم أتمنى. . .» قالت تشامكي بأسى شديد، «أن يتاح لي أنا أيضًا منح بي باشا ملابسي البالية!»

ضربت آنّا بي رأسها بيدها «يا الله! أنت لم تعودي طفلة. بالله عليك عودي إلى رشدك. ماذا سيحدث لو سمع أحد هذا الهراء؟ أشفقي قليلًا على هذه العجوز وشعرها الأبيض».

أغرقت تشامكي في الصمت.

بدأ السيد مولفي بتعليمهما القرآن في نسخته الأوردية المبتدئة. كانت تشامكي أسرع من بي باشا. عند إكمالهما

الجزء الأول من قراءة القرآن، قامت باري باشا ولطيبة قلبها بحياكة ملابس جديدة من قماش أرخص بعض الشيء لتشامكي. بالرغم من أنها حصلت أيضًا وكالعادة على طقم الملابس الثقيلة الخاص ببي باشا، إلا أن تشامكي أحبت الثوب الخاص بها أكثر من أي شيء في حياتها فهو غير مرتبط بأي مهانة لها. كان ذلك الثوب الزعفراني أفضل من أي من أثواب بي باشا الباهرة.

الآن وقد بلغت شاه زادي مرحلة البلوغ وتلقت كل ما تحتاج إليه من علوم، فقد برزت مسألة الزواج. اختلف إلى البيت بشكل متكرر صناع الذهب، الخياطون والتجار. قررت تشامكي ارتداء ثوبها الزعفراني يوم الزفاف، الثوب الذي لم يتخلص منه أحد.

كانت باري باشا ولطيبة قلبها تعامل خدمها دائمًا وكأنهم أبناء لها لذا فقد اهتمت أيضًا بزواج تشامكي بالقدر نفسه. في النهاية تغلبت على زوجها وتمكنت من الحصول على صبي مناسب لتشامكي. اعتقدت أنه ووسط كل هذه العجلة والترتيبات لزفاف شاه زادي، من الممكن الترتيب لنكاح تشامكي.

قبل الزفاف بيوم واحد، فاض المكان بالزوار وتلقت الفتاة الصغيرة كل العناية والاهتمام من الكبار. جلست شاه زادي بين صديقاتها بينما قدماها تصبغان بالحناء. قالت لتشامكي فجأة: «عند ذهابك إلى أنسبائك، سأضع أنا الحناء على قدميك».

«لا سمح الله!» قالت آنا بي بتأثر: «أرجو الله ألا تلمسي قدمها أبدًا. تكفيني منك هذه الكلمات العطوفة».

«ولكن متى ستتزوج؟» سألت إحدى الصغيرات بحماسة.

ضحكت شاه زادي بصلف. «بعد أن ألقي إليها كل ملابسي البالية، عندئذ اعتبري أن جهاز عرسها قد أعد».

البالية، البالية. ثقبت ألف إبرة قلبها. مسحت تشامكي دموعها وهرولت إلى سريرها. عندما حل المساء بدأت الفتيات بقرع الطبول. صدحت أصواتهن الفتية بكل أغاني الزواج المثيرة. في الليلة السابقة أقيم حفل راتجاغا والليلة سيقام الحفل نفسه أيضًا. أشعل الطهاة النار في الفناء الخلفي وأعدوا ألذ الأطباق. كانت أضواء الليل المبهجة قد أفعمت المكان بأطياف يوم الزفاف. أضفت دموع تشامكي على وجهها المزيد من الجمال الطبيعي. رفعتها ملابسها الزعفرانية إلى السماوات. لم يتخلص منها أحد بل خيطت من قماش جديد. هذا اللباس فريدا! ارتدت طوال حياتها من عطايا آل بي باشا. والآن سيضم جهاز عرسها أيضًا ملابس بي باشا، لقد كتب عليها أن ترتدي ملابسها البالية بقية حياتها «لكن افهمي كلماتي يا بي باشا. لا يمكن لابنة السادة أن تهان أكثر من ذلك. انتظري فقط وسترين. لقد منحتني أشياء لأستخدمها. أليس كذلك؟ فانتظري الآن...»

حاملة صينية حلوى المليدة، اتجهت تشامكي إلى

جناح العريس. الضوء يغمر المكان.. . فالنكاح سيعقد اليوم التالي. في كل هذه الفوضى لم يلاحظها أحد. أخذت في إلقاء العبارات الرقيقة حتى وصلت إلى حجرة العريس. اضطجع العريس على سريره فقد كان مرهقًا من مراسم الكركم ونقش الحناء. عندما تحرك الستار، التفت فذهل لما رآه.

قميصها الزعفراني الواصل إلى ركبتيها، سروال ملتصق بإحكام إلى خلف ساقيها المستديرتين، وشاح زعفراني ناضح بالكامداني الخفيف، عينان دامعتان، انحناءة ذراعين تطلان من كمين قصرين، جدائل الياسمين على شعرها وابتسامة جريئة على شفتيها. لا شيء غير عادي في الأمر. ولكن بالنسبة إلى شاب صغير قضى عدة ليال مع خيالات مثيرة لامرأة.. .! لا جدوى من محاولات كبح جماحه، في الليلة السابقة لزفافه أصبح تقريبًا خارجًا عن السيطرة.

الليل المثير للجسد. العزلة الحاثة على الغواية. استسلم تمامًا للطريقة التي نظرت بها تشامكي إليه، وبقصد أشاحت بوجهها بعيدًا عنه. بألم، نزل عن سريره ووقف أمامها. سحقته تشامكي بنظرة من طرف عينيها.

«اسمك؟» قال بصعوبة وبلع ريقه.

«تشامكي!» أضاءت وجهها ضحكة متلألئة فبدت كالقمر.

«فعلًا! أيًا كان ذلك الذي يضيء داخلك، فإن الأمر الصائب فقط هو أن يكون اسمك تشامكي».

بارتعاش وضع يده على كتفها. تحدث بصوت غير الذي يتخذه الرجال لإغواء فتاة، ولكن برقة، رافعًا يده عن كتفها وضامًا يدها في يده، سألها: «ما الذي في الصينية؟»

«أحضرت لك المليدة. الليلة الماضية كانت ليلة راتجاغا»، شجعته تشامكي. جرحته بلا سلاح. «أحضرته لأحلي فمك». ابتسمت.

«لا أعتقد أن المليدة هي التي ستحلي فمي». انحنى ليحلي شفتيه بشفتيها. وقعت تشامكي بين ذراعيه لتسرق نقاءه ولتفقد هي نقاءها.

في اليوم الثاني من مغادرة العروس، وعندما عادت لإعطاء ابنة مرضعتها ثوب زفافها وذلك طبقًا لتقاليد المنزل، ابتسمت تشامكي.

«باشا، طوال حياتي وأنا آخذ أغراضك البالية، لكن اليوم، أنت أيضًا...» وبدأت في الضحك بشدة، «طوال حياتك... ستستخدمين ما نبذته أنا...!» لم تستطع التحكم في ضحكاتها.

أدرك جميع من كان هناك بأن فكرة الانفصال عن رفيقة الطفولة قد أصابت تشامكي بهذا الاضطراب المؤقت.

المؤلفة

Wajida Tabassum

وجيدة تبسم
الهند

ولدت الكاتبة وترعرعت في امرافاتي بالهند عام 1935، وبعد حصولها على الماجستير في اللغة الأوردية انتقلت مع أسرتها للعيش في حيدراباد. لها 27 كتابًا في القصة والشعر وترجم العديد منها من اللغة الأوردية إلى لغات مختلفة كما تحول الكثير منها إلى أفلام سينمائية. تميز أسلوبها بالاندفاع والطرح الجريء المثير للجدل. توفيت في ديسمبر من العام 2010. من مؤلفاتها : المدينة المحرمة، عبء الزمام وأعلى قليلًا.

مظلة في ليلة قمراء

Umbrella on a moonlit Night

الكاتبة / تسوبوي ساكاي Tsuboi Sakae

تعجب البعض من مجموعتنا هل نحن مجرد مجموعة من النسوة العاطلات أم من ذوات السمعة السيئة رغم أن ذلك كان بعيدًا كل البعد عن الحقيقة، فنحن ربات بيوت اعتمدنا لما يقارب العشرين عامًا تمامًا على محافظ أزواجنا وكالكلاب المروضة فقدنا دون أن ندرك ذلك القدر القليل من التمرد الذي كان يميزنا في يوم من الأيام. باختصار كنا زوجات مخلصات وارتحنا لكوننا مجرد أمهات عاديات. ذلك هو النوع من النساء الذي كنا عليه وهدفنا، إن كان لنا أن نسميه هدفًا، وبكل بساطة هو أن نجتمع ونمضي الوقت في الثرثرة حين لا يكون أزواجنا في المنزل.

أخيرًا فقط تبنينا تلك المصطلحات العصرية الشبيهة بالكلمة الإنجليزية مجموعة ولم يكن مرد ذلك الغرور أو الزهو البتة. بالنظر إلى الوراء... هل استمر ذلك كل تلك المدة؟ حسنًا، على أي حال كان أول اجتماع لنا في تلك

الفترة التي أعقبت نهاية الحرب، الفترة التي اضطر فيها جيلنا أن يكابد بدلًا من أن يعيش ربيع حياته. في ذلك الوقت كنا مؤمنين بألا أحدًا قد عانى أكثر منا فبثثنا شكوانا فيما بيننا بحرية من عنت الحياة واستيائنا من كل شيء فيها.

حتى بعد أن انتهت الحرب وأخذت الديمقراطية في الرواج، لم نتوقف عن التذمر والتجوال بوجوه كئيبة فكما أتذكر كنا نشعر بالغيرة تجاه تلك التجمعات البهيجة للشباب العزاب في أندية الكتاب والحفلات الراقصة وفي كل مكان. أنا واثقة بأن البعض سيقول إنه من السيئ أننا لم نستمر في الخروج والاستمتاع ولكن كيف لأي امرأة فعل ذلك ولها ما لها من أطفال وحماة والأسوأ من ذلك كله زوج لم يعد من الحرب بعد؟ لقد اتخذنا أيضًا موقفًا متحيزًا تجاه تحرر المرأة والديمقراطية كما لو أن تلك الأمور قد تجاوزتنا بشكل ما، فحالما تجتمع اثنتان منا نبدأ بالحديث عن بيع أفضل ما لدينا من كيمونو لكسب بعض المال، أما لو اجتمعت ثلاث منا فسيتحول النقاش إلى كيفية الحصول على الطعام من الريف، قد يبدو هذا غريبًا ولكن بالرغم من ميلنا إلى السوداوية والكآبة إلا أننا كنا ننفجر ضاحكين ما أن نجتمع أربعتنا جميعًا.

«هاي، انظرن هنا. بما أننا لا نستطيع مجاراة الشباب، أليس من الأفضل إذن أن ننشئ نادينا الخاص بنا؟ ناد لمتعتنا نحن فقط». ذلك ما قالته السيدة أونو أرملة

الحرب الوحيدة في المجموعة وهي التي طرحت الفكرة لأول مرة.

«بالتأكيد! سيكون نادينا الذي يجمعنا إلى جانب البئر ظهر يوم الإثنين من كل أسبوع. لقاء أسبوعي للثرثرة عند البئر الجانبية».

ما أن قالت السيدة كوراتا ذلك وهي أم لطفلين حتى انفجرنا ضاحكين، فقد كان ذلك هو يوم الإثنين وهو اليوم الذي عادة ما نجتمع فيه وبالنسبة إلينا نحن ربات البيوت لم يكن لدينا شيء نتطلع إليه مثل ظهر يوم الإثنين فأزواجنا مشغولون بأعمالهم وأبناؤنا بمدارسهم. عادة ما ينتهي بنا الأمر إلى أن تقوم كل واحدة منا بزيارة منزل الأخرى بلا تخطيط مسبق، وقد كان منزل السيدة موراي كانيكو التي نناديها منذ الطفولة بلقب كاتشانهو أكثر المنازل راحة، فهو الوحيد الذي لم يصب بالدمار جراء الحرب وهو الوحيد الذي بقي كما هو دائمًا كبيرًا وعتيقًا.

«بما أنه سيكون نادي البئر الجانبية، أعتقد أنه سيتم بمنزلي. أليس كذلك؟ فلا أحد منكن لديها بئر مفتوحة بل جميعها مغطاة. صحيح؟»

لقد كانت للسيدتين كوراتا واونو ذكريات مريرة إلى جوار ذلك البئر فبعد جلائهما من منزليهما المحترقين، سمعتا بأن هناك نباتات برية صالحة للأكل فأصبحتا تذهبان لقطفها ومن ثم غسلها في تلك البئر، وكانتا تنقعان الأرز

البني في الماء ثم تغليانه لصنع طعام يشبه العصيدة. وكانتا في واقع الأمر تتطلعان إلى كاتشان لتوفير المأوى لهما فبجهودها تمكنتا من استئجار غرف لهما وفيما بعد إيجاد منازل رخيصة للشراء. كما كانت كاتشان هي من قدمت يد المساعدة لمن تم إجلاؤهم منا إلى الريف للحصول على قطعة أرض بسعر يعتبر في الوقت الحالي زهيدًا بشكل لا معقول.

لقد درجنا جميعًا على الذهاب إلى مدرسة البنات نفسها كما أجبرتنا الحرب على السكن في الحي نفسه. باعتقادي أنه لو كانت لتلك الحرب أي فائدة فهي تلك الصداقة الجديدة التي وثقناها.

«لكن تسميته بنادي البئر الجانبية... ألا يعتبر باليًا نوعًا ما؟ أقصد، أعتقد أنه من الأفضل تسميته بشيء أكثر.. . حسنًا، ذلك النوع من الأندية الذي يظهر تفوقنا على أزواجنا لمرة واحدة على الأقل».

ابتهج الجميع بشدة عندما قلت ذلك. وهكذا رغم أننا لم نتمكن من حسم ذلك الجدل حول المسمى إلا أننا على الأقل اتفقنا على ألا نذكر الآخرين فيه بسوء.

تشكل النادي من عضويتنا نحن الأربع. كنا جميعًا في الثلاثينات من العمر وكذلك كنا جميعًا نشعر بالمنافسة تجاه شابات الحي اللاتي أنشأن نادي الأرزات الشابة. كان واضحًا أننا لم نقتنع بمسمى نادي البئر الجانبية فقد كنا نناقش أحيانًا الشؤون السياسية كما كنا نقوم بقراءة الكتب الرائجة.

«بما أننا أربع فما رأيكن بتسميته نادي الأربع ورقات؟» عندما قالت السيدة كوراتا ذلك، اعترضت السيدة أونو عليه فقد بدت لها تلك التسمية سخيفة جدًا «نحن لسنا شلة من تلميذات المدرسة وسيهزأ بنا نادي الأرزات الشابة. ما زال مسمى نادي البئر الجانبية يبدو أفضل».

«حسنًا، ماذا عن نادي الاثنين؟» اقترحت كاتشان.

طوت السيدة أونو ذراعيها كالرجال وأجابت: «حسنًا، الآن. هل سنجتمع كل اثنين؟ إن فعلنا ذلك فإنني سأفلس حتما. أضف إلى ذلك، ألا يبدو هذا المسمى نادي يوم الإثنين وكأنه لقاء يجمع الأساتذة أو السياسيين أو رجال الأعمال؟ إنه لا يناسبنا. ما رأيكن؟»

عند هذه النقطة أخذت أدمدم لنفسي، «مسمى كالنادي الاجتماعي يبدو عاديا جدًا. ترى هل هناك كلمة يمكنها أن تشير إلى ما نتقاسمه من سعادة وغضب، بهجة وأسى؟»

«هه؟ ماذا؟ سعادة وماذا؟»

«قلت سعادة وغضب، بهجة وأسى. نحن بالفعل نتشارك في تلك المشاعر فنغضب لأشياء ونشعر بالسعادة لأشياء أخرى. أليس كذلك؟ حسنًا، لقد كنت أتساءل هل هناك مسمى يحمل ذلك المعنى؟».

«حسنًا إذن. ما رأيكن في نادي السعادة والأسى؟ دعونا نستخدمه».

منذ البداية، برزت السيدة أونو كقائدة لنا بشكل تلقائي وعند استرجاعي لتلك الفترة أفكر كم كانت تلك المجموعة من النساء اللاتي بالكاد بلغن الثلاثين من العمر مثيرات للشفقة، ولكن بالرغم من ذلك كانت تلك اللقاءات ممتعة حقًا. كنا نلتقي جميعًا مرة واحدة في الشهر ولكوننا فقيرات فقد كنا نتناوب على مهمة إعداد وجبة الطعام. تمامًا كما يشير المسمى، لقد تعاقبت علينا أوقات من السعادة وأخرى من التعاسة.

إن قصتي تتقافز زمنيًا دبرًا وقبلًا ولكن لو لم تخني الذاكرة فإن السيدة أونو أمست أرملة في اجتماعنا الثالث للنادي فقد تلقت رسالة من أحد أصدقاء زوجها من الجنود يخبرها فيها بوفاته في الحرب. أحضرت معها الرسالة إلى اجتماع النادي وألقت بها أمامنا دون أن تتفوه بكلمة وبقيت منكسة الرأس لفترة طويلة. لن أنسى أبدًا اجتماع ذلك اليوم الذي عقد في منزلي فقد كنت قد أعددت بعضًا من الزلابية الحلوة بالسكرين إلا أن أيًا منهن لم تمسسه بل أخذنه معهن وغادرن إلى منازلهن.

بالنسبة إلينا كانت السعادة تعني الحصول على بضعة أكواب من الأرز المصقول إلا أننا كنا حتمًا نشعر بالغضب من وقاحة الموظفين في قاعة المدينة. غير أن مشاعرنا اليومية تلك لا يمكن مقارنتها بذلك الكم الهائل من الغضب والحسرة الذي تسببه وفاة إنسان. لكن بشكل ما - هل لنا أن ندعوه قدرة الإنسان على التكيف؟ لقد تعافت

السيدة أونو سريعًا مما منحنا شعورًا بالراحة بالتأكيد. في إحدى المرات قالت السيدة كوراتا وكأنها قد نسيت أن السيدة أونو هي الأرملة الوحيدة بيننا، «هاي، هل تعلمن؟ إن زوجي يحتفظ بالمال بشكل سري دون أن يخبرني. هل سمعتن بشيء كهذا؟ بالنسبة إلى رجل هو حتمًا بخيل».

أضافت كاتشان بسرعة وقد شجعتها تلك العبارة، «حسنًا. سأشرح لكن. لقد اختصت النساء في السابق بتخبئة النقود لكن وكما يقولون فإن الرجال والنساء تساووا في هذا الأمر بعد الحرب. فيما يتعلق بالشؤون المالية فإن المرأة ما زالت لها اليد العليا فهي المسؤولة عن نفقات المنزل وكلما ازداد الرجل بخلًا، ازداد اقتطاع المرأة من المال لنفسها. ذلك هو الوضع الطبيعي! ففي بعض الأحيان قد ترغب الزوجة في الخروج ومشاهدة فيلم سينمائي أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟ حتى لو منعها زوجها من حضور أي فيلم فإنها سترغب في ذلك عند مغادرته دون أن تأخذ موافقته في كل مرة».

ما إن بدأت بانتقاد زوجي حتى بدأت السيدة أونو بالتعليق باسمة، «زوجي كذا وكذا! أنتن تعتقدن أنهم مزعجون جدًا. عندما أضع في اعتباري ما سأخسره في غيابهم فإنني لن أتذمر كثيرًا. انظرن إلى حالي؟»

نظرت بدهشة إلى وجه السيدة أونو إلا أنني لم أتمكن من الولوج إلى أعماقها. لقد كافحت السيدة أونو طوال تلك السنين بالعمل على آلة الحياكة لتعيل نفسها وطفلها. رغم

كل ذلك مازالت هي أكثرنا مرحًا وشبابًا وفي كل مرة أتنبه فيها لمزايا السيدة أونو، كنت أتساءل فجأة ترى ما الأمر الذي يجعل المرأة تشيخ؟

اكتشفت إحدى ربات البيوت في الحي نادينا فرغبت في الانضمام إلينا فقد كانت تغبطنا لما نتقاسمه من أوقات مرحة وقد حضرت إلينا في إحدى المرات ونحن مجتمعات. أخذنا في مناقشة الأمر بعد تلك الزيارة غير المتوقعة.

«ماذا نحن فاعلون؟»

«إن لم نسمح لها فإنها ستظن بنا السوء. علينا أن نقنعها بشيء. . .».

«آه. وجدتها. ماذا لو نخبرها بأن هذا لقاء بين رفيقات المدرسة القديمات؟»

«بالضبط، بالضبط!»

لقد أظهرنا دون أن ندرك كما كنا ضيقات أفق إلا أن ذلك الحدث قربنا بعضنا من بعض أكثر وأكثر.

«ما رأيكن؟» هل فعلًا مسمى نادي الأربع ورقات غير مناسب؟ نادي السعادة والأسى معقد جدًا ولن يفهمه الصغار كما أنه كئيب جدًا، قالت السيدة كوراتا ذلك بإصرار فقد كانت أول من اقترح مسمّى نادي الأربع ورقات. هذه المرة وافقتها السيدة أونو ببساطة بإيماءة منها. «بالتأكيد. إنه رائع. نادي الأربع ورقات أو المجموعة أو أي

شيء من هذا القبيل. دعونا نتحدى نادي الأرزات الشابة ونجدد شبابنا».

وهكذا توارى مسمى نادي السعادة والأسى إلا أن هذا لا يعني أننا قد استخدمنا مسمى نادي الأربع ورقات على الدوام بل كنا أحيانًا ندعو أنفسنا المجموعة بكل بساطة. مقارنة بنادي الأرزات الشابة الذي أخذ في الذبول رغم بداياته القوية، على العكس من ذلك أخذ نادينا في الازدهار أكثر وأكثر مع مرور الزمن،حتى حدود مغامرتنا أخذت في الاتساع ببطء.

«ألا يجدر بنا القليل من العبث في بعض الأحيان؟ ليس من الصواب ترك الشرب لأزواجنا فقط كما يمكننا تعلم لعب الباتشينكو في صالات اللعب».

لقد كنا قادرات على اللعب بهذه الطريقة لأننا أصبحنا نملك شيئًا من الوقت الحر فمنذ تم توفير الأرز في مراكز التوزيع، أصبح بإمكان ربة البيت أن تستأثر ببعض الوقت للترويح عن نفسها لكن بالرغم من ذلك نحن لسنا إلا ربات بيوت ذوات دخل محدود، فلم تكن نقودنا لتكفي لتسلية يوم واحد مهما جهدنا في ادخارها، وفي أسرة كأسرتي وبدخل لا يتجاوز راتب معلم في المرحلة الثانوية الأولى فإن أقصى ما يمكن للمرء ادخاره هو عشرة ينات في اليوم، حتى إن الاحتفاظ بعملة معدنية من فئة الخمسة ينات أو ورقية من فئة الين الواحد يعتبر مهمة شاقة. رغم ذلك لم أضطر في يوم الدفع إلى الاقتراض من ميزانية الأسرة

لنفسي. كم كان مذهلًا تمكني بتلك الطريقة من توفير ما يقارب الخمسمائة أو الستمائة ين بل أحيانًا ألف ين دون علم زوجي. كان ذلك هو مالي الخاص الذي أنفقه دون القلق بشأن باقي أفراد الأسرة.

بعد أن اعتمدنا مسمى نادي الورقات الأربع ارتفعت مصروفاتنا بشكل هائل فلم نعد نقنع بلقاءاتنا في المنزل وشرب الشاي وقضم الحلوى، بل بدأنا بالانطلاق إلى البلدة ومعنا ثلاثمائة أو خمسمائة ين. كما لم نعد نكتفي بالالتقاء عند تغيب أزواجنا وأبنائنا عن المنزل بل أصبحنا نغادر منازلنا أيام الآحاد والإجازات دون أسف ومن ثم الاستمتاع بأوقاتنا هنا وهناك.

كانت لنا طريقتان، إحداهما هي مغادرة المنزل منذ الصباح الباكر والعودة عندما يحين وقت إعداد الطعام. أما الطريقة الأخرى فكانت تتمثل في مغادرة المنزل ظهرًا لتناول الطعام خارجًا ومشاهدة فيلم قبل العودة إلى البيت. كنا نخرج بلا هم في الأيام التي نعود فيها قبل الغداء، بينما كنا نشعر بالقلق حيال أزواجنا وأبنائنا عندما كنا نتناول غداءنا في الخارج، لذا لجأنا إلى كسب رضاهم في اليوم السابق لذلك. كم شعرت بالامتنان تجاه أبنائي في تلك الأوقات.

«أمي، لا تقلقي بشأننا. اخرجي واستمتعي بوقتك! إنها مرة واحدة في الشهر ليس إلا. أليس كذلك؟ يمكننا الاعتناء بأنفسنا طالما هو يوم واحد فقط».

عندما قدم ابني الأكبر الذي يدرس في الثانوية العامة ذلك العرض، تطوعت ابنتي التي تصغره بسنة واحدة لكنها لا تقل عنه شأنًا، «هذا صحيح. يمكنني الاهتمام بتحضير الطعام فأنا ممتازة في تحضير الأرز بالكاري».

كان الأرز بالكاري هو وجبتنا المعتادة في تلك الليالي كما كانت الوجبة الوحيدة التي تجيدها ابنتي. أما ابني الثالث فيدرس في الصف السادس. لقد تصرف أبنائي وكأنهم راشدون عكس زوجي فهو من كنت دائمًا أقلق بشأنه فقد اعتاد في كل مرة أنوي فيها الخروج أن يقطب حاجبيه مبديًا امتعاضه.

«هل هناك قميص أبيض يمكنني ارتداؤه غدًا؟»

«أجل».

«لقد كنت أنوي أن نقوم جميعًا بتنظيف الحديقة اليوم، لكن لا عليك».

«حسنًا، فلنؤجل هذا الأمر. طيب؟»

في كل مرة ندخل في هذا النوع من الجدل، يهب أبنائي لمساعدتي ضد والدهم.

«أبي أنت أناني. كيف يتسنى لك التفوه بهذا الكلام وأمي على وشك الخروج لاجتماع نادي الأربع ورقات؟ أنت متسلط».

لقد اعتادت ابنتي نعت كل تصرف ذكوري يصدر عن

أبيها وأخيها ولا يبدو لها منطقيًا بأنه تسلط. لكن كم كان مفاجئًا أن كلمتها تلك التي أخذت تطلقها في منزلنا الوادع دفعتنا إلى التفكير لأي درجة نحن متسلطون. رغم أنني لم يسبق وأن تفوهت بهذه الكلمة إلا أن الصغار أصبحوا يستخدمونها بجرأة وهذا ما حصل في يوم الأم في الأول من مايو.

«من الظلم أن يكون هناك يوم للأم ولا يكون للأب يوم مثله. ألا تعتقدون ذلك؟»

لقد كان زوجي يمزح فقط إلا أن ابنتي سرعان ما استدارت إليه قائلة:

«هذا افتراء. أنا لا أعتقد بهذا أبدًا فيوم واحد في السنة للأم غير كاف البتة. أبي أنت تعيش يوم الأب كل يوم. هذا تسلط!».

قد يعزى ذلك إلى كوني قديمة الطراز ولكنني كنت أشعر قبل كل اجتماع لنا بثقل وانقباض في قلبي حتى أنني فكرت أحيانًا بأن أتخلى عن المجموعة، لكن سرعان ما يزول ذلك الإحساس عندما ألتقيهن فأشعر بسعادة كبيرة أني لم أذكر شيئًا لزوجي. بالرغم من ذلك كنت أتطلع إلى وجوههن متسائلة ترى هل خطرت ببالهن تلك الأفكار مثلي؟

في اجتماع شهر يوليو خرجنا جميعًا في ملابس غريبة الطراز. بالنسبة إلي فقد ارتديت صندلًا جديدًا من الكانفاه

فبدوت شابة للمرة الأولى منذ فترة طويلة جدًا. تبسم ابني وقال بمكر: «هاي، أمي، ستكون هناك هدية بانتظارك عندما تعودين. أوه يا إلهي. كله بالداخل. نعم! نعم! أليس كذلك يا جيرو؟»

نظر الولدان أحدهما إلى الآخر ضاحكين وكأنهما يستمتعان بسرهما.

أوه يا إلهي. كله بالداخل. تلك هي كلمة السر للأسرة عندما ترغب في الإشارة إلى أمر سري وقد ابتدعها زوجي عندما أخذ يغني وهو ثمل أغنية شعبية تبدأ بها «رغبت في تلك المرأة حتى الموت. من الرائع أنها أصبحت أخيرًا زوجتي». وفي أحد المقاطع يغني بنبرة خافتة، «أوه يا إلهي. كله بالداخل. كله بالداخل». لقد أعجبت ابنتي وابني الأكبر بذلك الجزء فبدآ باستخدامه في حديثهما. كانت تلك الأغنية من النوع الذي يجعلني أحمر خجلًا عند سماعها بحضور الآخرين وكم كنت أشعر بالحنق منه فأفكر، «يا لجرأته. وأمام الصغار؟ لكن أبناءنا المنتمين بالطبع إلى الجيل الجديد استمتعوا بذلك المقطع وأخذوا في تقليده في براءة طفولية. واضح أن بإمكان الأطفال الشرب من الماء القذر تمامًا كالشرب من الماء النظيف دون أن يتسمموا. لا أعتقد أن هناك شيئًا يدعو للقلق سوى أنني ووالدهم كنا من قديمي الطراز ليس إلا.

تضمّن جدولنا لذلك اليوم التجوال بين واجهات المعارض وحضور عرض للأزياء ومن ثم تناول وجبة نودلز

خفيفة. أما بعد العصر فمن المزمع حضور فيلم ايطالي ثم تناول الطعام في مطعم غربي رغم أن ما معنا من مال لا يكفي إلا لطبق واحد فقط. ولفترة المساء عقدنا العزم على التنعم بأجواء جادة غينزا(*) بل وتجربة لعبة الباتشينكو قبل العودة إلى البيت. لكننا في الحقيقة عدنا دون أن ندخل أي قاعة باتشينكو ولكن بما أن ذلك هو النشاط الوحيد الذي لم يسعنا الوقت لأدائه فقد أجلناه إلى اجتماعنا القادم. كان الحد الأعلى الذي وضعناه لمصروفاتنا لذلك اليوم هو خمسمائة ين وكما هو متوقع فقد أنفقناه حتى آخره. لقد كان ذلك اللقاء باذخًا بشكل غير اعتيادي.

«في المرة القادمة سنحدد نفقاتنا بحزم أكثر». قالت كاتشان ذلك إلا أن السيدة أونو اعترضت قائلة: «ماذا تقصدين؟ لو كان لأحد أن يقول ذلك فأنا أولى به. ألا ترغبن أحيانًا في اللعب كالرجال وإنفاق كل ما بحوزتكن؟ ربما ليس بإمكاننا التمادي إلى تلك الدرجة ولكن على الأقل لا تقولي بأن المال سينفد منا. لقد حصل أزواجكن على العلاوة نصف السنوية. أليس كذلك؟»

جذبت السيدة أونو قداحة وأشعلت سيجارة ونفثت الدخان كمدخنة عتيقة. إنها تتصرف كما لو أنها تدخن منذ زمن طويل رغم أنها في الحقيقة حديثة عهد بالتدخين.

«هاي، هل لك أن تناوليني واحدة أنا أيضًا؟»

(*) غينزا: منطقة تسوق راقية في طوكيو.

ناولت السيدة أونو كامل العبوة لكاتشان التي أخذتها باضطراب. نظرت السيدة أونو إلي قائلة، «بعد كاتشان غالبًا سيكون دور السيدة كوراتا ولن يمر وقت طويل قبل أن تبدئي أنت بالتدخين. هه؟»

«ذلك غير صحيح». قلت لها. «لقد كنت أول من اقترح إنشاء ناد نتفوق فيه على أزواجنا. يمكنني على الأقل تدخين السجائر فيه. أعطيني واحدة. أعطيني واحدة».

«ماذا؟» تساءلت كاتشان. «وهل هناك علاقة بين تدخين السجائر والتفوق على الزوج؟هذا جنون!»

عندئذ انفجرنا ضاحكتين بينما اختنقت أنا مع أول نفثة لي فتدفقت دموعي وأخذت أسعل بعنف. تمامًا هناك في وسط غينزا ونحن مغمورات بأضواء النيون، أخذت السيدة أونو تربت على ظهري قائلة: «أيتها الغبية إنك تحاولين التصرف كأرملة أو كامرأة تطاردها حماتها».

«الآن.. ذلك هو الجنون!» قلت ذلك وأنا ما زلت أسعل تجنبًا للاعتراف بالهزيمة ولكن وفي الوقت نفسه ولسبب ما مر زوجي بخاطري فجأة.

هواجس. . . في أغلب الظن إن النساء أمثالي من ذوات الطراز القديم هن فقط من يتحدثن عن هذه الأمور ولكن تلك الهواجس كانت دقيقة بشكل غريب حقًا. حتى بعد أن ركبنا القطار في شينباشي تملكني شعور رهيب بالقلق بشأن أسرتي وكأن شيئًا محبطًا سيكون بانتظاري. في محطة طوكيو استبدلنا القطار إلى خط تشو، وكما يبدو فإن

ذلك القلق انعكس على وجهي فما أن جلسنا معًا حتى بادرتني كاتشان بالسؤال: «ما الأمر؟ تبدين في غاية الذهول؟».

«أنا متعبة قليلًا».

«ربما لأننا مشينا مسافة ثمانية شوارع في غينزا! إلا أن ذلك كان ممتعًا. أليس كذلك؟»

«صحيح».

ولأنني أجبتها ببرود فقد استدارت كوتشان ناحية السيدة كوراتا فأغمضت عيني وأخذت أفكر بصمت وأسترجع أحداث ذلك اليوم وكيف غادرت المنزل.

«. . . سري للغاية. نعم. نعم».

«. . . إن أخبرت أحدًا ستجلب سوء الحظ. . .».

كانت تلك هديتنا إليك التي أخذ ابني يتغنى بها مداعبًا وكما يبدو جليًا أنه قد تم إخفاء الأمر حتى عن والدهم. لقد خمنت مسبقًا أنهم يعملون لوحدهم على صنع قفص للدجاج فقد كانوا يدخرون مصروفهم ومن ثم يشترون ويجمعون صناديق التفاح الفارغة والخيزران وأسلاك الشبك. رغم أني حاولت تخيل المكان الذي يبنونه فيه لكن بلا جدوى مما أثار القلق في نفسي. لو أن زوجي بقي ذلك اليوم في المنزل لهان الأمر، إلا أني تذكرت ولسوء الحظ أنه أخبرني برغبته في الذهاب إلى صديقه للعب الغو.

«تعلمين؟ لقد تملكني شعور مباغت بالقلق بشأن زوجي». وجهت تلك العبارة لكاتشان بعد أن عجزت عن البقاء صامتة فأجابتني بشيء من الدعابة: «ذلك لأننا قد تأخرنا. إنه الشيء نفسه بالنسبة إلينا جميعًا. لقد أدركت أخيرًا أنه من الأفضل لنا أن نأخذ الأمور بحزم فلو تركنا التوتر يتملكنا تجاه عدم إزعاج أسرنا فسنضيع. لكن ألا تعتقدين بأن خروجنا إلى البلدة بهذه الطريقة قد منحنا القدرة على فهم طريقة تفكير أزواجنا عند عودتهم إلى المنزل بعد أن ينالوا قسطًا وافرًا من المرح؟ ألا يحاول إرضاءك بهدية يحضرها معه؟ ثم ألا يجعلك ذلك تشعرين بغضب أكبر؟ ألا تفضلين أن يكون صادقًا وصريحًا معك؟ إذن لنكن صادقات وصريحات».

«صادقة وصريحة. مجرد قولك ذلك يجعلك تبدين مخادعة وكاذبة. دعونا نرجع إلى بيوتنا بكرامة».

عندما قالت السيدة كوراتا ذلك خطر ببالي أنه قد تكون هي أيضًا مخادعة وكاذبة.

ركبنا في ساغايا الباص الأخير المتجه إلى جسر ناكامورا ونزلنا في الشارع الثاني بساغينوميا حيث انفصلنا عن السيدة أونو بينما انطلق ثلاثتنا في الاتجاه نفسه منعطفات يسارًا إلى الطريق الرئيسي. وبينما نحن سائرات جنبًا إلى جنب قالت السيدة كوراتا بصوت مغتم: «نحن النساء مثيرات للشفقة».

«إننا نصبح فعلًا مثيرات للشفقة بترديدنا لكلام كهذا. لا تتحدثي بتلك الطريقة!»

عندما قالت كاتشان ذلك كنا قد وصلنا إلى الزاوية حيث سأنفصل عنهما.

«تصبحان على خير. شكرًا جزيلًا».

ركضت عبر ممر في وسط الحقول ورغم الظلام خطوت بسرعة ورشاقة. كانت الأنوار مضاءة في منزلي ورؤيتي له تحت تلك السماء المزدانة بالنجوم جعلتني أغص بحنيني إليه.

«أنا في المنزل!»

ما أن فتحت الباب الأمامي حتى أشعرني جهاز الاستشعار الداخلي بأن هناك خطبًا ما.

«كنت أعرف». أخذت أفكر وبينما أنا أفك رباط حذائي، أقبل أبنائي لتحيتي فأرغمت نفسي على أن أبدو مرحة.

«لقد قضيت وقتًا ممتعًا اليوم. أشكركم».

ناولت ابنتي علبة حلوى كنت قد أحضرتها معي كهدية بينما أخذت أتمعن في وجوههم.

«بالنسبة إلينا لم يكن هذا اليوم ممتعًا قط فأبي لم يكن موضوعيًا البتة».

قالت ابنتي ذلك وهي تئن برقة: «لقد كنا توًا نشتكي منه. أليس كذلك؟» أردفت وهي تلتفت إلى أخيها الأكبر.

كان واضحًا على وجهها الكئيب أن لديها الكثير من .الشكوى.

«يا إلهي ما خطبكم؟ ألا يمكنكم تفهم شخصية والدكم؟» قلت ذلك وأنا أوبخها.

«لكن اليوم لم تكن المسألة مسألة شخصية فقط. لقد كان متسلطًا جدًا. أخبرها». قالت ذلك وهي تلتفت إلى ابني الأكبر.

«إنني عاجز عن مجرد الحديث في الأمر. صحيح أنه والدنا لكن ما فعله تعدى المعقول تمامًا».

كان ابني على وشك البكاء وهو يقول ذلك. قادني أبنائي إلى حجرة الصبيان المجاورة للردهة الأمامية وأخذوا في سرد القصة بالتناوب، وكما توقعت فقد قاموا ببناء قفص للدجاج في الباحة الأمامية. نفست ابنتي عن كرامتها المهانة وهي تقول: «ما أن وصل أبي إلى البيت حتى ثارت ثائرته وقبل أن نتمكن من قول شيء قام بركله بقدمه. لقد قام بتدمير قفص الدجاج الذي تعبنا في بنائه وحطم كل أعمدته، لقد تشابكت الأسلاك ولم تعد صالحة للاستخدام مرة أخرى».

«لقد بنيتموه دون استئذان. أليس كذلك؟ ولم تستشيروه البتة. لو أنكم تصرفتم بالطريقة الصحيحة لما فعل والدكم ذلك أبدًا».

«ولكننا اعتقدنا حقًا بأن ذلك سيسعده». قال ابني الأكبر: «كنا سنتمكن من الحصول على بيض الدجاج دون الحاجة إلى شرائه. لقد كنا واثقين بأننا سنسعدكما بذلك. أليس كذلك؟» وجه سؤاله لأخته. وقف ثلاثتهم بمن فيهم ابني الأصغر بلا حراك وكالعادة كان ابني الأكبر هو أكثرهم هدوءًا وأقدرهم على إعادة التفكير في الأمور.

«لكن أمي»، قال لي، «حتى لو كنا أخطأنا بعدم استشارة والدي، ما كان عليه أن يحطمه دون أن يحذرنا. لقد كانت نياتنا حسنة عندما شرعنا في ذلك العمل ولمجرد أن أبي لم يرقه ذلك قام بتكسيره دون أدنى مبالاة بنا».

«حسنًا. أنتم تعرفون طبيعة والدكم».

«حسنًا إذن. من المسموح له أن يفقد أعصابه فقط لأنه الأب. لذا هو متسلط».

«على العموم اتركوا هذا الأمر لوالدتكم. يجب ألا تكونوا عدائيين تجاه والدكم هكذا».

«لن نخضع. حتى لو أحسنًا التصرف معه فإن مشاعرنا لن تتغير. منذ اليوم لن تعود مشاعرنا تجاهه كالسابق».

«هذا صحيح! ماما أنا لا أفهم كيف تمكنت من العيش مع ذلك الرجل العنيد لمدة عشرين سنة. لقد كنت دومًا خاضعة له وتتصرفين وكأن كل شيء على ما يرام لتزيديه تسلطًا فقط. ماما، أنت سيئة مثله تمامًا».

«أنا أكره أبي».

كم أزعجتني تلك التنديدات التي لم يسبق أن وصلت إلى مسامع زوجي وكانت مهمتي على الدوام ألا تصل إليه كلمات كتلك.

لقد قالت ابنتي: «ماما.. أنت سيئة مثله تمامًا». لكنني أدركت بأن ماما قد تكون في الحقيقة أسوأ منه.

«حسنًا. ماذا يمكننا أن نفعل؟ ما رأيكم لو قدم والدكم الاعتذار. سأقنعه بذلك».

«لا فائدة. أبي لن يعتذر أبدًا». أعلنها ابني الأصغر بثقة.

أجبته ضاحكة: «الآن.. نحن لسنا واثقين بذلك. حسنًا إذن.. أنا سأقنعه بالاعتذار وبالمقابل أنتم أيضًا ستعتذرون عن تصرفكم الخاطئ».

«نحن لم نخطئ البتة. أليس كذلك؟» سأل أخته.

«هذا ليس صحيحًا». أجابته: «لقد اقتلعنا كل الطحالب التي تعب والدي في زرعها».

أخيرًا أظهرت ابنتي بعضًا من ضبط النفس ولكنها أردفت: «هل الطحالب بتلك الأهمية؟ أعتقد أن البيض أفضل. صحيح؟»

«هذا صحيح». وافقها شقيقها الأكبر، «الطحالب هواية قذرة».

أخذت في الإنصات إلى الصغار دون أن أنطق بكلمة، فمن الطبيعي ألا يتفهموا تعلق والدهم بحديقة الطحالب تلك واهتمامه برشها بالماء كل يوم وتقديم العناية الفائقة بها.

لقد تركتهم يتحدثون كما شاءوا إلى أن هدأت ثائرتهم ثم ناولتهم بعضًا من الحلوى ومن ثم توجهوا سريعًا للنوم. لقد تأثرت بغضبهم فأصبح لزامًا علي أن أضبط أعصابي وأنا أتحدث إلى زوجي «صحيح أنك والدهم ولكن ما فعلته كثير عليهم. ربما تعتقد أنهم ما زالوا أطفالًا صغارًا لكنهم يدركون كل شيء».

لقد بقي زوجي صامتًا دون أدنى مبالاة فاعتقدت أنه متحل بالصبر، لكنه في الصباح التالي غادر المنزل دون أن يقول شيئًا أو يفعل أي شيء.

يا للمسكين!

بقيت طوال ذلك اليوم أتأمل وضع زوجي منذ أن كان شابًا إلى الوقت الحالي. لقد كنت من ذلك الطراز البالي فلم أخبر أحدًا يومًا بأن زواجنا بني على الحب وكم غمرتنا السعادة عندما رزقنا أبناءنا وقمنا على تربيتهم. كيف لي أن أبقى صامتة وأبنائي يشعرون تجاه زوجي بهذا النفور؟

غادرت تلك الليلة إلى محطة القطار دون أن أخبر أبنائي. لقد مضى زمن طويل منذ آخر مرة ذهبت فيها إلى هناك للقاء زوجي مع أن بإمكاني استئجار مظلة لو كانت السماء تمطر. عندما كنت أصغر سنًا كنت أنتظره بجرأة إلى

جوار محصل التذاكر، أما الآن فقد اختبأت إلى جانب عمود الهاتف المجاور لمقدم المحطة. أخذت بالتفرج على الركاب ولأن المحطة لم تكن مزدحمة بسبب تأخر الوقت فزوجي يعمل لفترة أطول في أيام الإثنين، فقد تمكنت من مشاهدتهم وهم ينزلون الواحد تلو الآخر. لا بد أنني قد انتظرت ما يقارب الخمس عشرة دقيقة إلى أن ترجل زوجي من المقطورة الأمامية حاملًا مظلة بيده وكتفاه محدودبتان بشكل يمكنني من تخيل تعابير وجهه. اتجه إلى محصل التذاكر ورأسه منكس إلى الأسفل. لا أعلم لم اندفع الدم إلى رأسي وأنا أراقبه وهو يخطو خطوة بعد الأخرى. ترك محصل التذاكر وتوقف أمام كشك لبيع الفواكه، تناول شيئًا مغلفًا في حزمة وتقدم أخيرًا نحوي. لا أعرف في ما كان يفكر عندما اقترب من معبر سكة الحديد فاتحًا مظلته. سار ببطء تجاهي دون أن يدرك أنني كنت أراقبه. تركته يتجاوزني وأنا أحاول كتم ضحكتي. لم تكن السماء تمطر بل في الحقيقة كان القمر مشعًا. يبدو أن زوجي لم يلحظ ذلك، كما أنه لم يلحظ لبرهة أنني أسير خلفه. انعطفنا إلى الطريق الرئيسي تجاه البيت وأسرعت الخطى خلفه لكنه لم يتطلع حوله قط فهو مقتنع بأن من يحمل مظلة عليه أن يستخدمها. سرت بهدوء خلف ذلك الطيف الغريب الحامل لمظلته في ليلة قمراء.

المؤلفة

Tsuboi Sakae

تسوبوي ساكاي
اليابان

روائية وشاعرة ولدت عام 1899 في مدينة كاغاوا في اليابان. التحقت بالتعليم العام ودرست لثماني سنين ثم اضطرت إلى ترك الدراسة والبحث عن عمل بسبب أزمة مالية تعرضت لها أسرتها. تدور معظم كتاباتها حول ما تتعرض له الأسرة من مصاعب ومعاناة في مواجهة التغيرات الاجتماعية. كتبت باللغة اليابانية للصغار والكبار وتحول بعض كتاباتها إلى أفلام سينمائية. توفيت عام 1967 بعد أن حصدت العديد من الجوائز الأدبية. من أهم أعمالها: 24 عينًا، أوراق الفجل والمنحدر.

لحظات تحول

Transforming Moments

الكاتبة/تشينا ملوفي Gcina Mhlophe

عندما كنت في الحادية عشرة من عمري،كنت أفتقد الثقة بنفسي، إلا أن أدائي في المدرسة كان رائعًا فأحبني معظم أساتذتي ـ أو على الأقل ذلك ما بدا لي، وواجباتي كانت هي المثلى لذا عادة ما كانت تقرأ علي الفصل كله. أغلب الظن أني كنت فخورة بنفسي رغم أني لم أفكر في الأمر بجدية، فلم يمنحني ذلك أي ثقة بالنفس ولا جعلني أحب نفسي فقد كنت مؤمنة بأني قبيحة جدًا ومما زاد الأمر سوءًا شعري الذي يصعب تسريحه، حتى أني اعتدت تشبيهه بالحشائش الجافة في فصل الشتاء وقد توقفت عن تمشيطه. كل ما أفعله هو أن أغسله وأجففه ثم أرتدي تنورتي السوداء وقميصي الأبيض اللذين لم يبدوا في جمال ملابس الأخريات قط، ومن ثم أمضي إلى المدرسة. فوق كل ذلك كانت لي ركبتان مصطكتان وقدمان ضخمتان. كنت فعلًا قبيحة وخرقاء! كم كنت أكره نفسي. ويا للهول كنت دائمًا أجلس في مقدم الفصل. الآنسة قبيحة، الأولى في الصف.

كانت مدرستنا هي الأكبر في شرق كيب كما كانت جوقة المدرسة هي الأفضل، فقد حصدت الكثير من الجوائز. كلما مرت الجوقة بخاطري، تذكرت بوليلوا فقد اعتدت إغماض عيني للاستمتاع بغنائها، ولطالما تمنيت أن أمتلك آلة تسجيل لأسجل صوتها حتى يصبح بمقدوري الاستماع إليها طوال حياتي. يتوجب علي أن أخبركم بمدى سعادتي الكبيرة عندما كانت بوليلوا تأتي في الأماسي للاستذكار معي تحت العريش الأسود المجاور لأكواخ المعلمين وكم أحببت تلك البقعة من الأرض. أتذكر أيضًا كيف كانت بوليلوا تساندني حين تبدأ الفتيات بمضايقتي بشأن الصبيان فهن يعلمن جيدًا أني لست مولعة بمصادقة الأولاد...رغم ذلك يستمرون في الأمر... لكن من عساه يرغب في الخروج معها، إنها لا تبذل أي جهد لتبدو بمظهر أحسن.

أذكر أيضًا ذلك الصبي الوسيم من بورت اليزابيث، لاعب الرجبي الذي أمضى نصف العام معنا دون أن تكون له صديقة، كان نجم فريق الرغبي. لقد عرفت اسمه وسمعت الكثير عن أخلاقه الرفيعة لكني لم أتعرف إليه حقًا فأنا لست من ذلك الطراز الذي يتردد إلى الملاعب الرياضية، إضافة إلى أني كنت مدفونة على الدوام بين كتبي لأقرأ الكتب المقررة كلها ثم أنتقل إلى كتب أخرى وصحف ومجلات. وأقرأ أيضًا قصص الحب لباربرا كارتلاند وكاثرين كوكسون وكتب جيمس بولدوين.... وأقرأ وأقرأ حتى ليخيل إليك أن القراءة هي الشيء الوحيد الذي

يبقيني على قيد الحياة. وعندما يطلب منا قراءة كتب معينة أكون أنا قد قرأتها مسبقًا فأتمنى لو ينتقل المعلم إلى كتب أخرى لم أقرأها من قبل. لم أكن يومًا محط إعجاب أولاد الفصل سوى حين يحتاجون إلي لمساعدتهم على حل واجباتهم المدرسية.

في مسكن الفتيات، يقع سريري في أبعد نقطة عن المدخل وكذلك عن المشرفة. وبعد أن تطفأ الأضواء بوقت طويل، يظل صوتي العميق يتردد برتابة لفترة طويلة وأنا أقوم بما اعتدنا تسميته بالسعال. لقد اعتدت أن أسعل فصولًا وفصولًا من مقرراتنا الدراسية وكتب التاريخ التي أهملت زميلاتي استذكارها حتى أزف موعد الامتحان الذي سيعقد غالبًا يوم الاثنين. مساعدتي لهم على المذاكرة أتاحت لي التمادي في سعالي وتنشيط ذاكرتي، فقد كنت أقرأ الكتب الدراسية ثم أنتقل إلى كتب أخرى لا علاقة لها بالمناهج المقررة. لهذا السبب أجبرت بعض الفتيات أنفسهن على مصادقتي لبعض الوقت. ثم جاء ذلك اليوم الذي كنا نتدرب فيه على أداء إحدى المسرحيات المدرسية، عندما صعد ذلك الفتى الجديد من بورت اليزابيث إلي وأخبرني أنه يحبني وأنه يتمنى لو أحاول أن أحبه أيضًا.

حسنًا. لقد اعتقدت أنه أصيب بالجنون! ترى ما الذي يريده فتى في وسامته من فتاة مثلي - إضافة إلى ذلك أنا لم آت إلى المدرسة لإقامة علاقات مع الصبيان بل لأدرس.

هذا ما أخبرته به. حاول إقناعي بأنه لا يريد شيئًا محددًا وبأنه لا يستعجل الأمر وكل ما يتمناه هو أن يصبح صديقي وأن يقضي وقته برفقتي. قال إن بإمكاننا قضاء أوقات ممتعة في الحديث والقراءة معًا إن كان ذلك هو ما أحبه وأرغب فيه فطلبت منه بأن يتلطف ويتركني وشأني.

في الحقيقة لم يتركني ذلك الفتى وشأني لكن كثيرًا من الفتيات فعلن فهن يعتقدن أنه أفضل من أن يصادق فتاة مثلي وأن على فتى المدينة أن يرافق فتاة تشبهه، لذا كن يشحن بنظرهن عني كلما اقتربت أو اتجهت إليهن، وأخذن بإطلاق الهمسات الجارحة من وراء ظهري. في البداية كان الأمر مزعجًا لي فكنت أردد على مسامعهن بأني لا أود أن يربطني أي شيء بوسيم المدينة ذاك، وأن بإمكانهن الحصول عليه ولكن عندما تزايد عداؤهن لي واستمر الفتى في ملاحقتي بدأ الأمر يبدو مضحكًا لي. تطلعت إلى الفتيات اللاتي كرهنني وتساءلت ترى ما الذي سيحدث إن قررت الموافقة على مصادقة نجم الرغبي، ثم أخذت أضحك مع نفسي وأنا أتخيل ما سيتهامسون به حولي. حسنًا إذن، إنه ليس أعمى ويمكنه أن يرى أني قبيحة وأني لا أهتم بالملابس العصرية كما أنه يدرك بأني أقرأ كثيرًا. جيد، سأخرج معه إذن. لقد اختار الفتاة غير المناسبة فأثار المدرسة بأسرها حتى إن معلم اللغة الانجليزية اعتقد أن الأمر طريف جدًا فهنأني على إثارة كل تلك الزوبعة. وبمرور الوقت اكتشفت أن سيزوي شخص لطيف وبانتقاله من مدرستنا في نهاية تلك السنة كانت عرى صداقتنا قد توثقت.

واصلت دراستي واستمررت في إرضاء أختي في جوهانسبرغ فهي من تدفع من أجل تعليمي. كنت أتخيل وجهها يشعّ سعادة وهي تتلقى نتائجي الرائعة وكم كنت أتمنى لو أتمكن من رؤيتها في تلك اللحظة. لقد حصلت على أعلى الدرجات وقد عدنا توًا لمتابعة الفصل الثاني من الدراسة بعد تمتعنا بعطلة الشتاء. لا أعلم كيف بدأ الأمر لكن وبمرور الوقت راودني شعور بأن القس يحبني. ليس بمقدوري تفسير ذلك سوى أن لكل منا أناسًا يحبونه في هذه الحياة. الأمر بتلك البساطة. بالطبع كنت دومًا حسنة السلوك في الكنيسة وكنت إحدى ثلاث فتيات نهتم بقطف الزهور وتهذيبها وتنسيقها في الأواني الخاصة بالكنيسة صباح كل أحد، فقد نبذت من جوقة المدرسة لأن صوتي عميق جدًا ولا يمكنني المشاركة في الغناء والترديد إلا مع الصبيان أو أن أغادر. ضحك الجميع مني فجزمت أن صوتي غير حسن لذا تركت الجوقة وازداد كرهي لنفسي. إلا أن القس أصرّ على انضمامي إلى جوقة الكنيسة رغم اعتراضي وتحججي بصوتي القبيح، فقال لي بأن صوتي ليس بقبيح بل قوي ورنان. كانت تلك أول مرة أسمع فيها كلمة رنان وكم أحببت ذلك. وهكذا التحقت بجوقة الكنيسة.

ثم كان عصر تلك الجمعة حين كنت أسير في مجموعة من الفتيات العائدات من المدرسة في تكاسل حتى بدت الشمس كسلى مثلنا، وعندما كنا نسير بمحاذاة منزل

القس أقبل صبي صغير راكضًا تجاهنا وأخبرنا بأن القس يرغب في رؤيتي. مضيت معه وعندما أوشكت على دخول المطبخ أقبل القس بنفسه وأمرني بالذهاب وإعداد حقيبتي لعطلة نهاية الأسبوع فهو ذاهب لزيارة عائلته وسيصطحبني معه. وقفت هناك بأعلى الدرج فاغرة فاهي عاجزة عن الحراك أو الحديث. نظر إلي وضحك بصوت عال ثم أخبرني بأن لدي أقل من ساعة لذا يتوجب علي الركض، وبدون أن أنبس ببنت شفة استدرت وقطعت خمس خطوات بقفزة واحدة. ركضت بأقصى سرعة وأنا متشبثة بكتبي. لقد أدركت أنني لست وحيدة بهذا العالم وأن الجميع يحدقون بي. حاولت أن أستجمع نفسي وأن أطبق شفتي لأخفي ابتسامتي العريضة.

ما إن وصلت إلى السكن حتى غدوت غير قادرة على تحديد ما أرغب في أخذه وما لا أرغب فأنا لم أعتد قضاء عطلة آخر الأسبوع خارجًا. وبسرعة خلعت زي المدرسة وارتديت أفضل ملابسي ثم ركضت إلى الحمّام لأبلل شعري فقد أتمكن من تسريحه. آلمني ذلك فاكتفيت بسحبه إلى الخلف وتمليسه بيدي وعندما شعرت بأنه يبدو أفضل، أخرجت حقيبتي البلاستيكية ووضعت فيها بعض الضروريات ثم أدركت أني نسيت مناماتي فقفزت لسحبها من تحت وسادتي. في تلك الأثناء أخذت الفتيات في ملاحقتي بأعينهن لكن غرورهن منعهن عن الاستفسار مني وقد نويت ألا أخبرهن بأي شيء إن لم يسألنني.

عندما أوشكت على الخروج من الباب، سحبت نوسيسا ذراعي وسألتني: «ألن تخبرينا إلى أين أنت ذاهبة؟» فتح ذلك المجال للأخريات فطرحن أسئلتهن في وقت واحد.

«أنا ذاهبة مع الأب فيكني لزيارة أسرته في عطلة نهاية الأسبوع. لقد قال بأن علي أن أركض» وبذلك حررت ذراعي وأسرعت للخروج من البوابة.

كان الطريق إلى تسولو هادئًا وقد أوشكت الشمس على الغروب وجلست أنا حالمة بالمقعد الخلفي. أما القس وزوجته فقد جلسا أمامًا في اطمئنان. كانت السيدة فيكني امرأة جميلة قليلة الكلام وكثيرًا ما كنت أتطلع إليها في الكنيسة وأتمنى لو أن ملاكًا يأتي ليسألني ماذا أريد. أنا أعرف تمامًا ما سأطلبه منه ـ أريد أن أغدو بجمال زوجة القس.

تلك الليلة أوينا إلى النوم حوالى الساعة العاشرة بعد أداء صلوات المساء واستغرقت سريعًا في النوم فقد كنت متعبة من كل تلك الإثارة التي شعرت بها ذلك النهار ولكن عندما استيقظت في الصباح، وجدت أنني ما زلت أشعر بالإثارة لكوني لست مرغمة على الاستيقاظ على صوت رنين الجرس، ولست مرغمة على المضي إلى صالة الطعام أو إلى المدرسة... استحممت ثم اتجهت إلى المطبخ لتقديم المساعدة. تعامل الجميع معي بشكل طبيعي وليس كضيفة خاصة لا يمكنها غسل الأطباق مما جعلني أشعر بالارتياح والألفة وكأني في المنزل.

جلسنا جميعًا على الشرفة لتناول الإفطار وقد اتخذت مكانًا إلى جوار زوجة القس التي انهمكت في حبك قميص كبير ذي خطوط حمراء وزرقاء. لقد بدا لي أكبر من أن يكون لها لكنها أخبرتني بأنه لها وأنها تحب أن يكون بذلك الشكل، طويل وكبير وكأنه معطف. جلست هناك أرقب يديها السريعتين، أما التطلع إلى وجهها فقد كان أمرًا آخر. إنه وادع وجميل كعادته وعيناها لا تنظران إلى ما تحوكه إلا حين ينفد منها الصوف أو حين ترغب في تغيير لونه. كنا جلوسًا على تلك الهيئة حين نهض القس وتمطى بذراعيه ثم قال إن وقت الذهاب قد حان. وقت الذهاب إلى أين؟ تعجبت بعض الشيء لكني تابعت مراقبة اليدين المنشغلتين بالحبك، وعندما لم يتحرك القس رفعت ناظري إليه فقد شعرت ببصره متجهًا إلي. قال بأنه يجدر بي الذهاب معه. تطلعت حولي لكن أحدًا لم يقدم لي أي تفسير فنهضت ودخلت معه إلى المنزل. قال لي شيئًا عن اجتماع ما وأني سأحب ما سأشاهده في تلك الاجتماعات. لم أعرف ما أقول فابتسمت وأعددت نفسي للذهاب.

عقد الاجتماع في قرية مجاورة في مقر الزعيم. هناك جمع غفير من الناس، جلس بعضهم على العشب وآخرون على الصخور أو على مقاعد خشبية بالقرب من حظيرة الماشية. بدا لي وكأن القرية كلها بكامل أفرادها قد حضرت للاجتماع. تأخرنا في الوصول لكن أحدًا لم يزعجه ذلك بل أفسحوا لنا للجلوس بينما استمر المتحدث في الإلقاء

والجميع منصت إليه. أذكر أنه كان يتحدث عن السماح للماشية بالرعي في حقول الذرة بعد الحصاد وأن على الجميع التوصل إلى اتفاق بشأن تلك المسألة، وكان الحديث يدور عن مواضيع من ذلك القبيل وقد شارك الجميع في النقاش، إلا أن المشكلة هي أنه لا شأن لي بكل تلك الأمور. جلست بهدوء محاولة إبداء الاهتمام قدر ما أستطيع. بعدئذ جاء دور ذلك الرجل ذي الكتفين العريضتين والوجه الأدكن جدًا. وثب إلى الأمام وعيناه تومضان وكأنه يترقب شيئًا ما. إنه يعتمر قبعة حمراء جميلة مزينة بالخرز والريش الأسود وقد زين رقبته وخاصرته بالمزيد من الخرز وارتدى ذلك الرداء الجلدي الذي يعلو ركبتيه من الأمام قليلًا بينما ينساب طويلًا من الخلف وأمسك بعصا قصيرة وقوية زاد في طولها ذنب الثور الموصول بطرفها. كان قابضًا على العصا بإحدى يديه بينما ألقى على ذراعه الأخرى بعشوائية قماشًا أحمر كبيرًا بعض الشيء. عندما وقف الرجل، وقف معه الجميع في حركة متوقعة. نظر إلي القس وعلى وجهه ابتسامة عريضة وكأني بعينيه تقولان: «الآن، ذلك هو الأمر. استمتعي».

بدأ الرجل ذو الملابس الزاهية بالغناء وإسداء المديح لأسرة الزعيم ولإنجازاته ولأهل القرية وأبطالها العظماء في الماضي والحاضر. كم هي نقية ومتدفقة لغته وكذلك إيماءاته. وثب إلى الأمام وضرب بعصا ذنب الثور الأرض دون أن يحدث صوتًا فقلده بعض الحضور بلا وعي. تجده

في لحظة يكيل المديح كيلًا وفي لحظة أخرى يغدو تأمليًا وانتقاديًا. لقد سبق وأن سمعت عن شعراء المديح لكني لم أحلم يومًا برؤية أحدهم أمامي وهو يلقي شعره. جلست هناك فاغرة فاهي وحتى عندما أسترجع تلكم الذكريات أجد نفسي عاجزة عن وصف المشاعر التي تملكتني في تلك اللحظات. كل ما أذكره هو أنه عند انتهائه واتجاه الناس إليه لتهنئته وجدت نفسي منهكة تمامًا وعاجزة عن المشاركة في التهليل والتصفير.... بقيت جالسة ومستغرقة في حلم أرى فيه نفسي أرتدي ما ارتداه ذلك الرجل وأفعل مثل ما فعل تمامًا. اتخذت قراري منذ تلك اللحظة بأني سأغدو شاعرة مديح وكم كان رائعًا بأن أرى نفسي بتلك الطريقة. صافحت عددًا من الحضور ثم قدمني القس للزعيم الذي شكره على حضوره وسأله ضاحكًا ما الذي أفعله أنا في اجتماع كهذا. ثم أقبل الشاعر ليقدم التحية إلى الأب فيكني وبعد حوار طويل بعض الشيء قدمني إليه باعتباري التلميذة المجتهدة. عندئذ تجمد الدم في عروقي وانعقد لساني غير مصدقة ما يحدث. لقد أحسست وهو يضم يدي بيده الدافئة المتعرقة وكأني قد غدوت شاعرة مثله. كم وددت عندئذ لو أتمكن من التفوه بكلام مناسب إلا أن جل ما فعلته في تلك اللحظة هو التبسم والعبث بأزرار ردائي بتوتر، بينما واصل هو الحديث إلى الآخرين الذين كانوا ينادونه باسم سييرا.

كان ذلك عصر يوم الإثنين وأنا مستلقية على ظهري تحت العريش الأسود، عندئذ كتبت قصيدتي الأولى. لم

يكن لدي يوم طفل، لكن المشاعر التي غمرتني تجاه الكلمات قد تكون شبيهة بما يشعر به الإنسان حين يرزق طفله الأول، لا أعلم حقًا. جلست وأخذت في قراءة القصيدة بصوت عال. كم أحببت صوتي وكم أحببت سماع الشعر. وضعت الورق جانبًا وتلمست وجهي بأصابعي لأشعر بقسماته ولأشعر بالابتسامة التي لن تغادر وجهي. تلمست أنفي وخديّ وعينيّ وأذنيّ. بدا كل شيء رائعًا وبدا صوتي وكأنه من نوع مميز خلق خصوصًا لإلقاء الشعر بجلال. رنان ـ هل هو كذلك؟ ذلك هو اليوم الذي وقعت فيه في حب نفسي فكل شيء كان مثاليًا.

لملمت كتبي وفوطتي التي كنت أجلس عليها وتمطيت بذراعي. شعرت بأني طويلة ومتناسقة. وددت لو أقفز وأضحك إلى أن أتعب. وددت لو يأتي الغد سريعًا لأذهب لشراء دفتر جديد أدون به قصائدي. شاعرة مديح امرأة ـ لم أسمع بهذا من قبل. لكن ما المشكلة؟ سأكون الأولى. أعلم بأن الأب فيكني سيدعمني. لا أطيق الانتظار حتى أرى وجهه حين ألقي عليه شعري. عبر السياج، رفرف ديك أحمر كبير بجناحيه وأطلق صياحًا عاليًا تأييدًا لي.

المؤلفة

Gcina Mhlope

تشينا ملوفي
جنوب إفريقيا

ناشطة ومناضلة في سبيل الحرية. ولدت عام 1958 في همرزديل في جنوب إفريقيا. درست المرحلة الثانوية في شرق كيب تاون. تعددت نشاطاتها بين كتابة القصص والروايات والشعر والمسرحيات إلى جانب التمثيل والإخراج. حققت العديد من الإنجازات على المستوى المحلي والعالمي في مختلف المجالات وحصدت عددًا من الجوائز الأدبية. تعتبر من أفضل كتاب جنوب إفريقيا. طبعت عددًا من الكتب والقصص للأطفال مثل: الثعبان ذو السبعة رؤوس، أهلًا زوليكا إضافة إلى أعمالها الأخرى. تكتب باللغات الأربع المستخدمة في جنوب إفريقيا التي من ضمنها اللغة الانجليزية.

صوتها القادم من هناك

يحوي الكتاب بين دفتيه خمس عشرة قصة قصيرة لكاتبات تمثلن ثقافات مختلفة من شتى بقاع العالم ولا يجمع بين هذه القصص سوى أنها كتبت بواسطة أنثى. هل هذا تأكيد لفكرة وجود أدب خاص بالمرأة مستقل ومختلف عن باقي الآداب والفنون؟ ترجو المترجمة ألا ينظر للأمر على هذا النحو. فاختلاف أساليب الكتابة واختيار المفردات مرده إلى القاعدة الكونية في اختلاف البشر. المرأة صنو الرجل وشريكه في البناء والفكر والثقافة والإبداع. وعلى رغم ذلك، كانت الهيمنة للرجل على الدوام وكان له نصيب الأسد في الوصول والانتشار، وهذه ليست إلا محاولة متواضعة من المترجمة لإيصال صوت المرأة بكل ما فيه من رقة وق بساطة وغموض، قوة وخنوع، وكل ما تتصف به نساء ال من صفات متضادة، تماما كما هو الحال مع الرجل بذلت المترجمة أقصى جهدها في الحفاظ على أس الكاتبة والنبرة التي أرادت أن تحملها القصة، لذا س حين القراءة تباينا وتفاوتا ملحوظين من قصة لأخرى

ISBN 978-614-404-257-1

